هذه هي أمريكا

يوميات طالب مصري في بلاد العم سام

علاء مصباح

هذه هي أمريكا / من أدب الرحلات
علاء مصباح
الطبعة الأولى ، يناير ٢٠٠٩
الطبعة الثانية، أغسطس ٢٠٠٩

OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج
هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧
موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
حاتم عرفة
تدقيق لغوي :
أحمد منتصر
رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٨٨٤٢
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٧٢- ٢

هذه هي أمريكا

يوميات طالب مصري في بلاد العم سام

علاء مصباح

الطبعة الثانية

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع

إلى هؤلاء الذين جمعني بهم القدر في نيوبولتز لأربعة
أشهر، ثم تفرقت بنا السبل حول العالم..
لن أنسى هذه الأيام الجميلة ما حييت!

وقعت أحداث هذه الرحلة في الفترة ما بين
١٨ يناير ٢٠٠٨ حتى ٢٠ مايو ٢٠٠٨

السادة القراء

نستعد الان للهبوط خلال دقائق فى مطار JFK الدولى بمدينة نيويورك..برجاء ربط أحزمة الأمان والامتناع عن التدخين والبقاء فى مقاعدكم حتى تتوقف الطائرة تماما..

نتمنى لكم إقامة سعيدة فى الولايات المتحدة الأمريكية..

هذا الكتاب

عرفت (علاء مصباح) من قبل بقلمه الرشـيق في إحـدى المسابقات الأدبية بموقع (روايتي)، وعرفت على الفور أن هـذا الشاب من البؤساء / المحظوظين الذين أصابتهم عدوى الأدب، وأنه لن يشفى منها بسهولة.

ثم قابلت الاسم مرارًا في موقع (بص وطل) وكنت غالبًا ما أضع تعليقًا يعبر عن إعجابي بما كتب، لكـن معظـم هـذه التعليقات لم تكن تخرج للنور لسبب لا أدريـه. ولاحظـت سلسلة من مقالاته الممتعة التي تحكي عن رحلتـه للولايـات المتحدة. لم أعرف أنه ينتوي جمع هذه المقالات في كتاب، كما لم أعرف أنه كتب هذا الكم الذي يربو على الخمسين ألـف كلمة إلا عندما أرسل لي هذه المقالات طالبًا رأيي وتعليقي.

رحلة ممتعة قضيتها بين صفحات الكتاب وجدت نفـسي فيها أتقمص شخصية طالب الجامعة الأمريكية الذي يرى هذه البلاد بمزيج من انبهار ووجل وتحفز ودهشة. أنا لم أر الولايات المتحدة قط، ولست متحمسًا لرؤيتها لأن انطباعي عنها مـن قراءاتي سلبي نوعًا، وأتصورها (مول) عملاقًا مبهرًا بلا أعماق ولا بعد حضاري من أي نوع، وإن كانت تجربتـها في مـزج الثقافات والحريات فريدة بحق وجديرة بأن تعرفها عن قـرب.

وكما قال ناشر مهم لهيكل: "يمكنك أن تكره أمريكا لكـــن لا يمكنك تجاهلها أبدًا".

هناك كتب ممتعة قرأتها عن هذا البلد، منها كتاب الـــساخر الجميل محمود السعدني (أمريكا يا ويكا) وهو يتـــبنى وجهـــة نظري تقريبًا. وهناك كتاب "أمريكا الضاحكة" لمصطفي أمين يتناول أمريكا ما بعد الحرب العالمية الثانية عندما كانت بلــدًا واعدًا بالحرية والجمال والشباب، وهذا في ذروة عصر البيبسي ومارلين مونرو وميكي ماوس. وهناك جزء مهم - وإن كتب على عجل - لأنيس منصور في كتـــاب (٢٠٠ يـــوم حـــول العالم). على أن أفضل فهم للولايات المتحدة (نفسيًا وتاريخيًـــا واقتصاديًا) قرأته في كتاب (الإمبراطورية الأمريكيـــة) لمحمـــد حسنين هيكل، حيث لخص الفلسفة الأمريكية في عدة قواعـــد على غرار: "لا وقت لدي لمقاضاتكم لذا سأخرب بيـــوتكم !" كما فسر عدم فهم الأمريكي لأفكار مثـــل القوميـــة العربيـــة وسواها.

هنا يقدم لنا علاء مصباح تجربة أخرى تتناول أمريكا مـــن الداخل. تجربة فيها طزاجة وبراءة وانبهار حتى يذكرك بخطاب شخصي يكتبه شاب لصديقه. هذا تناول جديـــد طريـــف، وبرغم هذا لم ينس شيئًا .. تغلغل في الثقافة الأمريكيـــة ورأس

رجل الشارع، وعرف كيف يروننا بالضبط .. كتب عن الثقافة والاقتصاد والسياسة والدين والجنس .. كل شيء في الواقع.

الأهم أنه يزور هذا البلد بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وعلى قدر علمي لم أر كتابًا قدم هذه التجربة قبله، وتوغل بنا في قلب المنطقة (صفر) حيث سقط البرجان. وبرغم حداثة سنه فإن بوصلته صحيحة ودقيقة دائمًا.

تأمل هذه العبارات: " في رأيي أن أكثر من أساء للإسلام في تاريخه هو تنظيم القاعدة..عندما يقتل آلاف الأبرياء في تفجيرات ١١ سبتمبر، ثم يخرج أسامة ابن لادن مستشهدًا بالقرآن والسنة؛ ليبرر هذه الهجمات الإرهابية، ويتوعد بالمزيد".

"نحن هنا وحدنا على بعد آلاف الأميال من الوطن..علينا أن نساعد بعضنا البعض..ينبغي أن نصير أصدقاء حتى لو لم نكن كذلك في القاهرة..".

" يتصورك في البداية لا تعرف شيئا عن أمريكا..لا تعرف ميل جيبسون ولم تسمع عن مايكل جاكسون ولا تملك بريدا إلكترونيا..حينها تحتم عليك كرامتك أن تبهره بقدراتك الخارقة في استخدام الإنترنت وتحكي له أحداث آخر أفلام توم

كروز -الذي لم يشاهده هو- ثم تدندن أمامه بأغنية لإنريسك إجليساس قبل أن تبدي ضجرك من خطابات هيلاري كلينتون وتبدي إعجابك بالسيناتور باراك أوباما..حينها سيقتنع زميلك الأمريكي تماما أنك قادم من بيئة لا تختلف كثيرا عن بيئته وأنك على الأقل تنتمي مثله للقرن الحادي والعشرين!".

مررت بالتجربة الأخيرة كثيرًا، لكن كان انطباعي أن الأمريكي لا يريد الاقتناع إلا بما هو مقتنع به فعلاً، ولهذا يثير استعراض العضلات هذا انبهاره، لكنه ينظر له بعدّه نموذجًا مبهرًا لقدرة رجل الصحراء على التعلم .. كيف استطاع بابار الفيل الأفريقي أن يلبس البذلة والحذاء ويقرأ الجريدة !.. وهذا من الأمور التي جعلت انطباعي سيئًا عن هذا البلد.

الكتاب ممتع بلا شك وفيه تلقائية جميلة وبُعد عن التحذلق والتفلسف. لقد تعلمت منه الكثير ولا شك أنه سيكون أول شيء أحمله في حقيبتي لو قررت السفر يومًا إلى ذلك البلد الذي قد تكرهه لكنك لا تقدر على تجاهله !

د. أحمد خالد توفيق

الفصل الأول

حكايات نيوبولتز

١

في مطار JFK..

شو بتحكي عربي؟!

علا صوت الطيار يدعو الركاب إلى ربط أحزمة الأمان ووضع المقعد في الوضع الرأسي والاستعداد للهبوط خلال دقائق في مطار جون كيندي JFK..

من نافذة الطائرة كنت أحاول رصد أي شيء يمكن رؤيته أثناء الهبوط..وكان المشهد مخيبا للآمال بشدة..لا شيء سوى المحيط الأزرق الشاسع..على شاشة الطائرة نرى مسار الطائرة يبتعد عن الخط المباشر صوب نيويورك ويميل قليلا تجاه المحيط..نحن تركنا اليابس وتحركنا صوب المحيط..الطائرة تدور حول نيويورك ولا تهبط تجاهها مباشرة..وهكذا تحولت المساحات الخضراء التي كنا نراها من نافذة الطائرة إلى اللون الأزرق الممتد بلا حدود.

النصف ساعة الأخيرة قبل الهبوط علا صوت الكابتن يطلب من الركاب بدء ملأ الاستمارة التي تتسلمها السلطات الأمريكية في المطار، وهكذا توقف عرض فيلم "واحد من الناس" —مصحوبا بترجمة إنجليزية طبعا وإن كان معظم الركاب

الأجانب لا يتابعونه- في لحظاته الأخيرة، وبدأ المضيفون توزيع الاستمارات!

والتعليمات واضحة..استعمل حروف إنجليزية كابتل..اكتب كل شيء بمنتهى الدقة والوضوح..كل المعلومات عن اسمك وعنوانك ومحل إقامتك في الولايات المتحدة حتى رقم رحلة الطيران لابد أن تكتبها بوضوح..منتهى الوضوح!

وهبطت الطائرة..بسهولة ومرونة لم نتوقعها..

هذه نيويورك أيها السادة..نيويورك بلا ناطحات سحاب ولا تمثال حرية ولا سنترال بارك..كنت على أمل أن أرى كل هذا أثناء الهبوط لكنني لم أر سوى المطار والطائرات الكثيرة الرابضة على أرضه — فيما بعد عرفت أن ناطحات السحاب في مانهاتن بينما المطار في لونج أيلند..بالمناسبة أول طائرة رأيتها كانت تحمل علم إسرائيل..بداية مبشرة جدا!

نزلنا من الطائرة إلى ممر طويل يقودك إلى قلب المطار مباشرة..صف طويل تقف فيه بانتظار الوصول إلى مكتب رجال الجوازات..أخرجت الكاميرا والتقطت بعض الصور حتى جاء إليّ رجل أمن وأخبرني أن التصوير ممنوع و طلب مني مسح كل الصور..أطفأت الكاميرا بهدوء و لم أمسح الصور..هكذا بمنتهى البساطة!هنا بدأت أنتبه إلى وضعنا الجديد..الآن قد تغير كل شيء..الوجوه التي تراها من حولك

لم تعد مصرية..رجل الأمن هناك لم يعد مصريا..ضابط الجوازات الذي ستقابله بعد دقائق ليس مصريا..الناس من حولك لم يعودوا من أبناء وطنك..حتى الأرض التي تقف عليها لم تعد أرضك..هذه هي الحقيقة بكل بساطة، وإن كنت لم أشعر بفارق كبير بعد..حتى المطار نفسه لا يبدو مبهرا رائعا..أليس هذا هو مطار جون كيندي أكبر وأشهر مطارات العالم..الفارق الذي لاحظته كان نزولنا من الطائرة إلى قلب المطار مباشرة عبر الأنبوب ودون الحاجة إلى استقلال أتوبيسات.في تلك اللحظة استقبل هاتفي المحمول رسالة الترحاب الأولى..كنت قد حولت إلى خدمة التجوال في مطار القاهرة، وبهذا تحولت المهمة إلى شبكة الاتصالات الأمريكية AT&T ، وقالت لي: أهلا وسهلا!

وصل الصف إلى مكاتب ضباط الجوازات..بعد دقائق طويلة من الانتظار تفرق الزملاء وذهب كل واحد إلى ضابط مختلف..انتهت صديقة من الضابط المجاور لي بعد عشر دقائق من التأكد من هويتها، فاتجهت أنا إليه مباشرة..قدمت له جواز السفر والاستمارتين اللتين ملأتهما في الطائرة..راح الضابط يضغط أزار الكمبيوتر بعض الوقت قبل أن يطلب مني وضع سبابتي على الجهاز للتأكد من تطابق بصماتي الآن مع بصماتي التي أخذتها السفارة الأمريكية بالقاهرة أثناء المقابلة الشخصية..سألني بعض الأسئلة العادية بالإنجليزية طبعا..في البداية كنت قلقا من تفهم اللهجة الأمريكية لكنني وجدت

نفسي أفهمها بسهولة وأجيبه بسهولة أيضا..تشجعت أكثر ووقفت أنتظر سؤاله التالي بشغف!

عاد يضغط الكثير من الأزرار ويتفحص شاشة الكمبيوتر التي تبدو حالكة السواد من جهتي فلا أرى شيئا مما يراه هو..عاد يتطلع إلي بنظرة لم أسترح لها كثيرا، ثم أخذ يضغط الأزرار من جديد..يقلب في جواز السفر..يتطلع إلى الفيزا J1- تأشيرة دخول طلبة برامج التبادل إلى الولايات المتحدة..يمررها في جهاز الكشف للتأكد من صحتها..يعود للكمبيوتر من جديد..يسأل سؤالا جديدا..أجيبه في ثقة..يتنهد..يرمقني بنظرة شك..يضغط أزرار لوحة الكمبيوتر..بعد حوالي عشر دقائق أخرى نهض واقفا على غير العادة..المفروض أن يختم جواز السفر ويسمح لي بالمرور لي من صالة الخروج كما فعل مع الزملاء السابقين..ما الأمر؟..هل صرت "مشتبها فيه" بهذه السهولة؟..يا للكارثة!

وبمنتهى البرود وجدته يتقدمني قائلا:

- come with me!

إلى أين؟..بصراحة بدا الأمر مثيرا للغاية..إنهم يشتبهون فيّ..لم أشعر بالذعر كما هو مفترض، بل على العكس كنت في غاية الفضول لأدرك ما هو التالي..سألت نفسي ما هي أسوأ الاحتمالات..إلقاء القبض عليّ؟..لا بالطبع، لا أظن شخصي إرهابيا خطيرا إلى هذا الحد..العودة إلى القاهرة؟..راقت لي

الفكرة كثيرا..العودة للوطن بدلا من أربعة أشهر من الغربة..الأمر الذي يجعلني مطمئنا أن كل أوراقي و إجراءات السفر أشرفت عليها إدارة الجامعة بتعاون مباشر مع السفارة الأمريكية..لا مجال لأي خطأ في أوراقي إلا إذا كنت إرهابيا ذكيا جدا..

تشجعت وسألت الضابط عما إذا كانت هناك مشكلة..أجابني دون أن ينظر لي أن المسألة روتينية لا أكثر وأشار إلى زميلة لي قائلا: انظر..ها هي صديقتك تفعل نفس الشيء..لا تقلق!

دخل غرفة صغيرة غاب فيها لحظات قبل أن يعطيني ملفا أحمر اللون يحوي جواز السفر والاستمارتين ويطلب مني الدخول من باب عن يمينه، ثم تركني وعاد إلى مكتبه..توقفت لحظة عاجزا عن اتخاذ قرار ما ثم قررت الاستسلام والدخول من الباب..

كان أمامي ممر طويل يقع إلى جوار صالة الوصول مباشرة — حيث خرج معظم الزملاء سالمين وكنت أراهم يبتسمون ويحكون لبعضهم عن أسئلة الضباط..سلكت الممر إلى نهايته لأجد في انتظاري مكتبا آخر يضم ضابطين جديدين من ضباط الجوازات..هل حان الوقت الآن لأقلق قليلا؟

***

في مقاعد الانتظار أمام مكتب الضابطين جلست..أشار لي أحدهما أن أتقدم فتقدمت، فأخذ مني ملفي أحمر اللون –بما يوحي ببعض بالخطورة – ودعاني للجلوس مرة أخرى..فجلست!

وطال الانتظار..كانت هنالك زميلتان ممن قدمن معي وكان هناك رجل آخر يبدو أجنبيا..انهمك أحد الضابطين في مكالمة هاتفية طويلة، بينما أخذ الضابط الآخر يتفحص الملفات الموجودة على مكتبه مستخدما جهاز الكمبيوتر..ثم نادى على الزميلتين الواحدة تلو الأخرى وسألهما بعض الأسئلة قبل أن يختم لهما جواز السفر ويسمح لهما بالعبور إلى صالة الوصول...إشمعنى أنا يعني؟

انتظرت من جديد..شرد ذهني في ذكريات الساعات الأخيرة في مصر مع الأصدقاء، و لم انتبه إلا مع صوت ضابط الجوازات يشير تجاهي بعصبية..الواضح أنه كان نادى اسمي أكثر من مرة و لم أنتبه له لأنه نطق اسمي بالطريقة الأمريكية "ألا" وليس "علاء" طبعا..تشجعت وتقدمت إليه..

بشك سألني عن اسمي فأخبرته به..ببرود قال إنه نادى عليّ ثلاث مرات فرددت ببرود مماثل قائلا إنني لم أسمعه..وجدته يمسك قلما وورقة ويسألني عن محل إقامتي..أجبته بالقاهرة،

فكتبها في ورقة بيضاء أمامه، وعاد يسأل من جديد سؤالا لم أفهمه، فسألني عما سأفعله في الولايات..الدراسة طبعا!

سأل سؤالا ثالثا فلم أفهم ما يريده بالضبط، وطلبت منه تكراره..رفع جواز سفري إليّ وسألني بحدة: هل هذه هي أوراقك؟..ألقيت نظرة على جواز السفر لأتأكد أنه أنا وأخبرته بالإيجاب..أليست هذه هي صورتي؟

عاد يمسك بالورقة والقلم وسألني من جديد عن محل إقامتي..هنا كنت قد توترت فعلا، وتيقنت أن الرجل سخيف فعلا..أخبرته بمنتهى الوضوح أن أهلي يعيشون في مدينة اسمها دكرنس..أنا أدرس في القاهرة..سأقيم خلال الأشهر القادمة في نيويورك..هنا بدا عليه بعض الرضا وطلب مني الجلوس والانتظار مرة أخرى!

انتظرت من جديد..أخذ الرجل يضغط أزرار الكمبيوتر من جديد..يقلب في أوراقي..يتحدث إلى الضابط المجاور له الذي انتهى على التو من مكالمته الهاتفية الطويلة..مر الوقت ببطء قبل أن ينادي الضابط عليّ مرة أخرى..ختم لي جواز السفر بطريقة مستفزة وكأنه قضى الدقائق الماضية محاولا أن يجد وسيلة ما لاكتشاف تزوير ما في أوراقي وعندما فشل لم يجد بُدًا من ختمها..ثم بكل وقاحة ألقى جواز السفر تجاهي، وهو

يتمنى لي حظا سعيدا في الولايات..ولم أملك سوى أن أشكره شكرا جزيلا!

لم أشعر بالإهانة بل بالإثارة.. فيما بعد عرفت أنه مجرد إجراء أمني عشوائي تقوم به السلطات الأمريكية في المطار..لا بأس ..خرجت إلى صالة الوصول باحثا عن أي زميل من زملائي الاثني عشر الذين جاءوا معي من القاهرة، فلم أجد أحدا..بحثت عن حقيبتي فلم أجدها..سألت واحدة من موظفي المطار عن حقائب شركة مصر للطيران فأشارت لي إلى اليمين..اتجهت إلى اليمين فلم أجد شيئا..عدت أبحث هنا وهناك حتى وجدت واحدة من الحقيبتين جوار المكان المخصص لحقائب شركة طيران الكاريبي..أين ذهبت الحقيبة الثانية؟

بعد خمس دقائق أخرى من البحث لمحت الحقيبة الثانية وسط كومة حقائب يقف جوارها ضابط أمن يبحث عن أصحابها..اتجهت لأخذها فسألني عن سبب تأخيري في استلام الحقائب..ببساطة أشرت إلى مكتب ضابطي الجوازات وأجبت بإيجاز: كنت هناك!

استلمت الحقيبتين..جررتهما أمامي متجاهلا عربات حمل الحقائب –الواحدة تأجرها بثلاث دولارات – واتجهت بسرعة

خارجا إلى صالة أخرى باحثا عن زملائي..كان المطار مزدحما وصوت الإذاعة الداخلية يعلو معلنا عن وصول طائرة جديدة إلى المطار..وفقا للتعليمات كنا سننتظر بعضنا البعض للانتهاء من الإجراءات الجمركية وسنستقل قطار المطار إلى مخرج ٤..المشكلة أن مخرج ٤ يقع الآن أمامي مباشرة دون أن أستقل القطار..ماذا يحدث بالضبط؟..هل ضللت طريقي في أكبر مطارات العالم؟

اتجهت إلى أقرب باب باحثا عن أي زميل..فوجئت بشاب في نحو الخامسة والعشرين من عمره يتجه نحوي ويسألني عن وجهتي..أخبرته بارتباك أنني أبحث عن القطار لأستقله إلى مخرج٤ ..أكد لي أن هذا الباب أمامي هو مخرج ٤..بعد ثوان من الحديث معي فوجئت به يسألني عن جنسيتي، فقلت له إنني مصري..هنا جاءت المفاجأة..تحول إلى العربية وسألني: "شو بتحكي عربي؟"

إذن هو عربي..يا للمصادفة..وجدت نفسي أشعر بالطمأنينة، وحكيت له أنني ضللت طريقي عن زملائي..هنا أخبرني أنه باستطاعته أن يصطحبني إلى أي مكان وعاد يسألني عن وجهتي..أكدت له أنني لابد أن أجد زملائي لأننا سنتحرك معا لنقابل وفد الجامعة الذي أتى لاستقبالنا في المطار..أصر الفتى أنني قد همت وأنه سيأخذني بالتاكسي إلى أي مكان..هنا

بدا الأمر واضحا..هو سائق تاكسي يريد أن يجد أي زبون والسلام..بدا الفتى ملحا يسألني بإصرار عن وجهتي، حتى أخرجت له عنوان الجامعة فبدا عليه الإحباط حينما اكتشف أنها مدينة أخرى تبعد عن مدينة نيويورك بنحو ساعة ونصف..وتركني الفتى دون أن يجيب عن سؤالي عن جنسيته بعد أن لاحظت لهجته الشامية..ها هو ذا أول عربي أقابله هنا يكشف عن وجهه بصراحة..

عدت للمطار من جديد..أتنقل يمينا و يسارا بحقيبتي باحثا عن أي وجه أعرفه..أتخيل السيناريو القادم إذا لم أجدهم..هل سينتظروني طويلا أم أن وفد الجامعة سيأخذهم و ينطلقون هم إلى نيوبولتز؟..لم أقلق كثيرا لأن لدي العنوان ووصف كامل لوسائل الانتقال من المطار وحتى الوصول إلى نيوبولتز لكن الأمر بدا مفزعا للغاية أن أضل الطريق عن رفاقي هكذا في أول ساعاتي في الولايات المتحدة..صحيح أنني أحمل رقم هاتف مندوب جامعة نيوبولتز الذي سيأتي لاستقبالنا في المطار، لكن كيف سأجده وسط كل هذا الزحام..يا للمأزق!

وللمرة الأولى شعرت بالوحدة..وحيدا في مطار جون كيندي تائها عن رفاقي في قلب مدينة نيويورك على بعد آلاف الأميال من الوطن...

***

فجأة لمحت أحد الزملاء يشير لي من بعيد وسط الزحام..لمحته من هنا فاطمأننت من جديد.. لم أضل طريقي بعد!.

تجمعنا سويا أمام بوابة المطار..قابلنا وفد الجامعة الذي أتى لاستقبال الطلبة الأجانب قبل أن يناول كل منا بطاقة تحمل رقم غرفته واسم المبنى الذي يسكن فيه..ثم غادرنا المطار..

استقبلتنا المدينة برياح شديدة البرودة..كان الطيار قد أخبرنا أن درجة الحرارة لدى وصولنا تسعة درجات مئوية -وهو شيء جيد جدا فعلا في منتصف يناير..رحت أتأمل الطرقات والمباني المتناثرة من حولنا بحثا عن أي شيء يدل على أننا حقا في نيويورك فلم أجد..صحيح أن السيارات من حولنا أضخم كثيرا وأكثر فخامة مما اعتدنا رؤيته في مصر..صحيح أنها تحمل لوحات تحمل اسم الولاية -يسمونها ولاية الإمبراطورية أو إمبيرستيت - مصحوبا بحروف أبجدية وأرقام أخرى..إلا أننا لم نستطع أن نجد فارقا جوهريا يدل على أننا في نيويورك حقا..

استقللنا الحافلة و تحركت بنا..الطرقات تبدو مألوفة..الطريق الذي سلكناه يشبه كثيرا طريق صلاح سالم فجرا عندما يكون خاليا..الكوبري الذي صعدناه يشبه لحد كبير محور ٢٦ يوليو..المثير أننا قابلنا لافتة في الطريق حملت

اسم "الاتحاد" باللغة العربية إلى جوار لغات أخـــرى..ثم رأينـــا مسجدا صغيرا على يسارنا..أين نحن بالضبط؟..فيمـــا بعـــد عرفت أن هذه كانت كويتز..أحد أحيـــاء نيويـــورك ســـيتي الخمسة، وكلما سرت فيه كنت أتذكر القاهرة..الحي يفكرك كثيرا بمصر الجديدة أو مدينة نصر!

لم يطل الأمر كثيرا قبل أن أستسلم للنوم..كنـــت مرهقـــا فعلا..اثنا عشر ساعة جالسا في مقعدي في الطائرة..إجـــراءات المطار الأمنية المرهقة..الإضاءة الخافتة والزحام..صوت مـــذيع الراديو يذيع الأخبار بالإنجليزية..كلها ظروف تمهد لك الطريق لسلطان النوم..

نمت بينما الحافلة تغـــادر مدينـــة نيويـــورك متجهـــة إلى الشمال..إلى نيوبولتز!

***

-٢-

نيوبولتز..

أن تصير أجنبيا!

هذه إذن نيوبولتز..

كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء بتوقيت نيويورك، بينما الحافلة تشق طريقها في الشارع الرئيسي في مدينة نيوبولتز..ثم تتوقف الحافلة وتعلن مرشدتنا أننا وصلنا إلى مساكن الطلبة..هلموا نترل نأخذ حقائبنا..

كان الطقس باردا بشدة..إنها درجة الصفر أو أقل على الأرجح..كلا، لم نتجمد أو نشعر بأنها نهاية العالم..فكرتي عن درجة الصفر كانت هي حالة التجمد، لكنني في أول مرة أشعر فيها بدرجة حرارة الصفر وجدت الأمر أبسط كثيرا مما تخيلت..مازال بوسعي أن أمشي وأتحدث وأفكر وأمزح وأضحك بل وأركض فوق الجليد كذلك..إنها المرة الأولى التي أرى فيها جليدا كالذي يكسو جدران فريزر الثلاجة، لكنه هذه المرة يمتد على مرمى البصر مغطيا الأرض..لابد أن تضع يديك في القفازين وتضع الأيس كاب فوق رأسك وتتأكد من

إحكام غلق المعطف الثقيل حتى تستطيع أن تتحمل البرودة الشديدة..وهكذا يمكننا أن نخطو معا للمرة الأولى في جامعة نيوبولتز.

في اللحظات الأولى في نيوبولتز لم يكن هناك مجال للحسنين إلى الوطن أو بكاء الأطلال على طريقة شعراء الجاهلية..لابد أن ننتبه لعدة ملاحظات صغيرة في البداية..الجامعة عبارة عن مجموعة من المباني المتفرقة في مساحة كبيرة تفصل بينها حدائق -يكسوها الجليد- وطرقات وهناك بحيرة كبيرة..عدد مساكن الطلبة كبير في ثلاثة عشر مبنى، وكل مبنى صغير لا يزيد عدد طوابق أي منها عن ثلاثة طوابق -وطابق تحت أرضي- متناثرة هنا وهناك..المبنى يفتح ببطاقة الجامعة الممغنطة أو بكود سري يفتح الباب والمفترض ألا يعلمه سوى القاطنين بالمبنى..لا توجد أي حراسة أمنية على الإطلاق..الجامعة كلها أصلا مفتوحة بلا أسوار وما من ضباط أمن أو حراسة أمنية إطلاقا..فقط يوجد قسم شرطة صغير خاص بالجامعة يقع في طرف ناء بالجامعة ومهمته أن يتحرك فور أن يتصل أحدهم برقم الطوارىء الشهير ٩١١!

لأسباب كهذه تجري حوادث القتل والعنف بسهولة في الجامعات الأمريكية..تتذكرون حادثة جامعة فيرجينيا تيك

الشهيرة التي وقعت العام الماضي، حيث تسبب طالب من كوريا الجنوبية في مقتل أكثر من ثلاثين طالبا بمسدسه، والسبب الإجراءات الأمنية المتساهلة جدا..متساهلة لدرجة تسمح لأي شخص بالدخول إلى أي مبنى من مباني الجامعة بمنتهى السهولة، ويمكنه أن يدخل مساكن الطلبة أيضا إذا عرف كود المبنى وبعدها يمكنه أن يفعل ما يشاء..

المهم أنني حملت حقائبي وصعدت إلى غرفتي..الغرفة ٢١٧ من مبنى سكادير..للوهلة الأولى أصابتني عبارة "لا نرحب بالضيوف" والرسوم المعلقة على باب الغرفة بالقلق، فلما فتحت باب الغرفة تحول القلق إلى الفزع..العشرات من رسومات الوحوش وبوسترات أفلام الرعب..وملصق ضخم لفيلم الفك المفترس **Jaws** الشهير..

تنهدت ووضعت حقائبي جوار الفراش الخالي وألقيت نظرة على حاجات رفيقي في الغرفة الذي لم أره بعد..يبدو أنه يعشق أفلام الرعب والوحوش ويتعمد إثارة فزع رفيقه القادم..يا لها من بداية مبشرة!

غادرت الغرفة و اتجهت إلى مكتب السكن حيث أخبرونا أننا ينبغي أن نذهب لاستلام ملف عن الجامعة وجدول الأعمال خلال الأيام المقبلة..وفي المكتب التقيت للمرة الأولى

بالطلبة الأجانب — وأنا واحد منهم طبعا– وتعرفت ببعض من صاروا أصدقائي طول فترة إقامتي..بدا أكثرهم حماسا هنـــاك الفتى الأيرلندي قهل والفتاة الإكوادوريـــة ماريو كـــسي الـــتي صارت صديقة مقربة فيما بعد..

كان الكل يبحث عن جهاز كمبيوتر متـــصل بالإنترنـــت لإرسال رسالة إلكترونية إلى أهله لطمأنتهم بالوصول، لكن بدا الأمر عسيرا لأننا جميعا لا نملك حسابا خاصا للدخول علـــى أجهزة الكمبيوتر لأننا لم نستخرج بطاقة الجامعة بعد..استطعت أن أقنع واحدة من الطالبات القدامى بفتح حسابها لي ففتحت الإيميل وأرسلت رسالة سريعة إلى أخي لطمأنته على وصولي..

عدت إلى غرفتي بعدها..أخرجت جهاز الكمبيوتر المحمول وحاولت تشغيله على مقبس الغرفة لكنني اكتشفت أن المقبس الذي جلبته معي من مصر لاستعماله هنا في أمريكا أصغر ممـــا ينبغي..قررت أن أكتفي بما في بطارية الكمبيوتر الآن حتى أجد وسيلة لشراء مقبس مناسب غدا..فيما بعد ابتعته مـــن راديـــو شاك بعشرة دولارات، وكدت أموت ندما عنـــدما أخـــبرني أصدقائي أنه يباع بأقل من ثلاثة جنيهات في باب اللوق!

وهكذا فرشت الملاءة الجديدة وأخرجت الوسادة القطنية ثم استرخيت على الفراش الصغير..شغلت الكمبيـــوتر وفتحـــت

سورة يس، وتركت صوت الشيخ مشاري راشد يعلو مـــرددا "يس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين.." ربما للمـــرة الأولى في الغرفة ٢١٧ من مبنى سكادير في قلب نيوبـــولتز في ولايـــة نيويورك..

وعلى صوت راشـــد، راح شـــريط الـــذكريات يتتـــابع بسرعة..لا أصدق أنني بالأمس فقط كنت أجول القاهرة مـــع صديقي..بالأمس فقط أخذت الطريق من ميدان التحريـــر إلى الحسين مشيا..بالأمس فقط كنت جالسا في حديقـــة الأزهـــر أرمق القاهرة من عل..بالأمس فقـــط كنـــت وســـط أهلـــي وأصدقائي في قلب الوطن..

إنها الليلة الأولى فحسب...

الليلة الأولى من أكثر من مائة وعشرين ليلة أخرى سأقضيها هنا...

***

٣

سوني نيوبولتز..

أسخن جامعات أمريكا!

بدت الأيام الأولى في جامعة سوني نيوبولتز ممتعة إلى حد كبير..هناك الكثير من الأشياء ينبغي عملها..لقد رتب لنا مكتب الطلبة الدوليين جدولا متميزا خلال أيامنا الأولى للتعرف بنظام الجامعة وتسجيل الكورسات واستخراج بطاقات الجامعة..

كان هناك الكثير من المرح مع الجليد..التقاط الكثير من الصور مع الزملاء لوضعها على موقع Facebook الشهير كي يشاهدها الأصدقاء في مصر-وإن كانت مشكلة الدخول إلى الإنترنت لم تحل بعد..التعرف بأصدقاء جدد من كل أنحاء العالم!

رتبت لنا الجامعة أول رحلة للتسوق في جاليريا مول، وهو طبعا مول كبير يقع في مدينة بوركيبسي على بعد حوالي نصف ساعة من نيوبولتز..كان الأمر مثيرا للغاية لأنها أول جولة للتسوق في الولايات المتحدة..المرة الأولى التي تنسى فيها التعامل بالجنيه وتبدأ في التعامل بالدولار والسنت..والسنت هنا

له احترامه، وما من أحد يتجاهل الباقي حتى إذا كان سنتا أو خمسة سنتات!

الملاحظة الأولى عند دخولك المول من محل تارجيت هو أنك تدخل بمنتهى السهولة دون بوابات تفتيش إلكترونية أو ضباط أمن..الدخول متاح للجميع..الملاحظة الثانية أن تارجيت هذا سوبر ماركت عملاق تستطيع أن تجد فيه كل شيء –بمعنى كل شيء فعلا..محلات مثل مترو أو ألفا ماركت التي اعتدنا أن نراها في القاهرة تصير أطفالا تلهو إلى جوار تارجيت هذا..المثال الأقرب إليه هو كارفور..

أذكر أن أول شيء اشتريته كان كارتا للاتصالات الدولية كلفني عشرة دولارات –وهو ثمن باهظ حقا..الدقيقة الدولية بستين سنتا، لأية دولة في العالم..فيما بعد عرفنا أن هذا الكارت يخدعون به السياح– مثلنا– واعتدنا بعدها على شراء كروت الاتصالات الرخيصة بدولارين أو دولارين ونصف من محطة بنزين قريبة يملكها أردني.

في جولة التسوق الأولى تجد نفسك مبهورا بأن كل منتج حولك قد صار أمريكيا..البيبسي صارت بيبسي أمريكية دون كتابة كلمة "بيبسي" بالعربية.. تجد نفسك تقارن لا شعوريا بين السعر الأمريكي والسعر المصري..كانز البيبسي بدولار ونصف أي ما يعادل ثمانية جنيهات تقريبا.. البيبسي هنا باهظة الثمن حقا..هل تلاحظ معي بعض الاختلاف في مذاقها؟

في الجولة الأولى تشعر حقا بالامتنان للعولمة..كأنك تتسوق في فرع جديد تم افتتاحه في سيتي ستارز..المنتجات التي تراهـا هنا لن تختلـف كـثيرا عمـا قـد تـراه في أي مـول في مصر..الماركات العالمية التي تراهـا هنـا يوجـد مثلـها في مصر..الفارق ليس كبيرا..وكما أن كـثيرا مـن منتجـات الماركات العالمية لا تصنع في مصر، فأغلب المنتجات في أمريكا لا تصنع في أمريكا أيضا.. "صنع فى أمريكا"..من الـصعب أن ترى هذه العبارة في أمريكا..ربما رأيت هذه العبارة مـرتين أو ثلاثا كانت إحداهم على وسادتي !

عندما تتجول في المحلات والمتاجر تجد أغلب المنتجات مهما اختلفـت صـنعت في الخـارج..في الـصين ..الهنـد..في هندوراس..حتى أندونيسيا وماليزيا واليابان..تـدخل محـلات ماركات الملابس العالمية وتمسك بأي تشيرت لترى أين صـنع فتفاجأ باسم واحدة من هذه الدول..وكأن القوة الاقتـصادية الأولى في العالم تستورد كل شيء مثلنا..فى أول مرة ذهبـت فيها للتسوق كانت في جاليريا مول فى بوركسيبـسي شمـال ولاية نيويورك..يومها طرت فرحا عندما وجدت ركنا محـلا بالتشيرتات وعندما دفعني الفـضول لأن أرى أيـن صـنعت وجدت العبارة المثيرة.."صنع في مصر"..عمار يا مصر!

عدنا من جولتنا محملين بالمشتريات التي لا تحمل إحـداها عبارة "صنع في أمريكا"..علينا الآن أن نستعد للدراسـة الـتي ستبدأ خلال أيام..والتقينا بعميد قسم إدارة الأعمال بالجامعـة

وكان إيرانيا مسلما شغوفا بمصر إلى درجة الجنون..في مكتبه رأينا صورة لتوت عنخ آمون ونموذجا مجسما للأهرامات..وكان الرجل ودودا جدا استمع إلينا وتعرف بميولنا وساعدنا على اختيار الكورسات التي نريدها بكل ود.

لاحظ معي أن الرجل إيراني، وإيران هي العدو اللدود لأمريكا، وبرغم ذلك صارت للرجل هذه المكانة الحساسة في الجامعة..هذا البلد لا يميز بين الجنسيات والأعراق والأجناس..إتقانك لعملك وحده هو الدافع لأن تترقى مهما كان عرقك أو جنسك أو ديانتك..كان هذا هو الدرس الأول الذي تعلمته في أمريكا.

والشعب الأمريكي طيب جدا كما سمعنا عنه مرارا من قبل..هؤلاء القوم -في أغلبهم- ودودون طيبون..ما إن تفتح الحديث مع أحدهم حتى تجده يتعامل معك بكل ود ويساعدك إذا طلبت المساعدة..قلت هذه النقطة لرفيقي في الغرفة الأمريكي جوستن فيما بعد فقال لي إن الشعوب لا تخلو كذلك من الأشرار..إذا كان بين الأمريكيين الكثير من الطيبين فلابد أن تتوقع أيضا بعض الأشرار..الأمريكيون مثلهم مثل أي شعب آخر، لكنهم أكثر ترحيبا بكونك مختلفا عنهم..يتقبلون بسهولة أن تختلف معهم في الجنس والعرق والدين بل والرأي طبعا..هذه بلد كل الألوان والجنسيات والأعراق والألسن..هذه هي أمريكا!

كان الجو يزداد برودة يوما بعد يوم، لكننا بدأنا نتكيف مع الوقت..في البداية كنت لا أخرج من مسكني إلا مرتديا أثقل معطف عندي والقفازين وواضعا الأيس كاب – الذين ابتعتهم من جولة التسوق الأولى- فوق رأسي، ومع ذلك كنت لا أزال أشعر بالبرودة..بعد أسبوعين بدأت أتخلى عن القفازين والأيس كاب وأكتفي بالمعطف وأضع يديّ باستمرار داخل جيبي المعطف..ما كان يغيظنا أننا بين الحين والآخر كنا نرى شابا أمريكيا يرتدي تشيرت بنصف أكمام ويسير بصورة طبيعية متجولا فوق الجليد أو فتاة بشورت قصير تركض ممارسة رياضة الجري أمامنا، بينما نحن نكاد نتجمد بردا!

في الأيام التالية وجدنا أنفسنا نواجه المشكلة تلو الأخرى، وفي كل مرة نتصل بالقاهرة طالبين المساعدة أو نذهب لمستر بيث في مكتب الطلبة الدوليين..ورويدا رويدا بدأنا نستفهم طبيعة الأمر..نحن هنا وحدنا على بعد آلاف الأميال من الوطن..علينا أن نساعد بعضنا البعض..ينبغي أن نصير أصدقاء حتى لو لم نكن كذلك في القاهرة..وتفهمنا أننا وحدنا هنا لا حليف لنا في هذه الأرض الباردة..حتى جاءت الفرصة وقابلنا دكتور ياسر!

وكان د.ياسر واحدا من اثنين من الأساتذة المصريين في الجامعة، ولكنه كان الأقرب إلينا..إذا وقعت لنا أية مشكلة نذهب إليه..إذا احتجنا أي شيء نلجأ إليه..وكان هو يساعدنا ويدعونا إلى بيته بترحاب بلا حدود..كان الكل يحبه

هنا..الطلبة قبل الأساتذة..كلما ذهبت إليه في مكتبه كنت أجد واحدا من طلبته يهديه شيئا ما..لا أنسى ذلك الطالب الهندي الذي جاء إليه في المكتب ذات مرة بعلبة ممتلئة ببعض الطعام الهندي!

اعتدنا أن نشاهد مباريات كرة القدم في بيت د.ياسر، وكنا نخرج معه ومع أسرته الصغيرة في إجازات نهاية الأسبوع حيث نتعرف بأصدقائه من العرب المقيمين في نيوبولتز أو بالقرب منها..و كثيرا ما كنا ننظم حفلات الشواء أو ما يسمى بالباربكيو في الهواء الطلق أمام منزل د.ياسر..وكنا نلعب كرة القدم هناك أيضا!

لم يكن الاختلاط بالطلبة الأمريكان في الجامعة سهلا..كانت النظرة الدائمة إلينا على أننا "أجانب"..غريب أن تشعر بأنك الأجنبي في وطن غيرك..أنت الطالب "الغريب" في الفصل..أنت الطالب الذي لا يفهم بعض المزاح في الفصل..أنت الطالب الذي يسألك البروفسير عما إذا فهمت ما يقصده عندما ضرب مثالا أمريكيا شهيرا..أنت الطالب الذي يسأله زميله في شغف هامسا في وسط الدرس: "هل لديكم شيئا مماثلا في بلدك؟".

وكان الأسهل دائما مصادقة الأجانب مثلك..وهكذا استطعت أن أتعرف بكثير من الطلبة الدوليين من أنحاء مختلفة من العالم..اللكنات الإنجليزية تختلف لكنها تبقى إنجليزية في

النهاية..في مقابل كل صديق أمريكي تتعرف إليه يمكنك أن تتعرف بعشرة غيره من الأجانب- أقصد من غير الأمريكيين..

الشيء الذي يبهرك في كثير من الطلبة الأمريكان أنهم ينفقون على أنفسهم..كثير من الطلبة يعملون بشقاء طول أشهر الصيف كي يجمعوا المال اللازم للدراسة في الجامعة..وهم يعملون في أي مهنة توفر مالا، مثل العمل كنادل في مطعم أو بائع للزهور في الشارع أو إعداد القهوة في محل دانكن دونتس الشهير..هذه مجرد أمثلة؛ وفرص العمل غير محدودة لا سيما في مدينة نيويورك سيتي..وهناك من الطلبة من يستمر في العمل أثناء الدراسة..تجده صباحا زميلك في الفصل وليلا نادلا في أحد مطاعم نيوبولتز القليلة.

أحلى ما في جامعة نيوبولتز هي تلك الأيام التي تلغى فيها الدراسة بسبب العواصف الثلجية..عندما يهطل الثلج بغزارة تضطر إدارة الجامعة إلى إلغاء المحاضرات حفاظا على سلامة الطلبة القادمين من بلاد أخرى بسياراتهم حيث تصير القيادة خطرا بعد امتلاء الشوارع بالثلوج..واعتدنا عندما تهب العواصف الثلجية أن ندعوا الله أن يتم إلغاء المحاضرات اليوم ونظل ننتظر رسالة إلكترونية من الإدارة على بريدنا الإلكتروني تخبرنا فيها بإلغاء المحاضرات..وقد تأتي هذه الرسالة أو لا تأتي!

وأسخف ما في العواصف الثلجية أن تتزامن مع نهاية الأسبوع فلا يكون هنالك إلغاء للمحاضرات ونضطر لقضاء

الويك إيند محبوسين في مسكن الطلبة..وكان البعض لا يبالون بالثلوج والأمطار ويخرجون لقضاء العطلة الأسبوعية في البارات والمطاعم..الويك إيند للأمريكان شيء مقدس..المذاكرة بجدية طول أيام الأسبوع، ثم خروج كل فتى مع فتاته ليلة الأحد للرقص سويا في أحد الملاهي أو شرب الخمر في أحد البارات إذا كان سنهما قد تجاوز الواحدة والعشرين كما تنص القوانين..السهرة حتى ساعات الصباح الأولى وشرب البيرة حتى الامتلاء..هكذا تكون شابا أمريكيا!

وعادة ما يتجمع الشباب الذين تقل أعمارهم عن الواحدة والعشرين في حفل خاص يقام في قبو أحد المنازل، حيث تنظم ليلة راقصة عامرة بالبيرة..مثل هذه الحفلات تخالف القانون، لأنها تسمح للمراهقين بشرب الخمر ضاربين بالقانون عرض الحائط..وهكذا يتوقع المشاركون في هذه الحفلات أن تأتي سيارة الشرطة في أية لحظة!

جربت مع صديقي أن نذهب ذات مرة لإلقاء نظرة على هذه الحفلات..اتفقنا أن نكتم الأمر عن رفاقنا، حتى لا تصل الأخبار إلى مصر بسرعة رسالة إلكترونية مرسلة من حساب على ياهو لحساب آخر على هوت ميل!..تحمس شباب أمريكي يدعى كولن لاصطحابنا معه إلى قبو المنزل الذي تنظم فيه هذه الحفلات..على الباب تدفع خمسة دولارات لتأخذ كوبا تملؤه بالبيرة وتبدأ بالرقص مع الراقصين على أنغام الموسيقى الغربية..على الهامش يمارس بعض الشباب لعبة شرب

البيرة على مائدة خشبية توضع عند أحد طرفيها أكواب البيرة وعند الطرف الآخر يقف شاب التصويب ويقوم بإلقاء كـرة بينج بونج على الأكواب..وكلما أصاب الهدف يشرب منافسه كوب البيرة..الهدف من اللعبة أن تجعل منافسك يشرب أكبر كمية من البيرة حتى يثمل..!

طبعا رفضت شرب البيرة، فراح كولن يشجعني قائلا إن كوبا واحدا من البيرة لن يسكرني..قلت له إنني لا أشرب لأسباب دينية، فنظر لي مندهشا قائلا: طب حرب..ألم تشرب البيرة مطلقا طول حياتك؟

وقفت مع صديقي نتفرج على هذا الحفل الأمريكي جدا..كأننا نشاهد حفلا من أفلام الفطيرة الأمريكية الشهيرة..الموسيقى الصاخبة والراقصين فتيانا وفتيات .. يسمونه الرقص القذر حيث يلتصق كل شاب بظهر فتاته ويتمايلان مع الموسيقى بينما أكواب البيرة توزع مجانا طول الوقت.. الخمسة دولارات التي تدفعها مقابل شرب عدد غير محدود من أكواب البيرة!

وأثار غيظي بشدة فتى وفتاة قضيا ساعات الحفل في قبلة فرنسية حارة لا تنتهي أبدا..تركا الموسيقى والرقص والبيرة وغاصا معا في حضن حار وقبلة أكثر حرارة يحاولان تحطيم الأرقام القياسية الخاصة بأطول قبلة فرنسية..ولم ينتهيا من قبلتهما إلا عندما قرر الفتى دخول الحمام!

٤

سكادير..عن تلك الأشياء التي تجري

بعد منتصف الليل!

في الغرفة ٢١٧ في الطابق الثاني من المبنى سكادير قضيت أربعة أشهر..

معظم قاطني مساكن الطلبة من الأمريكان، والباقين طلبة من كل دول العالم..الأمريكيون ينتقلون عادة للإقامة في مسكن الطلبة بالجامعة لأنهم قادمون من بلاد بعيدة عن نيوبولتز..وهناك من يفضل تأجير غرفة أو شقة في مكان آخر بالمدينة أرخص من سكن الطلبة..

ومساكن الطلبة في أمريكا تختلف طبعا عن مساكن الطلبة في مصر..النقطة الأساسية التي كانت تشغل اهتمام كل أصدقائي في مصر عندما أدردش معهم عبر الإنترنت: عندكم بنات في السكن؟..والجواب طبعا "نعم".. طب احكلنا..والكل ينتظر أن أحكي لهم مغامراتي الساخنة مع الفتيات الأمريكيات، وعندما أخبرهم مازحا بالأهمية العظمى لغض البصر هنا، تنهال علي لعناتهم ويحكي بعضهم ما كان سيفعله لو كان مكاني..كأن الأخ ليوناردو ديكابريو أو براد بيت نفسه!

في كل طابق هناك ممران..أحدهما لغرف الفتيان والآخر لغرف الفتيات..البنات يتجولن بحرية في ممر الأولاد وكذلك الأولاد يذهبون إلى غرف البنات عادي كده خالص..قد تدخل غرفتك فتفاجأ برفيقك في الغرفة بصحبة صديقته..قد تستيقظي ليلا على ضحكات صديق رفيقتك الذي قرر قضاء الليلة معها -لأن الجو برد شوية..هذه هي أمريكا!الشيء الذي لم أصدقه في البداية أن الواقي الذكرى يباع كده عيني عينك للطلبة في المسكن..أخبرني صديقي بهذه الحقيقة البسيطة فلم أصدق..أخذني من يدي إلى مسكنه المجاور لمسكني..توقفنا أمام صندوق كبير بجوار ماكينة المياه الغازية..هناك تدفع دولارا ونصفا من العملات المعدنية كي تحصل على زجاجة بيبسى، أما هنا فأنت بحاجة إلى ثلاث قطع معدنية من فئة الربع دولار كي تحصل على الواقي الذكري..وأمامك اختياران من نوعي الواقي الذكري..واكتشفت أن لدينا في "سكادير" ماكينة مماثلة..في كل مسكن للطلبة ماكينة مماثلة..الطلبة في حاجة إلى الواقي الذكري مثل حاجتهم إلى البيبسي بالضبط..هؤلاء القوم لن يضيعوا وقتهم في البحث عن أقرب صيدلية لشراء الواقي الذكري..إدارة الجامعة توفر لهم كل شيء حتى يستمتعوا بالجنس الآمن أو كما يسمونه Safe sex!..حاجة عظيمة فعلا!

وجامعة نيوبولتز عامرة بالفتيات الحسناوات التي لا يمكن للفتى الأمريكي أن يقاوم سحرهن..الأمريكيات جميلات..لا

شك في ذلك..هذه البلد هي من أنجبت بريتني سبيرز وأنجلينا جولي وكاميرون دياز..لذلك لابد من وجود من يظنون أنفسهم جون ترافولتا أيضا..قصص الحب تراها هنا وهناك..الصداقة بين الولد والبنت في أمريكا ضرورة من ضروريات الحياة مثل الطعام والشراب..والصداقة عادة لا تكون مجرد صداقة بريئة كما قد يتصور أصحاب النوايا الحسنة..الصداقة الخالية من القبلات والأحضان ليست صداقة حقيقية..الولد الذي بلا صديقة - جيرل فريند- يمكنك أن تشك بسهولة في ميوله الجنسية..مع من يقضي هذا الفتى ليلته إذن وماذا يفعل في الويك إيند؟كانت جامعة نيوبولتز تفخر دائما بأنها "أكثر جامعة أمريكية صغيرة إثارة في الولايات المتحدة" أو بالإنجليزية **Hottest small school in the States** طبقا لاستطلاع رأى أجرته مجلة النيوزويك. ولا أعرف على وجه الدقة ما الذى يعنونه بـ **"Hottest"** لكنه يبدو واضحا..

والفتى يمكنه أن يعبر عن مشاعره الرقيقة تجاه فتاته في أي مكان..في قاعة الطعام ..في الشارع..في مسكن الطلبة..أو حتى في الفصل قبل بدء المحاضرة بلحظات -ميتفعش طبعا أثناءها..وفي أماكن أخرى لا يقتصر الأمر على مجرد قبلة..قد يتعداه إلى حضن مثلا- بلاش النية الوحشة دي!

ومن حق رفيقك في الغرفة أن يصطحب صديقته لتقضي الليلة معه..ومن حقك أيضا أن تعترض..لكن لا تنس أن ذلك

حقه أيضا..كان صديقي الكولومبي إدجار دائم الشكوى من وجود صديقة رفيقه دائما في غرفته..وكان الاثنان لا يخجلان من ممارسة الجنس أمامه.."هؤلاء هن الأمريكيات"..هكذا كان يصفهن إدجار دائما باشمئزاز..ويسألني: "كيف يسمح الإنسان لنفسه أن يمارس الجنس أمام عيون الآخرين؟"..وقد جرب إدجار أن يذهب إلى مساعد الطابق ليشكو له من اصطحاب رفيق غرفته لفتاته الدائم بلا جدوى!

وذات مرة تعرض أحد أصدقائي لموقف غريب..كان قد أمضى في المذاكرة وقتا طويلا حتى الساعات الأولى من الصباح..قرر الذهاب للاستحمام قبل النوم..مضى إلى حمام الفتيان فسمع صوتا غريبا من خلف ستارة أحد الحمامات المخصصة للاستحمام..صوت لا يمكن للأذن أن تخطؤه..هناك فتى وفتاة في وضع مخل بالآداب العامة خلف ستارة الحمام..ما من شك في ذلك..لكن في الحمام؟..وتكرر هذا الموقف عدة مرات..هي دي أمريكا!

***

خلال الشهر الأول في سكادير تعرضت لتجربة فريدة كنت قد قرأت عنها في رواية "شيكاجو" الشهيرة لد.علاء الأسواني..تجربة الحريق أو بمعنى أدق إنذار الحريق..كنت نائما حينما صحوت فجأة على صوت الإنذار العالي شديد الإزعاج..كان جوستن يرتدي ملابسه على عجل وقال لي أن أغادر المسكن فورا..شعرت بالإثارة ونهضت بسرعة أرتدي

معطفا ثقيلا وحذاء ثم أركض مع الراكضين متجهـــا للطـــابق السفلى..الكل يتعامل مع الإنذار بجدية كاملة..كثيرون يهرعون للخارج بملابس النوم..في المرة الأولى أخذت الأمر بجدية لكني اعتدت بعد ذلك أن أتباطأ لأرتدي ملابسي كاملة قبل الركض متظاهرا بالذعر مع الراكضين المذعورين فعلا!

وتجمعنا كلنا نحن قاطني مبنى سكادير أمام مدخله في عـــز البرد في الساعة الثانية بعد منتصف الليل..الكل يتهامس لاعنـــا وساخطا بالإنجليزية..يخمن البعض أسباب علو جرس الإنـــذار ويقول أحدهم إنه شم دخانا قادما من قاعة الطابق الثاني حيث يبدو أن شيئا ما احترق في الميكروويف..وخلال دقائق جاءت سيارة الشرطة ومعها سيارة المطافىء..لاحظ أن هنـــاك قـــسم شرطة خاص بالجامعة..ويدخل رجال الـــشرطة إلى المـــسكن ليمشطوه بحثا عن سبب الحريق..وفي النهاية يكـــون الإنـــذار كاذبا أو ليس خطيرا وسببه فطيرة احترقت في الميكروويف أو شخص سخيف كسر زجاج جهاز الإنذار ليـــستمتع بـــذعر الآخرين! آخر مرة تعالى فيها الإنذار كانت أيام الامتحانـــات النهائية..وكانت مجرد تجربة أمنية..توالى الإنذار مـــن مـــسكن طلبة لمسكن آخر..وفي كل مرة يتعامل الكل مع الإنذار كأنـــه حقيقة..حتى رجال الإطفاء الذين يعرفون جيـــدا أنـــه مجـــرد تجربة..وفي اليوم التالي تعالى إنذار الحريق في مبنى المكتبة أيـــضا على سبيل التجربة، وخرج الطلبة من المكتبة يسبون ويلعنـــون وهم يحملون كتبهم وكراسات المحاضرات...إنها تجربة أخرى!

وليس صحيحا من يقول إن من عاشر القوم أربعين يومـــا صار منهم..لقد عاشرت الأمريكان مائة وعـــشرين يومـــا و لم أصر منهم..صحيح أنه من الصعب أن تشعر بالغربة في مجتمـــع كهذا لأنك لست الوحيد الغريب ههنا..صحيح أنك تحاول أن تتحدث بلسانهم وتمزح بدعاباتهم..لكنك لن تـــصير بـــسهولة منهم.

ويوما بعد يوم كانت تزداد دائرة معارفي..هـــؤلاء الـــذين تقابلهم فتحييهم بهـــزة رأس والعبـــارة الأمريكيـــة الـــشهيرة What's up، وهي تحية مميزة يمكنها أن تلقيها ليلا ونهـــارا وظهرا وعصرا وفجرا أيضا..تحية عـــصرية مناســـبة لجميـــع الأوقات!

ويوما بعد يوم كان تقبلي لاختلافات البشر يـــزداد شـــيئا فشيئا..رفيقي في الغرفة ملحد..صديقه شاذ جنـــسيا..دائـــرة المعارف والزملاء فيها المسلمون والمسيحيون واليهود والبوذيون والهندوس والمؤمنون بديانات لم أسمع عنها من قبل..حتى بـــين الزملاء المسلمين من هو شيعي ومن هو علوي أيـــضا..أذكـــر صديقنا التركي مهمت وهو يحدثنا عن مذهبه العلوي بطقوسه الغريبة جدا ثم يسأل صديقتنا ضاحكا: "هل تعدّوني مـــسلما مثلكم؟"!

والأمريكيون -على الأقل هنا في نيوبولتز- لا يبالون كثيرا بمثل هذه الاختلافات، و لم أشعر لحظة بالعداء تجـــاهي لأنـــني

مسلم..كان أصدقائي يقولون إن الأمر ليس كـــذلك في كـــل أمريكا..نيويورك ولاية كل الجنسيات والأعراق والأديان حيث لا أحد يبالي كثيرا بكونك مختلفا..

ذات مرة طلبت مني أساتذتي كيفر أن أكتب في ســيناريو الفيلم الذي كنت أكتبه في فصلها عن صلوات اليهود..كانت قصة الفيلم تتحدث عن قصة حب تجمع شابا عربي مسلم بفتاة أمريكية يهودية..وطلبت مني أن أذهب إلى المعبــد اليهـــودي لأشاهد صلاة يهودية وأكتب عنها!

ومن حسن حظي أن اتحاد الطلبة اليهود نظم في الأســبوع التالي مباشرة صلاة يهودية احتفــالا بــصيام **Pass over** ودعوا الطلبة لحضورها..اقترحت على صـــديقي أنــدرو أن يذهب معي فتحمس وشجعني..وهكذا وجدنا أنفــسنا مـــع عشرين طالبا يهوديا ذاهبين لأداء الصلاة في المعبد اليهودي في نيوبولتز..أخبرناهم في البداية أننا لسنا بيهـــود، وأننـــا مجـــرد فضوليين أتينا للتفرج على احتفالاتهم فرحبوا بنا..قلت في سرى "لكم دينكم ولى دين" ثم وقفنا جميعا في دائرة أمام المعبـــد في اتجاه دولة إسرائيل نقرأ الصلوات بالعبرية مكتوبـــة بحـــروف إنجليزية..وتبادلت النظرات مع صديقي أندرو عندما تعالـــت دعواتهم بالسلام والأمان لدولة إسرائيل..و لم أقل معهم "آمين"!

٥

مصر التي في خيالهم!

موقف سخيف تعرض له صديقي..كان في مكتب تسجيل الكورسات بالجامعة..قال للموظفة إنه من مصر، فسألته عن انطباعه عن الطقس في نيوبولتز..قال لها إنه شديد البرودة..هنا رد موظف آخر في اشمئزاز: طبعا ذلك بالمقارنة بالصحراء!

وليس جديدا أن الأمريكان يتصورون مصر عبارة عن صحراء جرداء تجوب فيها الجمال بجوار الأهرامات..المواطن الأمريكي العادي جاهل جدا لا يعرف الكثير عن دول العالم الأخرى ويتصور أفريقيا كلها غابات والعرب كلهم بالجلباب يركبون الجمال يجوبون بها الصحراء والمصريون يعيشون في الخيام وسط المعابد الفرعونية وتماثيل توت عنخ آمون ورمسيس الثاني بل ويتحدثون بالهيروغليفية أيضا!

وكنا نقابل الجهل الأمريكي في كل مكان..أسئلة ساذجة يسألها لك زميلك في الفصل حينما يعرف أنك من مصر..هل تسكن قرب الأهرامات؟..أنستم تتحدثون اللغة المصرية القديمة؟..و يتصورونك في البداية أنك لا تعرف شيئا عن أمريكا..لا تعرف ميل جيبسون و لم تسمع عن مايكل جاكسون ولا تملك بريدا إلكترونيا..حينها تحتم عليك كرامتك

أن تبهره بقدراتك الخارقة في استخدام الإنترنت وتحكي له أحداث آخر أفلام توم كروز -الذي لم يشاهده هو- ثم تدندن أمامه بأغنية لإنريك إجليساس قبل أن تبدي ضجرك من خطابات هيلاري كلينتون وتبدي إعجابك بالسيناتور باراك أوباما..حينها سيقتنع زميلك الأمريكي تماما أنك قادم من بيئة لا تختلف كثيرا عن بيئته وأنك على الأقل تنتمي مثله للقرن الحادي والعشرين!

واعتدت خلال أسابيعي الأولى على الأسئلة والتعليقات الساذجة عن مصر، حتى كنت أتوقعها وأرد عليها قبل أن يسألها أحدهم..يقترب مني أحدهم متسائلا عن المدينة التي أتيت منها في مصر؟..هنا أتوقف قليلا لأشرح له بسرعة أننا في مصر لدينا مدنا كثيرة ولدينا عمارات عالية وسيارات وقطارات وأجهزة تليفزيون وكمبيوتر بل -تصور ذلك- مطارا دوليا استقللت منه الطائرة حتى أصل إلى أمريكا..تخيل ذلك! لذلك كنت حريصا مع أصدقائي المصريين أن ننظم ليلة مصرية خالصة للطلبة والأصدقاء..صنعنا فيلما قصيرا عن مصر عرضنا فيه صور مصر الحديثة وبرج القاهرة ومكتبة الإسكندرية إلى جانب المعابد الفرعونية والأهرامات وقلعة صلاح الدين..وارتدى الأصدقاء الملابس المصرية بدءا من الجلباب إلى الطربوش وانتهاء بالملابس الفرعونية..ووزعنا طعاما مصريا خالصا فول وفلافل..وأقبل أصدقاؤنا من كل الجنسيات على الطعام يجربونه ويبدون إعجابهم به..لا سيما الفلافل!

كنا قد اتفقنا مع صاحب المطعم المصري مون لايت هنا في نيوبولتز على أن يمدنا بما نريده من الفول والفلافل مقابل مائة دولار!..فيما بعد اكتشفنا أن مطعم الجامعة المسمى هاسبروك يقدم أحيانا الفلافل لكن طعمها وشكلها كان غريبا بعض الشيء!

وكانت البروفسير تعشق مصر حتى النخاع..من حين لآخر تتوقف عن الشرح وتضرب مثالا بما رأته في مصر..وكانت تحبني جدا وتحكي لنا في الفصل عن ذكرياتها في حي الأزهر والحسين وخان الخليلي وزيارتها للمتحف المصري والأهرامات وتلك الأيام الجميلة التي قضتها في مصر لتكتب كتابا عن مصر وأهلها..وكانت تقول لنا: فوجئت بالناس في مصر يحبون أسامة ابن لادن ويؤيدون حركة حماس ويعلقون صورة الشيخ أحمد ياسين في بيوتهم..هنا دخلت معها في حوار قصير لأشرح لها سريعا اختلاف وجهات النظر بين الشرق والغرب تجاه أشياء كثيرة منها موقفهم من حركة حماس..في أمريكا يرون حماس منظمة إرهابية تقتل المدنيين مثلما يقتل الجيش الإسرائيلي المدنيين أيضا..في العالم العربي يرون حماس تمثل المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي..حتى ولو كانت تقتل المدنيين!

الفصل الثاني

أيام في الأمم المتحدة

١

تذكروا الهولوكوست!

لا بد أن أعترف في البداية أنني كنت في غاية الانفعال وأنا أدخل مقر الأمم المتحدة للمرة الأولى في قلب مانهاتن في مدينة نيويورك..الأمر ليس أسطوريا لأن أية مجموعة تزيد عن تسعة أفراد يمكنهم أخذ هذه الجولة داخل مقر المنظمة الدولية الأشهر عالميا بمبلغ تسعة دولارات لكل فرد..الأمر مختلف معنا لأننا كنا فصلا دارسا للعلاقات الدولية يأخذ كورسا عن منظمة الأمم المتحدة ويتضمن الكورس عشرة زيارات لاستكشاف المنظمة، وكانت هذه هي أولها.

في بداية الجولة توقفت مرشدتنا البرازيلية الحسناء وبدأت تعطينا الإرشادات عن عدم تسجيل صوتها إذا استخدم أحدنا كاميرته لتسجيل فيديو، ثم رحبت بنا بإنجليزيتها الأنيقة الخالية من أية لكنات لتبدو جديرة بوظيفة بالأمم المتحدة.. ثم دعتنا للتقدم نحو أول ركن في تلك القاعة الكبيرة في الطابق الأول من مقر المنظمة، وهنا لمحت عيناي الكلمة الكبيرة بحروف كابتل إنجليزية هولوكوست.. وشاشة التلفاز العملاقة..

وقفت المرشدة تحدثنا بحماس عن مذبحة الهولوكوست التي ارتكبها الرئيس الألماني "أدولف هتلر" حارقا ستة ملايين من اليهود في أفران الغاز.. الله أكبر..أين نحن؟..هل نحن في مقر

الأمم المتحدة حقا أم في المركز الثقافي اليهودي؟..المرشدة تواصل الكلام بحماس، والزملاء من حولي يبدون اهتماما كبيرا ويرتسم التعاطف على وجوههم..ثم على الشاشة يبدأ عرض فيلم مدته دقيقتان عن حرق "هتلر" لليهود في أفران الغاز!

وانتهى الفيلم ومر الجميع إلى قاعة مجلس الأمن حيث قالت المرشدة إن هناك اجتماعا يدور الآن عن الوضع في دارفور، ولا يمكننا دخول القاعة.. وتوجهنا إلى قاعة أخرى..

كنت مغتاظا جدا من فيلم الهولوكوست هذا، محاولا أن أجد علاقة بينه وبين إذاعته لكل زوار الأمم المتحدة بكل هذا الاهتمام.. هل يقصدون أن اليهود عانوا كثيرا قبل نشأة الأمم المتحدة، فلما قامت بحمد الله بفضل جهود الحلفاء راضت اليهود وأنقذهم من أفران الغاز بل ومنحتهم وطنا في فلسطين؟..بالطبع هم ليسوا أغبياء بهذه الدرجة، لأنه لم تكن ثمة أية علاقة بين نشأة الأمم المتحدة واليهود..وإذا افترضنا أن الأمم المتحدة تقدم هذا الفيلم إشارة إلى المذابح الدامية التي شهدها العالم وجاءت المنظمة الدولية لتنقذهم منها، فلم لا أرى أفلاما أخرى عن ضحايا الحرب العالمية الأولى أو الثانية؟..لماذا لم يقدموا فيلما عن هيروشيما وناجازاكي — مكتفين بمعرض ممل في الطابق الثاني عن مخاطر الأسلحة النووية؟.. ماذا عن أفلام أخرى عن ضحايا اليوم بدلا من ضحايا الأمس الذين شبعوا من الدعاية الإعلامية في كل مكان عن "هتلر" المتوحش الذي حرقهم في أفران الغاز؟..ماذا عن

الضحايا في فلسطين؟ في دارفور.. في كوسوفو.. في رواندا.. في الكونغو.. في الصومال.. في أي مكان في العالم سقط فيه عشرات الآلاف من الأبرياء في عصر ما قبل الأمم المتحدة أو عصر ما بعدها.. ولو في الأعوام الأخيرة حيث قتل مئات الآلاف في دارفور وهُجر أكثر من مليوني شخص.. لكن، من يبالي؟

فيما بعد وقفنا مع المرشدة أمام خريطتين كبيرتين للعالم..الأولى توضح لنا كيف كان العالم عام ١٩٤٥ قبل إنشاء الأمم المتحدة مستعمرا، والثانية تبين العالم اليوم خاليا من أية دول مستعمرة ما عدا الصحراء المغربية بالإضافة إلى بعض الجزر في المحيط الهادي..على الخريطة الأولى تبدو فلسطين واضحة كمستعمرة إنجليزية لكنه مكتوب عليها اسم فلسطين.. وفي الثانية تبدو كدولة مستقلة مكتوب عليها اسم إسرائيل واضحا بشكل استفزني جدا.. اسم إسرائيل يشمل كل شيء حتى الضفة وغزة.. وأشارت المرشدة إلى أن هناك حكومة فلسطينية لكنها لم تصبح دولة بعد!

حين خرجت مع ثلاث من الزميلات نتناول الغداء في أحد المطاعم، سألتني إحداهن عن رأيي في فيلم الهولوكوست.. تحمست جدا لأنها هي اللي فتحت الموضوع.. قلت ببساطة إن هناك خلافا كبيرا على مذبحة الهولوكوست هذه، وإن رقم الملايين الستة هذا قد لا يكون صحيحا.. قلتها بحذر لأنني لا أعرف كثيرا عن انتماءات الفتيات الثلاث.. إحداهن صديقتي

ماريوكسي والثانية من المكسيك والأخيرة من السلفادور.. والثلاث يتبادلن حديثا بالإسبانية بين وقت وآخر لا أفهم منه حرفا طبعا..

قلت ما قلته، وانتظرت أن أسمع آراءهن.. فوجئت بالفتاة المكسيكية تؤيدني فيما قلت.. قالت لي أيضا إنها ترى أن هذا الرقم يبدو غير دقيق حقا.. ابتسمت متشجعا أن أطرح عليها وجهة نظري كاملة عن الدعاية التي شنها اليهود لكسب تعاطف العالم لإنشاء دولتهم مستغلين هذه المذبحة، لكنني فوجئت بها تستطرد؛ نعم.. فعلا رقم الملايين الستة ده غير دقيق.. أعتقد أنه أكثر بكثير!!

٢

في مقر الأمم المتحدة..

تعبّد لكن بصمت!

في تقاطع الشارع ٤٢ مع الفيرست أفينيو في مانهاتن يقـع مبنى المقر الرئيسـي للأمـم المتحـدة المطـل علـى النـهر الشرقي..أمامه مائة واثنان وتسعون علما تمثل ١٩٢ دولـة.. ومن خلفها يبدو المبنى الأزرق الذي يبدو شبيها بعلبة كبريـت حينما تراه من بعيد.. أهلا بكم في مقر الأمم المتحدة!

الطابق الأول عادة ما يكون مفتوحا للزوار مـن العاشـرة صباحا.. تدخل من مدخل الزوار ليتم تفتيشك بعنايـة عنـد البوابات الإلكترونية، ثم تدخل القاعة الكبيرة الـتي يتوسـطها مكتب الاستعلامات.. إلى جوارك عادة ما يكون معرضا فنيـا للسلام اختيرت لوحاته من مختلـف دول العـالم.. وأمامـك مباشرة صور أمناء الأمم المتحدة السبعة منذ تأسيسها عقـب نهاية الحرب العالمية الثانية، بينهم تجد صورة د."بطرس بطـرس غالي" الأمين العام المصري الذي احتل منصبه من ١٩٩٢ وحتى ١٩٩٦.

عن يسارك ركن خاص جدا من مبنى الأمم المتحدة.. تجـد درعا ذهبية ضخمة معلقة وقد خط فوقها باللغة العربيـة: "في

ذكرى أولئك الذين قتلوا في تفجير مقر الأمم المتحدة ببغداد في ١٩ أغسطس ٢٠٠٣" وتحتها قائمة بالإنجليزية بأسماء ٢٢ فردا قتلوا في التفجير الإرهابي.. وإلى جواره حـــائط أزرق ضــخم يحمل علما ممزقا يحمل شعار الأمم المتحدة بــسنبلتي القمــح وخريطة العالم، لتكتشف أن هذا العلم بالذات كان يحتل مكانه فوق المبنى المستهدف وتقرأ تحته "سقط من أجل السلام"..

في الركن المقابل تقع "الميتداشن رووم" أو غرفة التعبــد.. حينما رأيتها للمرة الأولى لم أفهم طبيعتها، و لم أدخلها.. بعــد ساعتين كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ظهرا، وكان هــذا يوم الجمعة.. الأمر لا يصنع فارقا كبيرا هنا، لكن لا تنس أني مسلم، وأن هذا الوقت يعني لي صلاة الجمعة.. كنت أجــوب الطابق الأرضي للأمم المتحدة باحثا عن مكان مناسب للصلاة -لابد أن هنالك مُصلى ما حتما.. سرت قليلا حتى وجــدت امرأة محجبة.. اتجهت إليها وحاولت التحدث إليها بالإنجليزية، فكلمتني بالعربية.. في لحظات تعارفنا.. أنا طالب مــصري.. وهي عراقية تعيش في لندن، وجاءت تمثل منظمتها الأهليــة في مؤتمر ما يعقد هنا.. طب متعرفيش مسجد هنا؟.. هنا ابتسمت وقالت لي: الميتداشن رووم.. كلنا بنصلي هنـــاك.. والقبلـــة كده.. وأشارت إلى اتجاه القبلة!

عدت أدراجي أبحث عن الميتداشن رووم -كانت زيـــارتي الأولى و لم أكن قد حفظت المكان جيدا بعد.. أمـــام الغرفـــة الهادئة وجدت فتاتين محجبتين أخرتين حائرتين أمام الغرفـــة..

ألقيت عليهما السلام وتحدثت بالعربيـــة.. تبادلـــت الفتاتـــان النظرات في حيرة، وهتفت إحداهما في ذكاء بالإنجليزية: إنـــه يتحدث العربية!.. هذه هي المشكلة الدائمة.. تتحدث العربية، فتكتشف أن محدثك لا يفهم ســـوى الإنجليزيـــة.. تتحـــدث الإنجليزية فيعيب عليك محدثك أن تكلمه بلغة أجنبيـــة، بينمـــا أنت وهو عربي يتحدث العربية.ودخلت الغرفـــة المقدســـة.. الهدوء هو السيد المطاع.. المدخل خال ساكن ومظلـــم، وبـــه باب أصغر.. تدخل الغرفة التالية لتجـــد نفـــسك في محـــراب العبادة.. هذه غرفة خصصت لكل صاحب عقيدة كي يمـــارس عقيدته بحرية لكن بصمت.. ثم سجاد سميك يغطـــي الأرض، وعدة آرائك خشبية مرصوصة بنظام، والغرفة شـــبه مظلمـــة أيضا.. ولم يكن في الغرفة سوى اثنين.. سيدة جالسة في وضع ثابت تماما تنظر بثبات إلى الأمام وكأنها تلعب اليوجا ولا تنطق ببنت شفة.. والأخرى فتاة أولت وجهها شطر المسجد الحرام –أو هذا ما خمنته في هذا الظلام– وأخذت تصلي الظهر.. أما الأولى فهي طبعا تتأمل كما هـــي عـــادة الهنـــدوس للـــسمو بأرواحهم.. والثانية مسلمة لم تجد مكانا لتصلي فيـــه الظهـــر سوى الميتداشن رووم.. نحن هنا نتحدث عـــن عـــالم الأمـــم المتحدة، وليس عن نيويورك ســـيتي.. هـــذه المدينـــة عـــامرة بالمسلمين ولابد أنها عامرة بالمساجد أيضا.. أنا قد سمعت عـــن المركز الإسلامي الكبير في الشارع السادس والتسعين، لكنني لم أزره للأسف!ورغم أنني شككت في اتجاه القبلة فإنني لم أجـــد

خيارا آخر.. لا يمكنني طبعا أن أوقف السيدة الهندوسية إياها عن صلاتها التأملية لأتأكد من اتجاه القبلة، أو لأسألها عن اتجاه الشمال.. وهكذا خلعت حذائي واتخذت وضع الصلاة وقد ضاع أملي في صلاة جمعة واستبدلتها بصلاة ظهر.. ورفعت يدي وصحت في سري أن الله أكبر.. لا تنس أن الهدوء هو القاعدة الذهبية الأولى لهذا المكان!

***

هناك حالتان فحسب تسمح للعامة - الذين لا يحملون جوازات سفر دبلوماسية ولا يمثلون دولهم في مصاف الأمم المتحدة- بالصعود إلى الطابق الثاني.. إما أن تكون زائرا قد دفع الدولارات التسعة ثمن الرحلة الإرشادية، وإما أن تكون طالباً مثلي يحمل بطاقة خاصة تسمح له بتلقي محاضراته داخل المقر، مع العلم أن هذه البطاقة لا تسمح لي بالدخول سوى أيام الجمعة فحسب وإلى أماكن المحاضرات فقط لا غير، لكن من يبالي؟..

فيما بعد استطعت أن أتسلل إلى مجموعة تتحدث بلغة غريبة تتلقى رحلة إرشادية كانت متجهة إلى مجلس الأمن.. دخلت معهم المجلس الموقر وتسحبت ألتقط الصور.. ها هي ذي قاعة مجلس الأمن تمتد أمامي.. هنا تحسم مصائر الأمم وتقرر مستقبل الشعوب.. هنا تلعب أمريكا بالفيتو لتنتهك حقوق العرب.. من هنا خرجت سيناريوهات تقسيم فلسطين

وقرارات وقف إطلاق النار في كل الحروب من حرب السويس ٥٦ وحتى حرب لبنان الأخيرة.. هنا خططوا لحرب أفغانستان وفرضوا العقوبات على إيران ورفضوا إدانة إسرائيل في مذابحها مرارا وتكرارا.. هنا تدور أعتى المعارك الدبلوماسية في أهم وأقوى مجلس دولي واجبه الأول الحفاظ على السلام العالمي.

وعندما حل مايو كانت الذكرى الستين للنكبة وقيام دولة إسرائيل.. وإذا كان هناك فيلم للهولوكوست يذاع طول الوقت داخل مقر الأمم المتحدة، فقد حان الوقت لمعرض صغير في أحد أركان الطابق الثاني عن فلسطين.. قليل من الصور.. بعض المعلومات عن القضية الفلسطينية.. نبذة عن مفاوضات السلام.. كلام عن أمل في قيام دولة فلسطينية.. ثم خريطة.. وللأسف الخريطة تحمل اسم إسرائيل!

الآن دعنا نعود أدراجنا من جديد.. أثناء نزولنا على درجات السلم لا تنس أن تتأمل تلك اللوحة الجميلة التي لابد أنها مهداة من إحدى الدول العربية إلى الأمم المتحدة.. بحروف عربية وزخارف إسلامية جميلة تقرأ الآية القرآنية العظيمة: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم}. نترل معا إلى الطابق الأرضي.. القاعة الواسعة في المنتصف وعلى جانبيك مكتبة الأمم المتحدة لبيع الكتب والمقتنيات التذكارية من كل دول العالم.. ادخل بنفسك وستجد كل دول العالم.. في جانب من المكتبة ستجد ركنا لمصر، تباع فيه

التماثيل الفرعونية إياها التي تمثل مصر أينما ذهبت.. في الجانب المقابل مكتب البريد، والكافتيريا الجميلة صاحبة أرخص أسعار -للقهوة الأمريكية خاصة- قد تجدها في نيويورك بأسـرها، ثم بائع الجرائد الذي يبيع صحفا من كل دول العالم..هل اشتقت إلى مطالعة الأهرام والأخبار والجمهورية؟.. حسنا، لكن تذكر أن نسخة الأهرام الدولية بدولار واحد فقط، وهو سعر معقول نسبيا لو عرفنا أن النيويورك تايمز تباع بدولار و ربـع!الممـر المقابل يمتد بين غرف الاجتماعات ويمتلئ بأجهزة الكمبيـوتر المتصلة بالإنترنت، وقد حملت لافتة "للمندوبين فقط"، ولكـن ذلك لم يمنعني من استخدامها وقت الضرورة.. لن يسألك أحد هنا عن هويتك وعما تفعله هنا.. في نهاية الممر تجـد المطعـم الأنيق المزدحم دائما بالسادة الدبلوماسيين أصحاب البـذلات السوداء الفاخرة والذين أتوا من كل أنحاء العالم ليمثلوا دولهـم ههنا.. ولا فارق هنا بين سفير أو غفير.. الكل يلـتقط طبقـا ويبدأ في ملئه بأصناف الطعام المختلفة، ويذهب للكاشير لدفع حسابه بنفسه، ثم يأخذ طعامه إلى المائدة ليبدأ حديثا دبلوماسيا ساخنا مع مرافقيه.. المنظر من النافذة يقدم لك النهر الـشرقي والجانب المقابل لمانهاتن.. وفي كل مرة أذهب للمطعم لا بد أن تميز أذني حديثا ما يجري بالعربية تلتقطه أذني وسط ضوضـاء الإسبانية والفرنسية والصينية والسواحيلية -لابد مـن بعـض الأفارقة حتما.. حينها أنظر جانبا لأميز وجوه المتحدثين الذين ينتمون لدولة عربية ما.. وعادة لا تأتي الفرصة للتعارف..!

٣

السفير الذي كرهته!

اسمه د."ميهاجلو سوزنجيفك".. وظيفته مندوب جمهورية البوسنة والهرسك في الأمم المتحدة.. في عينيه ترى نهرا كامنا من الحزن والأسى.. نسأله عن موقف بلاده من استقلال كوسوفو، فيجيبنا بأسف عميق أن بلاده عليها أن تتريث قليلا.. ثم يتذكر شيئا، ويواصل الحديث عن الأمم المتحدة.. "هذه المنظمة مليئة حقا بالبيروقراطية.. أنتم لا تعرفون كم استغرقنا من الزمن كي نأخذ منها قرارا لتوصيل المساعدات الإنسانية إلى سراييفو عام ١٩٩٥.. كانت المدينة الأوروبية الجميلة تتألم وسكانها يعانون من الجوع بعد مأساة الحرب القاسية، لكن الأمم المتحدة كانت تعيد ترتيب أوراقها حتى تجمع صوت أعضائها لإرسال مساعدات إنسانية إلى الجوعى في البوسنة.. هذه هي الأمم المتحدة دائما.. سياسة التحرك بعد وقوع الكارثة"..في نظراته تتبين شريط ذكريات مؤلم..لابد أنه يتذكر الآن قسوة الأمم المتحدة يوم أن قررت حظر استيراد السلاح على المقاتلين المسلمين البوسنيين تاركة الصرب يعيثون في البوسنة فسادا مدمرين مدنها وقاتلين رجالها ومغتصبين نسائها..يتذكر تلك الأيام العسيرة حينما كان الصرب وحدهم يقررون دخول المساعدات الإنسانية إلى الجوعى في سراييفو أو

عدم دخولها لأن القوات الدولية لم يكن باستطاعتها استخدام القوة لتوصيل هذه المساعدات!

قابلناه كطلبة علوم سياسية في مقر بعثة الاتحاد الأوروبي إلى الأمم المتحدة، ليتحدث معنا عن قضية تشغل ساسة العالم أجمع.. مشكلة الاعتراف بجمهورية كوسوفو الوليدة، التي كانت حينها تبلغ من العمر أسبوعين منذ إعلان استقلالها في ١٧ فبراير ٢٠٠٨.. الجمهورية التي تحمل أغلبية ألبانية مسلمة، وأقلية من الصرب لا تتجاوز السبعة في المائة، بينما ثلث سكان البوسنة من الصرب والأغلبية ألبان مسلمون أيضا.

ورغم أن البوسنة هي الشقيقة الأقرب إلى كوسوفو في رحلة الشقاء والحروب البائسة نحو الاستقرار، فإن البوسنة لديها أسبابها التي تجعلها تتريث كثيرا قبل أن تعلن اعترافها بشقيقتها كوسوفو.. ثلث سكان البوسنة من الصرب، ولن يسكتوا إذا أعلنت البوسنة اعترافا دبلوماسيا بكوسوفو.. الصرب الذين أشعلوا النار في سفارة الولايات المتحدة في بلجراد، حتما سيخربون سراييفو لو أقدمت البوسنة على الاعتراف بكوسوفو بسرعة!

فيما بعد قابلنا مستر "كريس ماثيو" وهو متحدث رسمي باسم الاتحاد الأوروبي في الأمم المتحدة.. دبلوماسي مثله يشرح لك المأزق الحرج الذي تورط فيه الاتحاد الأوروبي كوحدة فريدة من نوعها في التعامل مع استقلال كوسوفو.. الدول

الكبرى في أوروبا أيدت الاستقلال.. ١٧دولة من بين الـــ ٢٧ دولة الذين يشكلون الاتحاد الأوروبي اعترفوا بكوسوفو، من بينها بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا، فيما رفضت إسبانيا واليونان الاستقلال بشدة.. في حالة كهذه يترك الاتحاد الأوروبي لأعضائه حرية اتخاذ القرار، فكل عضو يبحث عن مصالحه السياسية، ولم تعد مصلحة الاتحاد الأوروبي واحدة هذه المرة.

انتهت مهمتنا في الحديث مع مندوبيْ البوسنة والاتحاد الأوروبي لتبدأ المهمة الصعبة.. مواجهة السفير الدائم لجمهورية صربيا في الأمم المتحدة.. وتحركنا فورا إلى الفيفس أفينيو في تقاطع الشارع السادس والستين والسابع والستين في مانهاتن، حيث يقع مقر بعثة صربيا إلى الأمم المتحدة في مبنى أثري جميل يطل على منظر أكثر جمالا لحديقة سنترال بارك الشهيرة.

هل يمكنك أن تتخيل شعورك إذا دخلت سفارة إسرائيل في القاهرة؟.. لابد أنه لن يختلف كثيرا عن شعورك عندما تدخل سفارة صربيا في أي مكان.. التاريخ يبرهن بالأرقام أن ما فعله الصرب بالألبان المسلمين في تسعينيات القرن العشرين فادح حقا..١١ ألف ألباني قتلوا على يد الصرب في حرب كوسوفو ١٩٩٩، وهرب مليون ألباني آخر من كوسوفو.. اختلفت الأرقام في حرب البوسنة ١٩٩٥، لكن الإحصائيات المختلفة قدرت أن عدد الضحايا من الألبان لن يقل عن ٧٠ ألف ألباني إلى جانب تهجير أكثر من مليون ألباني.. ما يقرب من ٤٤ ألف

امرأة مسلمة تم اغتصابها على يد الجنود الصرب.. هذه الأرقام التي درستها كانت تدور في رأسي وأنا أتأمل اللوحات الكلاسيكية الجميلة التي تظهر حضارة الصرب العريقة في قلب مقر البعثة الصربية..

وجاء السفير الصربي بابتسامة ودود كبيرة ليستقبلنا في قاعة الاجتماعات..كل السفاحين يبدون طيبين ودودين.. لو قابلت "سلوبودان ميلوسوفيتش" سفاح الصرب نفسه لوجدته مبتسما ودودا..إذا كانت لدى العرب أسباب كافية لكراهية إسرائيل ألف مرة، فلدى المسلمين أسباب لكراهية الصرب مليون مرة أيضا.

هذه المرة اسمه "سلفاكو كروليحفيك".. وظيفته مندوب صربيا الدائم في الأمم المتحدة.. ومهمته أن يجمع الأدلة على أن استقلال كوسوفو وهمي، وأن "كوسوفو هي صربيا" -نفس منطق "القدس هي إسرائيل"-.. يترك كل ملفات حرب كوسوفو ومذابح الصرب وحقوق الإنسان وكل تقارير محكمة جرائم الحرب الدولية ليخبرنا عن فقرة قصيرة في قرار مجلس الأمن ١٢٤٤ الخاص بحل مشكلة حرب كوسوفو.. الفقرة تشير إلى حق إقليم كوسوفو في الحكم الذاتي تحت رقابة الأمم المتحدة، ومن هنا فإن الاستقلال يعتبر هتكا لنص قرار مجلس الأمن.. يندد بما فعلته كوسوفو يندد بالدول التي اعترفت بها، ثم يعلن أن صربيا لن تسكت.. روسيا معها ولسوف يملآن الأمم المتحدة ضجيجا.. بأي حق تخالف كوسوفو فقرة كاملة في

قرار مجلس الأمن؟!.. يا للمهزلة!.. يخالفون قرارا دوليا؟!.. صربيا لن تسكت!

بكل صدق بهرني أداؤه..يبدو كأنه صاحب الحق، وأن كوسوفو قد اغتصبت حقا صربيا أصيلا.. هي دولته ولابد أن يتحدث بلسانها -لا تنسوا أنه سفير صربيا في الأمم المتحدة، وكل صربي أصيل يرى كوسوفو أرضه المقدسة..

الخلاصة أن قضية كوسوفو لم تنته بعد.. فقط كان إعلان الاستقلال بداية لفصل جديد من فصول الصراع في شبه جزيرة البلقان.. صربيا مصرة على حقها في كوسوفو، وصرب كوسوفو رفضوا الاعتراف بالاستقلال، وبوسعهم زعزعة الاستقرار في الجمهورية الوليدة.. روسيا ستلعب بثقلها مع صربيا في كل من الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة، بينما تدعم الدول الكبرى الأخرى موقف كوسوفو.. وبالتالي فاحتمال عودة التوتر إلى الإقليم موجود، ورياحه هبت بالفعل يوم أن حرق المتظاهرون الصرب سفارة الولايات المتحدة في بلجراد. موقف العرب كالعادة كان إما الصمت المريب أو الكلام الدبلوماسي بلا معنى.. مصر مثلا أعلنت رسميا أمنياها بأن يعم الاستقرار في البلقان بلا أي تأييد أو رفض.. وكل عام وأنتم بخير!

ما حدث في منطقة البلقان من حروب قاسية ما كان ليحدث لولا تفكك يوغوسلافيا، لتتحول الدولة القوية التي

بناها "تيتو" إلى دول صغيرة عاش بعضها في سلام، فيما اندلعت الحروب بين صربها وألبانها بقسوة.. مصير كهذا ينذر بمستقبل قاس جدا لو انقسمت العراق أو السودان.. ما حدث في البلقان بعد تفكك يوغوسلافيا يمكن أن يحدث بشكل أكثر قسوة بين الأكراد والسنة والشيعة لو تفككت العراق -التي حكمها "صدام حسين" بيد من حديد كما فعل "تيتو" من قبل مع يوغوسلافيا-.. هذه هي فائدة دراسة التاريخ.. أن تتعلم من دروس الماضي!

٥

أستاذتي العظيمة!

العاشرة صباحا إلا خمس دقائق..إنها تلك الدقائق القليلة التي تسبق بدء المحاضرة..يتهامس الطلبة ويتبادلون بعض التعليقات، بينما د.أوزلر البروفسير التركية ترتب أوراقها و شرائح البور بوينت استعدادا لأخذ الحضور وبدء محاضرة سياسية أخرى عن الأمم المتحدة..تدخل الفتاتان اللاتينيتان الفصل، وتجلسان بجواري..ماريوكسي إكوادورية وجابرييل مكسيكية..تلقي ماريوكسي التحية علي قائلة: "السلامو أليكم آلاء" -أي السلام عليكم علاء- فأرد التحية مبتسما..هنا تسألني جابرييل في شغف عن معنى هذه التحية!

أن تكون ممثلا عن شعبك وجنسك وعرقك بأكمله..لم أشعر قط بمثل هذه المسئولية إلا في كورس الأمم المتحدة بين ثلاثين طالبا الأغلبية أمريكان والباقي طلبة من حول العالم..الصين واليابان وإنجلترا وبولندا والمكسيك والسلفادور والإكوادور وأوكرانيا ومقدونيا والدومينيكان و...مصر..أنا كنت من مصر!

في البداية لم يسمح لي مباشرة بالتسجيل في كورس الأمم المتحدة، لأن هذا يتطلب إذنا مباشرا من البروفسير وليس عن

طريق الموقع الإلكتروني كغيره من الكورسات..وذهبـت إلى قسم العلوم السياسية لأقابل د.أوزلر..كانت الأستاذة واسـعة الصدر تعرفت إليّ ورحبت بي لما عرفت أنني مـن مـصر، ثم شرحت لي بإيجاز محتوى الكورس لتؤكد لي أنه شـاق جـدا، لكنني أصررت على التسجيل فيه..ومنحتني إذنا بعدما تأكدت من جديتي، وكأنها تقول : إحنا مش رايحين نلعب في الأمـم المتحدة يا كابتن!

أربعة أشهر قضيناها نحن الطلبة وسط مشاكل الأمم المتحدة و نظمها ومنظماتها وقواعدها الدولية وتعقيداتها..أربعة أشـهر بين مدينتيّ نيويورك ونيوبولتز من الجامعة إلى مقر الأمم المتحدة إلى مقار البعثات الدبلوماسية إلى الأمم المتحدة لأمريكا وكندا وصربيا وغيرها..أربعة أشهر بين مناقشات حامية عـن أبـرز القضايا الدولية من حقوق الإنسان إلى الاحتباس الحراري..من مؤتمر سان فرانسسكو ١٩٤٥ إلى آخـر جلـسات الجميعـة العمومية..

وكثيرا ما كانت سيرة العالم العربي تفرض نفـسها علـى مناقشاتنا في الفصل..أحيانا أكون شاردا قد مللت تلك المناقشة الطويلة عن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ثم أسمع لفظة العالم العربي لأنتبه..والكلام عن العالم العربي دائما مثير للغيظ..عـن حقوق الإنسان المنتهكة في عالمنا العربي يتحـدثون..ينتقـدون أوضاع المرأة في أوطاننا..يتكلمون عن حقـوق المـساجين في بلادنا..وأحيانا يتناولون دور الأنظمة الإسـلامية -كـإيران

والمملكة السعودية في قمع حقوق المواطنين..وأحيانا يكون معهم الحق وأحيانا أخرى يتحاملون كثيرا على أوطاننا..أحيانا أصمت أفضل الاستماع إلى آرائهم وأحيانا أتدخل لأصحح معلومة أو أدافع عن بلدي..من السهل جدا أن أتقبل انتقاد بلدي من مواطني مصر بل ويمكنني أيضا أن أنتقد معهم الحكومة والبلد ذاتها، لكنه من الصعب جدا أن تتقبل هذا النقد من أجنبي!

وكثيرا ما كانت قضية فلسطين تقفز إلى مناقشاتنا..أذكر مرة كان مندوب من مجلس الأمم المتحدة لشئون اللاجئين UNHCR يتحدث بحماس عن أوضاع اللاجئين حول العالم، حتى بدأ الحديث عن اللاجئين الفلسطينيين..قال بمنتهى الوضوح إن أهم قضية تشغل العرب هي القضية الفلسطينية..أعترف بوضوح أن الأمم المتحدة لم تبذل الكثير لحل هذه القضية المهمة..وأضاف بوضوح أيضا أن هذا هو السبب الرئيسي الذي يجعل العالم العربي لا يشعر بأي امتنان تجاه منظمة الأمم المتحدة!

وكان الرجل صريحا..العرب لا يحبون الأمم المتحدة، بينما تدين لها شعوب أخرى كثيرة لها بكثير من الفضل..ورفعت يدي وتحدثت..في العالم العربي لا يعرف العامة مجهودات الأمم المتحدة تجاه أزمة الكونغو أو قوات حفظ السلام في أية بؤرة ملتهبة حول العالم ولا يبالون بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان

أو الطفل ما دامت حقوق المـواطن الفلـسطيني أو الطفـل الفلسطيني منتهكة في كل مكان في الأراضي المحتلة.

انتقل الرجل للحديث عن المساعدات الإنسانية في قطـاع غزة، وكنا وقتها في ذروة أزمة القطاع والحصار الإسرائيلي لا يزال مفروضا بقوة عليه في وقت نفد فيه الوقود وبات محـتملا انقطاع التيار الكهربي عنه في أية لحظة..قال إننـا في الأمـم المتحدة لا نبالي كثيرا إذا كانت حماس هي سبب الأزمة أم فتح أم الاحتلال الإسرائيلي..الهدف الأساسي هو مساعدة عشرات الألوف من البشر المحاصرين في قطاع غزة..أما الحديث عـن فتح وحماس وإسرائيل فهي مهمة الساسة وحدهم.أعجـبني في الرجل حياده في الكلام، بينما استمعت إلى محاضرين كـثيرين فيما بعد يمكنهم أن يصنفوا حماس كمنظمة إرهابية بـسهولة، ويصفوها بأنها سبب معاناة أهل غزة..ولا يختلفون فحسب في قضية فلسطين، فهم يتعاملون معها كواحدة من مشاكل العالم الكثيرة وليست كأزمة أساسية مثلما يعدها العرب..النـاس في الأمم المتحدة يمرون على عشرات الملفات المفتوحـة وملـف القضية الفلسطينية هو مجرد ملف آخر..قد يكون الأكثر تعقيدا لكنه يبقى ملفا واحدا فحسب!

***

و نادرا ما كانت تتاح لي فرصة الانفراد بد.أوزلـر كـي نتناقش سويا.. لم أكن مشاركا نشطا في مناقـشات الفـصل،

وكنت أفضل الاستماع إلى وجهات النظر المختلفة، ومعظم الزملاء يحبون الثرثرة وإبداء آرائهم في كل شيء، وهو ما كانت د.أوزلر تشجعنا عليه كثيرا..أما أنا فكنت أفضل الإنصات حتى إذا سمعت رأيا ما لم يعجبني أو أثار استفزازي فكان ينبغي أن أرد..وجاءت الفرصة المثالية للحديث مع د.أوزلر ذات مرة في الأتوبيس خلال رحلتنا الأسبوعية إلى نيويورك، فبدأت معها مناقشة فكرة البحث الذي أنا بصدد كتابته، واقترحت الكتابة عن حقوق الإنسان في العالم العربي، فطلبت مني أن أكون أكثر تركيزا..قلت في مصر..فطلبت مني مزيدا من التركيز..قلت انتهاك حقوق الإنسان في أقسام الشرطة في مصر..فقالت: عظيم..ينبغي أن تبدأ البحث عن تقارير دولية بهذا الصدد مع إيجاد صلة قوية للأمر بإحدى منظمات الأمم المتحدة..كانت هذه هي البداية وأخذنا الحديث طول الطريق عن أمور شتى، فكنت أستغل كونها تركية الجنسية لأسألها عن نقاط كثيرة أثارها لي أصدقائي الأتراك عن نسب العلويين في تركيا ومطالبتهم بحقوقهم في دولة تنادي بالعلمانية، ومن العلويين إلى السنة في تركيا و حتى الإمبراطورية العثمانية..طال الحديث حتى وصلنا لمقر الأمم المتحدة!و لم أكتب بحثي عن حقوق الإنسان لا في مصر ولا في العالم العربي، إنما عن الدول النووية التي لم توقع معاهدة حظر الانتشار النووي..في جلسة أخرى بدأ حديثنا من برنامج إيران

النووي إلى برنامج إسرائيل النووي وانطلقنـــا إلى موضـــوع الديمقراطية في مصر..وظللنا نتحدث حتى وصلنا إلى نيوبولتز!

ذات مرة كنا عاكفين على قراءة نـــص الإعـــلان العـــالمي لحقوق الطفل في الفصل، وكان أحد البنود يتضمن حق الطفل في كفالة والدته له عند طلاق والديه، فتوقفت د.أوزلر قلـــيلا لتشرح لنا هذا البند قائلة إن الدول الإسلامية ترفض الاعتراف بهذا الحق لأنه –صـــدق أو لا تـــصدق- يخـــالف الـــشريعة الإسلامية..حاولت أن أستوقفها وأسألها عن هـــذه النقطـــة، فقالت لي إن هذا ما تعرفه..ثم تابعت محاضرتها متحدثـــة عـــن مصر، وقالت إنها دولة ذات نظام إسلامي!!بعد انتهاء المحاضرة ذهبت إلى البروفسير فتحدثت معها ونقلت إليها وجهة نظري كاملة وطلبت منها التأكد من مصادر معلوماتها..في المحاضـــرة التالية بدأت د.أوزلر بالاعتذار لنا عما قالته مـــن معلومـــات خاطئة، وقالت إن ثم سوء فهم واجهته..أيـــام الإمبراطوريـــة العثمانية كان الناس يصفون القاضي بالإمام، وأثنـــاء قراءتهـــا للتاريخ في مصر لاحظت وجود الإمام في المجتمع المصري وأن الناس يلجأون إليه في القرى لسؤاله عن قضايا حياتهم..فهمت د.أوزلر خطأ أن الإمام في مصر القاضي كما كانوا يـــصفونه باللغة التركية أيام الإمبراطورية العثمانية..

وتناولنا نقطة كون مصر ذات نظام إســـلامي، وكانـــت د.أوزلر تعتمد في نقطتها على المادة الثانية من الدستور المصري أن الإسلام هو الدين الرسمي لمصر..قلت لها إن هذا صـــحيح

لكن القانون في مصر مدني والمحاكم مدنية ولا شـأن للإمـام بالقضاء المصري..وهذا ما اتفقت معي فيه بعـد أن راجعـت مصادرها واكتشفت خطأها.

***

خلال محاضرات الأمم المتحدة قابلنا عـددا كـبيرا مـن الدبلوماسيين من دول و أجناس مختلفة..سمعنا منهم محاضـرات بإنجليزية طغت عليها لكنات فرنسية وإسبانية وألمانية وصـينية وروسية..أحيانا كنت أفهـم وأحيانـا كنـت أحـاول أن أفهم..خضنا في ملف إيران النووي وناقشنا سر كراهية العرب للأمم المتحدة و تعرضنا لحقوق المرأة في دول العـالم الثالـث واختلفنا حول سبل تطوير الأمم المتحدة..وفي كل مرة كـان كل طالب منا مسئول عن كتابة ثلاث صفحات عن انطباعـه عن زيارة كل جمعة، ليحلل و يشرح و يقدم وجهة نظـره في كل ما قيل..حتى لو لم تكن سيادتك ملما باللغة الصينية الـتي كان المحاضر يتحدث بها مصرا على أنها إنجليزية متقنة!

أكثر ما تعلمته من هذا الكورس أنني فهمت أن مـشاكل هذا العالم أكثر تعقيدا مما تصورت..إذا كنا نحن العرب لا نرى أمامنا سوى قضية فلسطين وغزو العراق وأفغانستان، فإن العالم أكثر قذارة من ذلك بكثير..عندما تقرأ عن مذابح الـصرب في البلقان، وتشاهد فيلما تسجيليا عن مذابح رواندا، وتتعمـق في دراسة مذابح دارفور، ثم تخوض في غمار الحرب في الكونغـو،

حينها تدرك جيدا أن -اعذروني لذلك- مذبحة دير ياسين وبحر البقر ليست أكثر مذابح التاريخ دموية كما تصورت ذات يوم..بعض البشر أكثر قذارة من قتل ألف طفل في مدرسة ابتدائية..هناك من يقتل ٨٠٠ ألف بشرى في أقل من شهر..حدث ذلك في رواندا!..هناك من يقتل ثمانية ألف رجل مسلم في يوم واحد..حدث هذا في البوسنة..لكن هذا لا يعني طبعا أن نتوقف عن فضح جرائم عدونا، فهذا واجبنا لا شك فيه..من سيفعل ذلك غيرنا نحن العرب؟ذات مرة كنا عائدين من رحلتنا الأسبوعية إلى الأمم المتحدة وجلست في المقعد قبل الأخير بالحافلة، محاولا أن أغفو قليلا طول الطريق إلى نيوبولتز..كان الحوار يدور بينهم عن الأديان وسمعت كلمة الإسلام مرة أو مرتين، فتنبهت وذهب عني النوم..بدأت حديثا معهم تحمسوا كثيرا له..وسألني ستيف: أنت مسلم..ما هو مفهوم الجهاد في الإسلام؟!وقبل أن أرد كان زميلنا الأوكراني يرد عليه: الجهاد هو **struggle** بالإنجليزية..شرح له المعنى قائلا إن الجهاد قد يكون جهادا للنفس..وراح الحديث يجمعنا وانهمرت أسئلة زملائي عن مصر والإسلام..وسألني الأوكراني: أرغب في زيارة مصر..سمعت كلاما كثيرا من أمي التي زارت القاهرة..قالت لي إن أكثر ما لفت نظرها هناك أن لا أحد يلتزم إطلاقا بقواعد المرور..حاولت أن أدافع عن بلدي، لكنه للأسف كان محقا..قلت له إن قوانين المرور موجودة، ومن المفترض -فقط من المفترض- أن يلتزم الناس بها!

٦

سربرنيتشا..حتى لا ننساها!

كان زميلنا إيجور من مقدونيا..وقف أمام فصل الأمم المتحدة يعطي لنا عرضا تقديميا عن قوات حفظ السلام في البوسنة..يجمع الأدلة على نجاح الأمم المتحدة في مهامها خلال حرب البوسنة..كان كلامه منظما وأنيقا إلا أنه تجاهل الحديث عن عمد عن سربرنيتشا، وهي كارثة في حق التاريخ أن يأتي ذكر حرب البوسنة دون الحديث عن سربرنيتشا..

و لم أحتمل هذا التجاهل المتعمد المثير للغيظ..رفعت يدي فأعطتني البروفسير د.أوزلر الإذن بالحديث..استعبطت كي أثير هذه القضية في الفصل..ذكرت شيئا ما عن سربرنيتشا وقلت إنني سمعت أن الأمم المتحدة تواطأت في هذه المذبحة التي راح ضحيتها ثمانية آلاف رجل مسلم من المدنيين في يوم واحد..وهنا تعالت تساؤلات الطلبة..أولا: كيف قتل ثمانية آلاف شخص في يوم واحد؟..ثانيا: لماذا كلهم رجال ماداموا من المدنيين؟..ثالثا: ولماذا كلهم مسلمون؟..رابعا: هل معقول أن تتورط الأمم المتحدة في ذلك؟..هنا كان لابد أن تتوقف د.أوزلر وتحكي القصة الرهيبة التي لم أصدق أنني لم أكن أعرفها عندما قرأتها قبل أيام أثناء تحضيري لهذا الدرس.

المكـــان: مدينـــة سربرنيتـــشا بجمهوريـــة البوســـنة والهرسك..الزمان: يوليو ١٩٩٥..الحدث: أكـبر مذبحـة في تاريخ أوروبا منذ الحـرب العالميـة الثانيـة..القـصة تبـدأ كالتالي..قوات صرب البوسنة -مدعومة من الحكومة الصربية- تطوق سربرنيشا حيث لجأ عـشرات الآلاف مـن المـدنيين للحماية في المدينة التي أعلنتها الأمم المتحدة "منطقة آمنة" منـذ أبريل ١٩٩٣..قوة الأمم المتحدة تتبين أخيرا صعوبة الموقـف وتدرك على وجه اليقين أن المذبحة واقعة لا محالـة..الـصرب مقبلون متعطشون للارتواء من دماء البوسنيين المسلمين..ويبدأ الفصل الثاني من الجريمة عندما تفصل قوات الـصرب رجـال اللاجئين عن نسائها وأطفالها، ويتم التدقيق جيدا في الحافلات المحملة بالنساء والأطفال لمنع أي رجل من الهروب من المدينـة، فيما يفر الآلاف من المدنيين والمقاتلين علـى طـول "طريـق الموت"..ثم يصدر زعيم صرب البوسنة رادوفـان كـاراديتش أوامره بتنفيذ الإبادة الجماعية..وفى خلال ساعات معدودة قتل ثمانية آلاف رجل مسلم ..حدث هـذا في قلـب أوروبـا في منتصف تسعينيات القرن العشرين، ولم تمنـع التكنولوجيـا أو الحضارة هذه المأساة من اكتمالها حتى النهاية.

الجريمة وقعت وانتهى الأمر..المتهم الأول هم صرب البوسنة المتوحشين..وفى قائمة الاتهام تبقى الأمم المتحدة متواطئة إذ إن المذبحة وقعت على مرأى ومسمع من القوة الهولندية الـضعيفة التي كان من المفترض أن تحمي أهالي سربرنيتشا..طبعا كـان

مستحيلا أن تحمي قوة هولندية مكونـــة مـــن ٤٠٠ جنـــديا مسلحين بأسلحة خفيفة منطقـــة تبلـــغ مـــساحتها ١٠ آلاف كيلومتر مربع، رغم أن القيادات العسكرية طلبت في البدايـــة ٣٢ ألف جندي لتأمين المنطقة لكن العدد انخفض لخمسة عشر ألفا ثم ستة آلاف بعد عام من صدور قرار مجلس الأمن، وبقي من القوة الدولية ٤٠٠ جنديا فحسب وقت تنفيذ المذبحة.

من يدفع الثمن؟..الحكومة الهولندية برئاســـة فـــيم كـــوك تقدمت باستقالة جماعية في أبريل ٢٠٠٢ عقب صدور تقريـــر رسمي يدينها عندما كلفت جنودها بـــــ"مهمـــة مـــستحيلة" وكانت النتيجة أكبر مذبحة تشهدها أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية..محاكم جرائم الحرب لا تزال تواصل المهمـــة العـــسيرة وتتعقب المجرمين هنا وهناك وكلنا نتذكر إلقاء القـــبض علـــى السفاح الصربي كاراديتش في يوليـــو ٢٠٠٨ في بلجـــراد في مسرحية هزلية تبدو كأنها من سيناريو صـــربيا الـــتي تـــسعى لكسب رضا أوروبا للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.

تبقى الحصيلة النهائية للضحايا ٨٣٧٣ شهيدا، منهم ٥٠٠ تحت سن الخمسة عشر عاما وتضمنت القائمة أيضا عـــشرات النساء والفتيات..في عام ٢٠٠٨ تم تحديد هوية ٥٦٠٠ شهيدا باستخدام الحامض النووي، ولا يزال الباقون في عداد المفقودين حتى هذه اللحظة.

الأبرياء دائما يدفعون ثمن الحروب، لكن لابـــد أن يبقـــى هنالك من يطالب بحقوقهم..كل يهودي في هذا العالم يعـــرف أن هنالك ستة ملايين يهودي قتلوا في محـــارق الهولوكوســـت خلال الحرب العالمية الثانية بغض النظر إذا كانت ذلك مـــزاعم يهودية أو حقائق تاريخية..كم منا يعرف أن هنالك ثمانية آلاف رجل مسلم قتلوا في يوم واحد في سربرنيتشا ؟

الفصل الثالث

عزيزتي نيويورك

١

الشارع الثاني والأربعون

يطلق الأمريكيون على نيويورك كما نعرفها اسم نيويـــورك سيتي، وهي أشهر وأكبر مدن نيويورك الولاية –رغم أن مدينة ألباني هي عاصمة الولاية– والولايات المتحدة كلها، وعادة ما يختصر أهالي الولاية اسمها قائلين السيتي.. يمكنـــك أن تجـــوب الولاية شبرًا شبرًا فلا تلاحظ فرقًا كبيرًا بينها وبين أية ولايـــة أخرى من الولايات الأمريكية الأخرى –اللـــهم إلا الطبيعـــة الخلابة ونهر هدسون و شلالات نياجرا شمالاً في حدود الولاية مع كندا.. لكن الصدمة الكبرى تدركها عندما تزور الـــسيتي نفسها.. نيويورك سيتي!

ضخامة وإبهارًا وازدحاما بالوحوش المعدنية هائلة الحجم نهارًا وبإعلاناتها الضخمة والأضواء والشاشات ليلاً.. يا عزيزي هذه هي نيويورك.

أكثر من ثمانية ملايين مواطن من مختلف الجنسيات يشكّلون عدد سكان مدينة نيويورك -أكثر مدن أمريكا كثافة سكانية- يتوزعون على أحيائها الخمسة مانهاتن، وبروكلين، وكوينز، وبرونكس، وستاتن أيلند.. في إحصائية أعدت عام ٢٠٠٥ قدرت السلطات أن حوالي ١٧٠ لغة يتحدث بها سكان نيويورك، وأن نحو أكثر من ثلث السكان ولدوا خارج المدينة.

في أول زيارة للمدينة قضيت أقل من ثماني ساعات أجوب فيها المدينة بسرعة غير عادية؛ لأبتلع أكبر عدد ممكن من التفاصيل محاولاً أن أستوعب أنني اليوم أجوب المدينة التي طالما رأيتها في الأفلام الأمريكية.. المدينة التي يعشقها ويكرهها مئات الملايين حول العالم.. مدينة المال والأعمال والسياسة والفن والمتاحف وتمثال الحرية.. في ثماني ساعات فحسب دخلت متحف مدام توسو، وجبت ميدان التايمز، وركضت في شوارع المدينة إلى ناطحة السحاب الشهيرة الإمبيرستيت، وصعدت إلى أعلى طوابقها لأرى نيويورك من علٍ، قبل أن أستقل المترو إلى مركز التجارة العالمي وأركض من جديد إلى المحيط لأرى تمثال الحرية من بعيد.. والوقت يسمح لك بكل هذا وأكثر.. فقط عليك أن تكون سريعًا، وتمسك بخريطة مترو الأنفاق ولا تنس أن تطبع خريطة المدينة من جوجل أيضا..

هذا كل ما تحتاجه مع بعض الإنجليزية الجيدة لتتعامل مع أهل المدينة وتسألهم عن هدفك، حينما تشعر أنك ضللت الطريق.

المنظر الأول لمدينة نيويورك تراه كأروع ما يكون في مدخل المدينة.. تبدو المدينة واضحة بناطحات السحاب الشهيرة عن يمينك، وبينك وبينها نهر هدسون، يفصلك عن جزيرة مانهاتن، حيث نيويورك كما تراها في السينما وفي بوسترات السياحة، وفي كل الكتب عن أمريكا.. هذه هي نيويورك الحقيقية!

بعد دقائق من مطالعتنا لمنظر المدينة الأول، دخلت بنا الحافلة النفق لتعبر داخله نهر هدسون، لتجد نفسك في وقت قياسي في قلب جزيرة مانهاتن في الشارع الثاني والأربعين مباشرة -وهو أهم شوارع المدينة وربما أهم شوارع الولايات المتحدة كلها..

الآن حان الوقت لتقف قليلاً تتأمل المدينة.. ناطحات السحاب تمتد من حولك يمينًا ويسارًا.. المحلات والمطاعم والفنادق الكبرى والملاهي الليلية تمتد على طول الشارع.. الشارع يبدو مزدحمًا بحكم كونه أكثر شوارعها أهمية، كما أنه يتوسط مانهاتن تماما.. تمر أمامك سيارات التاكسي الصفراء التي يشبهها كايرو كاب كثيرًا.. أفخم ماركات السيارات وأضخمها وأكبرها حجمًا تتساوى مع غيرها في إشارات المرور التي تفتح وتغلق بتتابع كل دقيقة لتتيح للمارة وللسيارات الأخرى في تقاطعات الطرق العبور..

ومانهاتن قمة في البساطة والنظام في تخطيط الشوارع، حتى إنه من المستحيل أن تضل طريقك إذا فهمت تقسيمة الجزيرة.. اثنا عشر شارعًا تتقاطع بالطول مع أكثر من مائة شارع آخر بالعرض.. الشوارع كلها متوازية ومستقيمة.. الشوارع العرضية تحمل أسماء أرقامها.. الشارع العاشر.. الشارع الأربعون.. الشارع الثاني والأربعون.. أما الشوارع الطولية فتحمل أرقامها أيضا بالإضافة إلى اسم آخر.. وبمنتهى البساطة يمكنك أن تسير كما شئت في شوارع المدينة وفي النهاية تحدد اسم الشارع الطولي والعرضي الذي تقف فيه لتحدد موقعك بكل سهولة.. ليس من السهل أن تضل طريقك في نيويورك!كانت التجربة الأولى مع نيويورك في محل الوجبات السريعة الأمريكي الأشهر "ماكدونالدز".. إذا كان للأمريكان مطاعم شعبية فهي ماكدونالدز بلا شك.. أنت في نيويورك حيث أغلى المطاعم، ولن تجد طعامًا رخيصًا سوى في مطاعم الوجبات السريعة.. كما أن الأمر يبدو أكثر سرعة وإنجازًا هنا.. تقف في الطابور كالعادة.. تنتظر قليلاً حتى تصل للكاشير، وتدفع ثمن وجبتك وتستلمها منه في لحظات.. الإقبال كبير والعاملون كثيرون أيضًا.. تأخذ وجبتك، وتصعد للطابق العلوي لتلتهمها وسط العشرات.. على بعد خطوات من "ماكدونالدز" يقع متحف مدام "توسو" الشهير.. لم أكن قد

سمعت عنه من قبل، لكن فيما بعد عرفت أنه أشهر متحف شمع في العالم، وله فرع شهير آخر في لندن، أما عما يحتويه فهـذه مفاجأة أخرى..

في البداية حاول أن تنسى ثمن التذكرة الباهظ -٢٨ دولارًا بعد التخفيض؛ لأنك تحمل بطاقة جامعية- واصعد معي المصعد لنبدأ اللهو معًا مع مشاهير السياسة والفن والعلوم والرياضة في قلب المتحف.. هناك ستقابل "جون كيندي"، وتصافح "المهاتما غاندي" بل وتعانق "أينشتاين" بنفسه!.. ستلاكم "محمد علـي كلاي"، وتأخذ الصور مع "ليوناردو دي كابريو"، وتخطـف قبلة من "بريتني سبيرز" وتغافل الحارس لتركل "جورج بـوش" أيضًا.. كل هؤلاء وأكثر ستجدهم يستقبلونك بترحاب في هذا المتحف، والفارق أنهم تماثيل من الشمع تبدو حقيقية تمامًا بكل ما تعنيه الكلمة من معان.. هذه التماثيل صنعت بدقة متناهيـة بأحجام أصحابها الحقيقيين وبصورهم المحفوظـة في أذهاننـا بديكوراتها وملابسها تمامًا حتى إنك قـد تخـدع أصـدقاءك بالصور التي قد تلتقطها مع هؤلاء المشاهير.. ستنتقل من قاعـة إلى أخرى لتجد المزيد والمزيد من مشاهير العالم.. لم أتعـرف كثيرين منهم وتعرفت آخرين من الأسماء المكتوبة جـوارهم.. رأيت "جراهام بيل"، و"جون ترافولتا"، و"كاسترو"، والأميرة "ديانا" و"أنجلينا جولي" ورائد الفضاء "نيـل أرمـسترونج".. العربي الوحيد الذي رأيته كان الرئيس الفلسطيني الراحل "ياسر عرفات" بكوفيته الشهيرة، وقد وضعوا تمثاله مباشرة جوار تمثال

"كاسترو".. كما احتل تمثال الملاكم الأمريكي المسلم "محمد علي كلاي" مكانا بارزا في واحدة من قاعات المتحف، يسمح لك أن تقف في مواجهته وتخوض مباراة ملاكمة حامية مع تمثاله الساكن!

هناك أيضا بيت الرعب.. كنت قد جربته مرارا في ملاهي القاهرة، وكل بيوت الرعب تتشابه في سخافتها.. في متحف مدام "توسو" تبدو الوحوش أكثر جنتلة ورومانسية.. تسير وسط الوحوش فيأتيك أحدهم فجأة من حيث لا تدري ليلقي سلاما ويختفي.. وفي النهاية تقف محتارا أي طريق تتخذ فيتفضل أحد الوحوش بكل جنتلة الدنيا مشيرا لك نحو الطريق الصحيح لتواصل جولتك في قاعات المتحف..
هناك قاعة أخرى مخصصة للبرنامج الأمريكي فائق الشهرة American Idol الذي خرجت منه برامج ستار ميكر وستار أكاديمي العربية.. تختار أغنية من بين مئات الأغاني الأمريكية وتقف متقمصا دور مغنيك المفضل وبعدها تعلو موسيقى الأغنية وعليك أن تغني معها.. صحيح أنك ترى كلمات الأغنية على شاشة صغيرة أمامك لكنك لا بد أن تؤدي الأغنية كاملة أمام عيون مشاهديك.. رواد المتحف طبعا!

بعد ساعتين من التجول في قاعات المتحف، كان الوقت قد حان لإلقاء السلام الأخير على "سوبرمان" وتوديع "هيلاري كلنتون" متمنين لها حظا سعيدا في انتخابات الرئاسة الأمريكية

-كانت الحملة الانتخابية في قمتها حينها.. استغرقت جولة المتحف حوالي ساعتين، التقطنا فيها عشرات الصور في محاولة لتخليد ذكرى الـ ٢٨ دولارا.. وبعدها عدنا من جديد إلى نيويورك!

تسير قليلا ليطالعك مبنى شديد الضخامة تكتشف أنه مقر أشهر صحف العالم (النيويورك تايمز).. من هنا تخرج تلك الصحيفة الأمريكية الضخمة التي أتصفحها كل يوم، بملاحقها اليومية التي لا تقل عن خمسة ملاحق.. و(النيويورك تايمز) ليست مجرد جريدة إنما مؤسسة إعلامية ضخمة، ومبناها لا بد ألا يقل عنها ضخامة أيضا!

ولا يمكنك أن تترك الشارع الثاني والأربعين دون أن تلقي نظرة على أشهر ميدان في نيويورك.. اسمه ميدان التايمز.. من نظرة لمدينة نيويورك على جوجل إيرث تدرك أن ميدان التايمز يتوسط المدينة تماما.. من سمعته تتصور أنك ستجد ميدانا عملاقا لم تشهد الحضارة الإنسانية مثله من قبل، وتتخيل أنك لن تحتمل منظره بسهولة وتعد رفاقك أن تتماسك وتحاول أن تتحمل رؤية ناطحات السحاب الشاهقة.. عندما وصلنا ميدان التايمز لم يبد لي ميدانا بالمعنى الذي أعرفه عن ميدان التحرير بحدائقه وزحامه الخانق والفضاء الشاسع الذي يتوسطه.. بدا لي التايمز شارعا كبيرا لكنه برغم كل شيء مجرد شارع.. هناك طبعا طن من الإعلانات بالغة الضخامة التي تحتل بنايات هائلة، وأمامك عشرات المتاجر الفخمة والعمارات الشهيرة.. يمتد

ولا يمكنك أن تترك الشارع الثاني والأربعين دون أن تلقي نظرة على أشهر ميدان في نيويورك.. اسمه ميدان التايمز.. من نظرة لمدينة نيويورك على جوجل إيرث تدرك أن ميدان التايمز يتوسط المدينة تماما.. من سمعته تتصور أنك ستجد ميدانا عملاقا لم تشهد الحضارة الإنسانية مثله من قبل، وتتخيل أنك لن تحتمل منظره بسهولة وتعد رفاقك أن تتماسك وتحاول أن تتحمل رؤية ناطحات السحاب الشاهقة.. عندما وصلنا ميدان التايمز لم يبد لي ميدانا بالمعنى الذي أعرفه عن ميدان التحرير بحدائقه وزحامه الخانق والفضاء الشاسع الذي يتوسطه.. بدا لي التايمز شارعا كبيرا لكنه برغم كل شيء مجرد شارع.. هناك طبعا طن من الإعلانات بالغة الضخامة التي تحتل بنايات هائلة، وأمامك عشرات المتاجر الفخمة والعمارات الشهيرة.. يمتد الميدان من غرب الشارع ٤٢ إلى غرب الشارع ٤٧ في قلب مانهاتن بطول الشارع الخامس.. استمد الميدان اسمه من مبنى التايمز الذي كان مقرا لجريدة (النيويورك تايمز).. يبدو الميدان مزعجا لا بسياراته بل بإعلاناته الضخمة جدا.. عندما يأتي المساء تتحول هذه الإعلانات إلى لوحات ضوئية هائلة تتبدل ألوانها وتتنافس على إيذاء عينيك لجذب مزيد من الانتباه إليها.. وبرغم كل شيء لا بد أن تبتسم.. أنت في أشهَر ميادين نيويورك.. أنت في التايمز سكوير!

وإذا كان ميدان التايمز هو قلب مانهاتن فإن الشارع الثاني والأربعين هو قلب نيويورك كلها.. الشارع الذي يخترق

٢

فوق الأمبيرستيت!

كانت الساعة قد تجـاوزت الواحـدة ظهـرا بتوقيـت نيويورك..الشوارع مزدحمة بينما أنا وصديقي نركض نـازلين من الشارع الثاني والأربعين إلى الشارع الرابـع والـثلاثين.. بعملية حسابية بسيطة نكتشف أننا ركـضنا ثمانيـة شـوارع عرضية في أقل من ثلث ساعة، حيث كنا ملتزمين بالتوقف في إشارة المرور أحيانا.. أقول أحيانا لأن صبري كـان ينفـد في أحيان أخرى وأعبر الإشارة مترحما على أيام القاهرة الجميلة.. وأخيرا رأيناها.. الإمبيرستيت!

المبنى الهائل يرتفع عاليا بشكله الشهير جدا.. المبنى الـذي يعدونه ناطحة السحاب الأعلى في نيويورك منذ انهيار برجـي مركز التجارة العالمي.. المبنى الذي لا تخلو منه صـورة لمدينـة نيويورك أو لقطة عابرة للمدينة في أي فيلم أمريكي.. ها هـي ذي إمبيرستيت العريقة تنتصب أمامنا بكل هدوء.. فقط بضع خطوات تفصلنا عن الوصول إليها.

ورغم ذلك فهي أصغر مما كنت أظنها كثيرا.. فكرتي عـن ناطحات السحاب هي أبراج معدنية هائلة لا ترى لها نهاية فلا

إشارة المرور أحيانا.. أقول أحيانا لأن صبري كـــان ينفـــد في أحيان أخرى وأعبر الإشارة مترحما على أيام القاهرة الجميلة.. وأخيرا رأيناها.. الإمبيرستيت!

المبنى الهائل يرتفع عاليا بشكله الشهير جدا.. المبنى الـــذي يعدونه ناطحة السحاب الأعلى في نيويورك منذ انهيار برجـــي مركز التجارة العالمي.. المبنى الذي لا تخلو منه صـــورة لمدينـــة نيويورك أو لقطة عابرة للمدينة في أي فيلم أمريكي.. ها هـــي ذي إمبيرستيت العريقة تنتصب أمامنا بكل هدوء.. فقط بضع خطوات تفصلنا عن الوصول إليها.

ورغم ذلك فهي أصغر مما كنت أظنها كثيرا.. فكرتي عـــن ناطحات السحاب هي أبراج معدنية هائلة لا ترى لها نهاية فلا يكون باستطاعتك رؤية طوابقها العليا مـــن الأرض.. هـــذه الفكرة الخيالية تلاشت تماما عندما رأيت الإمبيرستيت.. ها هي الناطحة الأعلى في مدينة ناطحات السحاب تبـــدو واضـــحة كاملة حتى إن صديقي التقط لي صورة بدت هي في خلفيتـــها كاملة من طابقها الأول حتى طابقها الأخير.. تخيل ذلك!

اقتربنا منها متوقعين أن تبعدنا قوات الحراسة عنـــها، أو أن نجد سياجا أمنيا يحيط بها، فلم نجد أي اختلاف يميزها عـــن أي مبنى آخر في نيويورك.. مجموعة من المتاجر والمطـــاعم تحتـــل الطابق الأول المطل على الشارع ٣٤ من الإمبيرستيت.. مطاعم فاخرة تبدو باهظة الثمن.. ألسنا في الإمبيرستيت؟

كانت الفتاة التي توقفت لمساعدتنا لطيفة.. سألتها عن مركز التجارة العالمي فأشارت لنا إلى نقطة خارج الخريطة وقالت إنه أبعد من أن يقع في هذه الخريطة.. إنه في الجنوب.. طب نعمل إيه؟.. خدوا المترو.. بدا الطريق طويلا، فسألناها عما يمكن أن نفعله كسياح في هذه المنطقة.. هنا أشارت إلى الإمبيرستيت وقالت: ممكن تطلعوا فوق!

هل حقا من المسموح الصعود لأعلى الإمبيرستيت؟

***

المنظر من فوق الإمبيرستيت لا يصدق.. تعال أولا نتفق أن تذكرة صعود الإمبيرستيت تكلفك عشرين دولارا.. فيما بعد عرفت من أصدقائي هنا أن صعود الإمبيرستيت كان مجانياً، في تلك الأيام الجميلة في عهد ما قبل الحادي عشر من سبتمبر حينما كان كل شيء سهلا وبسيطا وكان برجا التجارة العالمي ينافسان الإمبيرستيت بالمطعم الرومانسي المثير في قمتهما والمنظر الأكثر روعة من قمتهما..

في الطابق الأول من الإمبيرستيت يمكنك أن تأخذ صورة تذكارية مع العلم الأمريكي وصورة لناطحة السحاب.. ثم تبدأ رحلة الصعود الصغرى إلى الطابق الثاني -على درجات السلم- حيث تبدأ في التقاط الكثير من المنشورات السياحية عن المدينة، ولابد أن تلتقط الإعلان الشهير للإمبيرستيت -تراه في كل

عرفت من أصدقائي هنا أن صعود الإمبيرستيت كان مجانياً، في تلك الأيام الجميلة في عهد ما قبل الحادي عشر مـــن ســـبتمبر حينما كان كل شيء سهلا وبسيطا وكان برجا التجارة العالمي ينافسان الإمبيرستيت بالمطعم الرومانـــسي المـــثير في قمتـــهما والمنظر الأكثر روعة من قمتهما..

في الطابق الأول من الإمبيرستيت يمكنك أن تأخذ صـــورة تذكارية مع العلم الأمريكي وصورة لناطحة السحاب.. ثم تبدأ رحلة الصعود الصغرى إلى الطابق الثاني -على درجات السلم- حيث تبدأ في التقاط الكثير من المنشورات السياحية عن المدينة، ولابد أن تلتقط الإعلان الشهير للإمبيرستيت -تـــراه في كـــل منشور سياحي عن المدينة- يخبرك: "إذا لم تكن قـــد رأيـــت نيويورك من فوق الإمبيرستيت، فأنت لم ترها بعد"!

ثم الإجراءات الأمنية.. العبور من بوابة كشف المعـــادن - لاحظ أننا صعدنا حتى الطابق الثاني دون أي تفتيش- والتقاط الصور لنا كإجراء أمني..يمكنك شراء خريطة للمدينة من أعلى بثمانية دولارات أخرى حتى يمكنك التعرف بمعالم المدينة عندما تراها من عل.. طبعا لم نشتر شيئا؛ لأننا لا نعرف شـــيئا عـــن معالمها هذه فلن يفيدنا أن نعرف أن هذا هو كوبري بروكلين من أعلى لأننا لم نكن قد رأيناه بعد أصلا من أسفل!

وأخيرا وصلنا إلى المصعد.. الزحام الشديد يجعلك تنتظـــر على أحر من الجمر بضع دقائق.. وأينما وجد الزحام وجدت

الوقت الذي استغرقه المصعد الثاني.. وانفتح بابا المصعد الثـاني لنركض مع السياح إلى ممر الخروج إلى القمة.. خرجنا إلى قاعة مكيفة كبيرة زجاجية تطل بك على مدينة نيويـورك.. تفـتح الأبواب الزجاجية وتخرج إلى الممر الذي يلف قمة الإمبيرستيت لترى المدينة مباشرة تمتد أمامك من الجهات الأربع.. يمكنـك وقتها أن تنسى تماما أن الجو بارد جدا، حتى إن درجة الحرارة لابد وأنها تقارب الصفر، لتركز فقط في الاسـتمتاع بـالمنظر الذي لا يوصف..

والآن اترك لخيالك العنان وتصور معي المنظـر الخـلاب.. أنت في أعلى قمة في مدينة نيويورك.. من حولـك تتـراص ناطحات السحاب والمبـاني العملاقـة كعلـب الكبريـت.. السيارات تسير في الشارع كالنمل.. المدينة تبدو أمامك كأنك تراها من طائرة.. الناطحات.. نهر هدسون.. الكباري.. كـل شيء يبدو واضحا.. كل شيء.. كل شيء.. هنـاك أيـضا مناظير مقربة كثيرة يمكنك استعمال الواحد منها بخمسين سنتا، تضعها في فجوة المنظار لتفتح عدسته دقيقة واحـدة فحـسب يمكنك خلالها توجيهه أينما تشاء لترى شيئا من المدينـة عـن قرب.. ويمكنك استخدامه لرؤية تمثال الحرية الذي يبدو صغيرا جدا جدا من بعيد يحتل مقدمة جزيرتـه الـصغيرة في وسـط النهر..

ثم شعور قوي يتغلب عليك بأنك في أعلى مكان في العالم.. كل نيويورك تمتد أمامك في كل اتجاه.. أعلى ناطحة سـحاب

تراها تشعر بأنها قزم ضئيل إلى جوار الأم الكبري الإمبيرستيت.. أنت على قمة العالم.. كل شيء صنعه الإنسان أو بناه يتضاءل كثيرا من فوق الإمبيرستيت.. ها هي ذي أشهر وأكبر وأغنى وأهم مدينة في العالم تمتد أمامك في كل الاتجاهات خاضعة لمرمى بصرك وعدسة كاميرتك أو عدسة المقرب.. والناس من حولك مبهورون بالمدينة المجنونة.. كلهم مبهورون أمريكان كانوا أو أجانب!

السياح متزاحمون حول السور العالي يتفرجون على نيويورك من وراء القضبان الحديدية المتينة.. ربما وضعوها حتى لا يفكر أحد مجانين الشهرة بالقفز من فوق الإمبيرستيت طامحا في نيل شهرة هائلة من تناقل وكالات الأنباء لخبر انتحاره من أعلى مكان في نيويورك..

ورأيت فتاة محجبة واقفة جواري.. حاولت التعرف بها كما يفعل الكثيرون مع زميلتنا المحجبة كلما تجولت في مكان.. قلت عبارة التعارف الأولى الشهيرة بين المسلمين: "السلام عليكم".. بدت في البداية لم تسمعني فلما كررتها بصوت أعلى ردت السلام ونظرت لي بشك.. ثم تركتني ومشت.. يبدو أنها خافت! كانت الساعة تقترب من الرابعة والنصف عصرا وقد بدأت الشمس تفكر في الغروب.. اقترحت أن نبقى لمشاهدة مشهد الغروب الرائع فوق مدينة نيويورك كي ألتقط المزيد والمزيد من الصور، لكن معنى ذلك أن نضيع باقي اليوم فوق الإمبيرستيت..

وهكذا توجهنا إلى المخرج.. المصعد من جديد.. ونزلنا من الطابق الرابع والثمانين إلى الطابق الثمانين إلى الطابق الأول إلى الشارع ٣٤ في قلب مانهاتن، غير مصدقين أننا كنا منذ لحظات فوق ناطحة السحاب الأعلى في نيويورك.. يبدو الأمر خيـــالا لكن الصور التي التقطناها أقنعتنا أنه حدث بالفعل!

٣

كان اسمه ورلد تراد سنتر!

من قال إن المترو في نيويورك أفضل كثيرا عنه في مصر؟.. لم تبدُ محطة المترو التي دخلناها نظيفة بما فيه الكفاية، كما أننـــا لم نجد موظفا واحدا نسأله عن كيفية الوصول لمركـــز التجـــارة العالمي، وهكذا فعلنا الشيء الذي نفعله منذ أتينا إلى نيويورك.. نسأل المارة!

وفعل الرجل الذي سألناه ما يفعله أي نيويوركي أصـــيل.. أخرج من جيبه خريطة المدينة وبدأ الشرح: نحن هنا.. مركـــز التجارة العالمي هناك.. أمامك عشر محطات.. خذ القطار الذي يحمل الرمز R.. انزل في محطة سيتي هول.إذن من أين نبتـــاع التذكرة؟الحل العبقري هو تلك الماكينة التي تـــشبه ماكينـــات الصرف البنكية.. تشتري منها تذكرة المترو بدولارين، وتضع لها الدولارين من فجوتها الصغيرة لتلتهمهما الألة في شغف، ثم تعطيك التذكرة.. الأمر أبطأ كثيرا منه في حالة وجود موظف يأخذ منك الجنيه ويعطيك التذكرة كما هو الحال في القاهرة.. بس الميزة هنا هو لو إنت مكنش معاك فكـــة مـــش هـــستنى كتير.. الماكينة دائما معاها فكة!

وأخيرا المترو.. لا بد أولا أن تميز أنه القطار R وليس W..
نفس النفق يمر فيه أكثر من خط مترو ينقلك لأماكن مختلفة من المدينة.. انتظرنا قليلا نتأمل ذلك الرجل الذي يعزف لحنا غريبا على آلة موسيقية لا أعرفها.. جالسا علـــى مقعـــد الانتظـــار وجواره قبعة يضع له فيها رواد المترو بعض العملات المعدنية.. نوع حضاري من التسول لا تطارده الشرطة ولا يشمئز منـــه المارة!

لم يكن قطار المترو مزدحما، واستطعنا أن نجلس بـــسهولة..
لم نجد خريطة لمحطات المترو كما هو في حال في مترو القاهرة.. فقط شاشة كبيرة تكتب فوقها اسم المحطة، وصوت الـــسائق يذكر اسم المحطة في كل مرة.. من جديد نقابل رجـــلا آخـــر يقف في منتصف العربة يعزف بعضا من الموسيقى الكلاسيكية الغربية على آلته، ثم يرفع قبعته ويقلبها ويمر على الجالـــسين في العربة منتظرا منك أن تظهر إعجابك بموسيقاه وتمنحـــه ربـــع دولار أو حتى سنتا.. نوع آخر من التـــسول علـــى الطريقـــة النيويوركية!

في محطة سيتي هول نزلنا..حينما خرجنا إلى الشارع كـــان الليل قد أرخى ستائره فوق المدينة التي لا تنام، فبدأت الأنـــوار تنتشر أمامنا، وجاء الهواء باردا منعشا فيما هدأ الزحام كثيرا.. كيف نصل الآن إلى هدفنا؟.. نسأل طبعا!

مرشدنا هذه المرة كان شابا أسود زنجيا تطوع أن يأخذنا في طريقه.. عرف أننا من مصر، فقال إنه من كـــوت ديفـــوار.. وأمريكا هي بلد كل الجنسيات.. كنا في الثاني مـــن فبرايـــر

وكانت بطولة الأمم الأفريقية في ذروتها.. أخبرنا أنــه يتـابع المباريات في مقهى في بروكلين -ونادرا ما تجد هذه المباريـات مذاعة في الأماكن العامة هنا- ودعانا للحضور لمشاهدتها معه.. ثم توعّدنا بالويل إذا لاقت بلاده مصر مرة أخرى.. بعد يومين هزمت كوت ديفوار غينيا بخماسية نظيفة، وهزمــت مـصر بدورها أنجولا بهدفين مقابل هدف، والتقت مـصر وكـوت ديفوار في مباراة قبل النهائي.. و اكتسحناهم ٤ - ١ في مباراة تاريخية!

وبعد لحظات تركنا الكوت ديفواري أمام مركز التجـارة العالمي.. جروند زيرو كما يسميه الأمريكيون أو الورلد تريـد سنتر كما كان يعرفه العالم أجمع، أو ليبرتي تور -برج الحرية- كما سيعرفه العالم بعد أعوام.

لم يكن هنالك شيء سوى الفراغ..هنـا كانـت أطـول ناطحات السحاب في نيويورك -مائة وعشر طابقـا بارتفـاع ٥٢٧ مترا- هنا كان مركز التجارة العالمي الـشهير.. وهنـا وقعت أشهر عملية إرهابية في التاريخ.. ومن هنا بدأ التـاريخ أولى صفحات الحرب الشهيرة على الإرهاب.. من هنا بــدأت كل سيناريوهات الحرب على أفغانستان والعراق.. مــن هنـا فقــدت أمريكـا كرامتــها، ومــن هنـا تغــير العــالم.

ثم سور ضخم يحيط بالمنطقة التي كان البرجان يحتلانهـا يومـا ما.. من وراء السور تبدو آلات البناء عاكفــة علــى العمــل

بنشاط وحماس كبيرين.. إنهم يعيدون البناء من جديد.. من بين الأسلاك المعدنية للسور المحيط يمكنك أن ترى آلات البناء العملاقة والعمال.. يمكنك أن تقف وتلتقط الصور.. الكثير من الصور..

لم تكن تلك الزيارة الليلية كافية لمن في مثل فضولي.. كنت بحاجة لأن أتأمل المنطقة من جديد.. وبعد أربعة أشهر جئت وحدي كي أرى المنطقة في ضوء النهار..

على بعد خطوات من مركز التجارة العالمي يقع متحفه التذكاري.. في مبنى مقابل يقع المتحف الصغير جدا الذي يبدو أن السلطات الأمريكية تمكنت بصعوبة من إيجاد مكان لمتحف في هذه المنطقة الحيوية من المدينة.. التذكرة عشرة دولارات.. لا مانع أبدا من اصطحاب الكاميرا الخاصة بك.. والآن خذ نفسا عميقا وادخل معنا لتتذكر الجرح العميق الذي لن يلتئم أبدا في جسد العم سام.

في المدخل الضيق يقابلك نموذجان أبيضان لبرجي مركز التجارة.. تجد نفسك واقفا على أرضية رسمت عليها أسماء الشوارع التي تحيط بمركز التجارة مثل شارع الحرية وشارع الكنيسة.. خلف البرجين خلفية رائعة لمدينة نيويورك كما كانت تبدو خلف برجي التجارة.. وأمامك شاشة كبيرة تذيع فيلما تسجيليا قصيرا عن مأساة الحادي عشر من سبتمبر.. تبدأ بقصة البرجين.. منذ قرر الأمريكان بناءهما ليكونا تحفة معمارية

ليس لها مثيل يصنعان بها رمزا حضاريا لأمريكا، يقف جنبا إلى جنب مع تمثال الحرية والإمبيرستيت.. ويمضي الفيلم واصفا ساعات العمل في مركز التجارة.. متجولا بك بين طوابقه.. بين شهادات الناجين.. بين ذكرياتهم في العمل.. يحكي لك الاختلاف الشديد بين ماهية العاملين فيه من مختلف الجنسيات والأديان والأعراق.. ينقلك إلى أجمل الذكريات في حياة هؤلاء العشاق الذين عاشوا أجمل لقاءاتهم العاطفية في ذلك المطعم الساحر في قمة البرجين.. يقدم لك قصة طفل كانت أمه تنصحه بالاسترشاد بالمبنى الهائل حتى لا يضل طريقه أثناء عودته من مدرسته إلى منزله.. حينما سقط البرجان احتارت الأم.. هل سيضل ابنها طريقه بعدها؟

وفي قاعة أخرى قائمة عملاقة بأسماء الضحايا.. وقائمة أخرى بأسماء رجال الإنقاذ الذين ضحوا بحياتهم يوم الحادي عشر من سبتمبر.. وعلى حائط أبيض آخر مئات الصور.. صور الضحايا.. أقاربهم.. صورهم مع أهاليهم.. مع أبنائهم.. يبدو المشهد مؤثرا جدا فقط لو تخيلت أن كل هؤلاء الذين تراهم يبتسمون ويضحكون أمامك في الصور قد لقوا مصرعهم جميعا معا مع انهيار البرجين.

في الطابق تحت الأرضي -المتحف صغير كما قلنا- تتاح لك الفرصة كي تكتب شيئا تعزي فيه الضحايا، وتطّلع على ما كتبه الآخرون.. ترى رسومات الأطفال وعزاءهم.. ترى كلمة السلام قد خطت وسط رسوماتهم.. كلمة سلام باللغة العربية

قد وضعت جنبا إلى جنب إلى مثيلتها الإنجليزية.. الشيء المهم هنا والذي أثار إعجابي بشدة أن المتحف لم يذكر حرفا عن المتهمين بارتكاب الأحداث الإرهابية.. لم يضع صورة "أسامة بن لادن" أو "الظواهري"، ولم يدن الإسلام في شيء.. فقط اكتفت الرسومات كلها بالدعوة للسلام..

في النهاية أمسكْتُ بالقلم وتوجهتُ لصندوق المساهمات التي يتركها زوار المتحف -والتي قد تحظى بفرصة العرض فيما بعد.. التقطت ورقة وكتبت بالعربية والإنجليزية: **[الإسلام هو السلام]**.. ثم ثنيتها وألقيتها في الصندوق لعلها تحظى بفرصة العرض يوما ما.. ربما..

٤
Halal food

كنا نتضور جوعا بينما الساعة تقترب من السابعة مساء موعدنا مع الحافلة.. ركضت مع صديقي من مخرج محطة المترو محاولين الوصول إلى المكان الذي وقفت فيه الحافلة صباحا..هنا رأيت تلك العربة الصغيرة متوقفة على جانب الطريق في قلب الشارع الرئيسي القريب جدا من ميدان التايمز في قلب مانهاتن.. خلف العربة وقفت امرأة محجبة يبدو أنها طبعا مسلمة..اتجهت أنا وصديقي نحو العربة نرى ماذا تبيع..

ويبدو أنني تبادلت مع صديقي عبارة أو اثنتين بالعربية فإذا بالمرأة تنظر لنا بإمعان ثم تصيح مبتسمة: إزيكم؟..هكذا بلهجة مصرية خالصة..تهللت أساريري على الفور وسألتها: أنتِ مصرية؟..أجابت: من شبرا.. بقالي هنا خمس سنين!

كانت تبيع دجاجا وكبدة على العربة..كنت مبهورا لأنها المرة الأولى التي أرى فيها عربة لحم حلال تجوب شوارع أكبر مدينة في العالم هكذا بكل بساطة..كنا في الشارع الثاني والأربعين ، وكان المارة يقبلون على العربة ويطلبون شطيرة دجاج أو سندوتش هوت دوج.. لا تنس أن المطاعم في نيويورك باهظة الثمن.. عربات الطعام هي الأرخص ويلجأ لها معظم قاطني المدينة..

راحت المرأة تتحدث إلينا بشغف وسط تلبيتـــها لطلبــات المارة الأمريكان..كانت تبدو متحمسة جدا، وهي تسأل مــن يتوقفون أمام عربتها: أي خدمة يا سيدي؟..ثم تلتفت لزبـــون آخر وتطلب منه تسعة دولارات ثمنا لسندوتش الكبـــاب..ثم التفتت تجاهي أنا وصديقي وقالت: أنتم وش السعد عليّ..من الصبح بلف وأول ما شفتكم الزباين كتروا كده!

ويظهر أننا كنا وش السعد فعلا..فجأة أقبلت سيارة شرطة ضخمة وتوقفت إلى جوار الرصيف مباشرة..من نافذة السيارة طل وجه شرطية أمريكية تبتسم في شراسة وهي ترمق العربـــة الصغيرة..هنا أصيبت المرأة بالذعر، وراحت تصيح وهي تلملم أشياءها وتبدأ في دفع العربة: استر يا رب..استر يا رب..

والحمد لله مرّ الموقف بسلام بعد أن استطاعت المرأة الهرب بعربتها إلى شارع جانبي، وواصلت سيارة الـــشرطة طريقهـــا بسلام..تنهدت المرأة حامدة الله، والتفتت إلينا من جديد. هنا فوجئنا بأمريكي أشقر يحمل كاميرا من طراز المحترفين، وينقض بلا حياء على العربة بادئا التصوير.. نظرت له المرأة وقالــت: وده جه منين ده.. هو أنا ناقصاه كمان؟.. هنا ســألها الفــتى بحماس وهو يواصل التقاط الصور بكل قلة الـــذوق اللـــي في الــــــدنيا: مــــــا هــــــذا الـــــــذي تبيعينــــــــه؟.. وأخيرا تركتها أنا وصديقي وانطلقنا نركض أمام الـــسيارات كالعادة خارقين إشارة المرور للحاق بالحافلة..إنهـــا الـــسابعة مساء!

وعربات اللحم الحلال تقابلها أينما ذهبت في نيويورك..ومعها تقابل عربا وهنودا وباكستانيين وأجناسا أخرى.. لا تعتقد أن كونها تحمل اسم "لحم حلال" أنها تقتصر على المسلمين الباحثين عن دجاج ذبح وفقا للشريعة الإسلامية فحسب..كلا بالطبع.. مثل هذه العربات ملجأ كل جائع يبحث عن طعام زهيد الثمن نسبيا مقارنة بأسعار المطاعم..وقائمة الطعام لا تقتصر أبدا على اللحم الحلال بل عادة ما تقدم أنواعا مختلفة من الطعام، ودائما تحتوي على فلافل بما أنها أشهر ما يأكله سكان الشرق الأوسط ويعرفه الأمريكان..والفلافل هنا بالدولار وليست رخيصة جدا كما قد تتصور، فلا يقل ثمن سندوتش الفلافل عن ثلاثة دولارات..والفلافل أيضا طعمها مختلف..

عادة ما تتخذ هذه العربات أماكن ثابتة في ركن جانبي من تقاطعات الطرق.. وأحيانا تجدها على جانب شارع رئيسي..في السيكند أفينيو على بعد خطوات من مبنى الأمم المتحدة في منطقة حيوية تمتلئ بالسفارات الأجنبية عادة ما تقف عربة لحم حلال ضخمة خط عليها بحروف كبيرة "بسم الله الرحمن الرحيم" بالعربية ثم كلمتي لحم حلال بالإنجليزية.. وقائمة الطعام مطبوعة على جدران العربة وكلها لا تزيد عن خمسة دولارات..إلى جوار اللحم الحلال لا بد من الفلافل..أرز بفلافل..فلافل باللحم..فلافل بأي حاجة والسعر خمسة دولارات..الفلافل هنا -كما قلت مسبقا- باهظة الثمن حقا!

ولا عجب أن تجد من يعمل في هذه العربات عرب أو مصريون..ولكل مصري قصة..وكل قصة تبدأ في مصر وتنتهي

هنا في شوارع نيويورك..والظروف وحدها قد تسهل لك سماع حكايته وأن تقف تدردش معه قليلا..أمام محطة القطار بينستيشن الشهيرة قابلت مصريا اشتريت منه سندوتش فلافل فحسب بثلاثة دولارات –قال إنه أكرمني لأنني مصري مثله..كان من كفر الشيخ و لم يتحدث معي كثيرا.

في مرة أخرى سمعت الواقف على عربة لحم حلال في شارع جانبي قرب ميدان التايمز يسمع أغان ظننت أنها عربية..كانت ليلة من ليالي مايو، ورغم ذلك كانت السماء تمطر بشدة..اقتربت أكثر فميزت صوت المطرب محمد حماقي..اقتربت أكثر فأكثر لأتبين شابا يحمل ملامح عربية في العشرينيات يقف يبيع الفلافل للمارة..اتجهت إليه وطلبت بحذر – بإنجليزية أصررت أن تحمل لكنة مصرية – سندوتش فلافل..نظر لي بإمعان وسألني بالمصرية: وحشاك الفلافل؟..وتحول الحديث إلى العربية..قال إنه من كفر الدوار. أصلا من كفر الدوار..خريج سياحة وفنادق، لكن حلمه الدائم كان كلية صيدلة..نصف درجة فحسب نقلته من الصيدلة إلى الفندقة..حصل على شهادته وقضى عامين عاطلا ثم قرر ذات ليلة كان جالسا فيها مع أصدقائه في السايبر أن يقدم للحصول على الجرين كارد – البطاقات الخضراء للهجرة لأمريكا..ملأ الاستمارة على الإنترنت ونسي الأمر..بعد أشهر كانت معه الجرين كارد وتذكرة السفر لأمريكا وأوراق يبدأ بها حياة جديدة في أرض الفرص..ودع أهله منذ ثلاث سنوات وجاء لنيويورك ليكتب شهادة ميلاد جديدة له..

وتوقف الفتى ليناولني واحدة من أقراص الفلافل التي طهاها توا..سألني عن رأيي فقلت حلوة بس بتاعة مصر أحلى..قال

طبعا..هم هنا يبتاعون هذه الأقراص جاهزة من محلات السوبر ماركت الكبرى في كوينز أو بروكلين حيث تتواجد الأطعمة العربية ثم يقلونها فحسب..وسألني عما أفعله هنا فقلت الدراسة..عرض علي أن يقدم لي فرصة عمل، فشكرته..

هنا شرد الفتى للحظات وقدم لي خبرته..في مصر مهما اشتغلت مش هتعمل حاجة وهتاخد على دماغك..هنا بتتعب وتشتغل وتجيب فلوس كويسة..وأهم حاجة هنا بتشتغل بكرامتك!

للأسف هذا ليس رأيه وحده..هذا رأي آلاف المصريين المغتربين في أمريكا..وملايين غيرهم مغتربين حول العالم..وملايين أخرون تمتلئ بهم قرى مصر وأقاليمها ومدنها يلهثون خلف جرين كارد أو تأشيرة هجرة لكندا أو حتى تأشيرة عمل بدولة عربية..

وبدأ الفتى يعد لي شطيرة الفلافل واضعا الصوص والزيتون الأسود والخضار عليها كما يعدها لزبائنه الأمريكان..سألني عن رأيي في الحياة في أمريكا..قلت كويسة.. انطلق ليعدد مزايا الحياة هنا..واخدين حقنا زي أي حد تاني..معايا جرين كارد وقاعد هنا بقالي تلات سنين..كمان سنتين هاخد الجنسية وأبقى زيي زي أي أمريكاني هنا.

وناولني شطيرة الفلافل فأنقدته ورقة بخمسة دولارات..رفض في البداية لأنني مصري مثله لكنني أصررت..أخذ ثلاثة دولارات وقال لي قبل أن أتركه: أنا هنا كل ليلة من سبعة بالليل لسبعة الصبح..لو احتجت حاجة ابقى

عدي عليا..وخلي بالك من نفسك يا عم...إنـــت قلـــت لي اسمك إيه؟

وتركته وحده وسط الأمطار لأواصل طريقي تجاه الفندق، وأنا أسترجع كل كلمة سمعتها منه محاولا تفهم هـــذا الحلـــم الجميل الذي يعيشه مئات الآلاف في مصر يقدمون للحـــصول على الجرين كارد سنويا.. تصور هذا..جرين كارد وتـــذكرة سفر وأوراق تكتب بها شـــهادة مـــيلاد جديـــدة في أرض الأحلام..تمضي خمس سنوات بالطول أو بـــالعرض ثم تـــصير أمريكيا بصفة رسمية بعد أن تحصل على الجنسية..وحينها تكون قد صرت أمريكيا من أصل مصري..الجنسية أمريكي والأصل مصري.. فقط الأصل!

٥

الطريق إلى تمثال الحرية!

اسمها سيركل لاين أو خط الدائرة.. ربما سموها كذلك لأنها تأخذك في جولة عبر نهر هدسون والنهر الشرقي طول ما يقرب من الثلاث ساعات؛ لتدور حول جزيرة مانهاتن دورة كاملة ترى فيها نيويورك من النهر.. المركب -أو الكروز بالإنجليزية- طابقان نصفها مكيف ومغلق، والنصف الآخر مفتوح تماما لا يحجبك عن النهر فيه سوى السور.. والفارق بين النصفين ليس مجرد فارق في السعر، لكنه الفارق بين أن تتفرج على نيويورك وأنت تكاد تتجمد من البرد لمدة ثلاث ساعات بلا توقف، وبين أن تجلس مسترخيا على مقعدك تنصت للتعليق الصوتي، وتلتقط الصور بهدوء مبديا ضجرك من هذا الدفء المبالغ فيه!

ورغم ذلك راق لنا النصف المفتوح.. أما البرد فلعل معاطفنا الثقيلة تقينا شره.. الأهم هو أن تقف في مواجهة النهر ومانهاتن مباشرة.. تلتقط الصور بلا حاجز.. تتأمل المدينة مباشرة لا من خلال الزجاج السميك.. تتحرك بحرية لا تظل أسير مقعدك دائما.. وأخذت صديقي وانفصلنا عن المجموعة واتجهنا إلى مؤخرة المركب لنندمج وسط السياح ونتأمل معهم مانهاتن من النهر.. عشرات من ناطحات السحاب لا أميز بينها

سوى الأعلى والأشهر الإمبيرستيت طبعا الـتي تراهـا أينمـا ذهبت.. نسمع المعلق يحكي لنا قصة الإمبيرستيت.. بعد قليـل نسمع منه قصة برجي مركز التجارة العالمي، بينما المركب تعبر بنا جنوب مانهاتن في المكان الذي اعتاد فيه المعلق أن يلفت نظر السياح إلى البرجين التوأم.. اليوم لم يعد هنالك برجـان، و لم يعد في جعبة المعلق سوى أن يستعيد معنا بعـض الـذكريات المؤلمة.

...

بعد دقائق بدا تمثال السيدة صغيرا في الأفق، فتأهب الجميع لرؤيته وتصويره.. المركب يقترب ببطء منه.. صوت المعلـق يتحدث بحماس عن رمز الحرية في كـل مكـان.. الـسياح يزدادون حماسا ويحملون كاميراتهم ويلتقطون عشرات الصور.. وأنا وصديقي نلتقط الصور بدورنا.. ببطء نقترب من جزيـرة الحرية.. نملأ أعيننا بها.. نملأ ذاكرة كاميراتنا بصوره..

وبعد دقائق أخرى دارت المركب وواصلت رحلتها حـول مانهاتن.. تعبر بنا تحت جسر مانهاتن.. تحت جـسر كـويتز.. تحت جسر بروكلين.. وكلها جسور تصل جزيرة مانهاتن بباقي أحياء نيويورك..

والمعلق يواصل الحديث بحماس عن نهر هدسون هذه المرة.. يفخر بأن مياه النهر نقية لدرجة أنه ينصح بـأن تمـد يـديك مباشرة إلى مياه النهر وتشرب بعضا منها، فهذا أكثر أمانا من ماء الحنفية.. ربما تبدو عبارته نوعا من الدعاية الفجة، لكـن

الكل -في نيويورك على الأقل- يشرب من ماء الحنفية ما دامت تحمل فلترا بلا أدنى قلق..

***

تمثال الحرية يفتح أبوابه للزوار في أبريل عادة، ويستمر مفتوحا طول الصيف..

في ذلك اليوم معتدل الطقس من مايو قررت أن أخوض المغامرة وحدي وأذهب إلى تمثال الحرية على أمل أن أظفر بفرصة الوصول إلى جزيرته والصعود إلى قمة التمثال كما فعل أصدقائي قبل شهر.. وكل مغامرة تبدأ بالنسبة لي بخريطة.. أتمعن في تقسيمات مانهاتن على الخريطة، وأحدد موقع تمثال الحرية في أقصى الجنوب.. ولأن الخريطة لا تقدم كل شيء، فلابد أن تستعين بأحد المارة.. ومعظم المارة ودودون يرحبون بالسؤال لكن كثيرا منهم لا يقدم الإجابة الصحيحة.. المشكلة أن منهم نيويوركيون أصليون يقطنون هذه المدينة منذ أمد طويل، لكن بعضهم لا يعرف السبيل الأمثل للوصول إلى تمثال الحرية..

في أوقات كهذه أشعر بإحساس ذلك السائح الألماني الذي أوقفني ذات مرة في ميدان التحرير ليسألني عن كيفية الوصول إلى أهرامات الجيزة.. الحل الأمثل كان أن يوقف تاكسيا ويطلب منه أن يوصله إلى الأهرامات، لكن السائح لا يريد تاكسيا..هو بحاجة لأن يخوض مغامرة استخدام المواصلات

العامة حتى يصل إلى مبتغاه.. وترددت كثيرا في الإجابة عليه..أية محطة مترو أقرب إلى الأهرام..هل هي الجيزة أم فيصل؟.. ثم ماذا يفعل عندما يخرج من محطة المترو؟.. لم أكن أعلم إجابة هذه الأسئلة..

في وسط الشارع الثاني والأربعين وقفت أسأل المارة، حتى اتفق اثنان على ضرورة أن أستقل القطار A من محطة المترو، وهو سوف يأخذني مباشرة إلى جنوب مانهاتن حيث تنطلق المراكب إلى جزيرة تمثال الحرية مباشرة.. بداية موفقة بلا شك.. اتجهت إلى محطة ميدان التايمز وتأكدت من بائع التذاكر واشتريت تذكرة ذهاب وعودة- بأربعة دولارات بالمناسبة، شوف المترو غالي إزاي؟.. وتوقفت أمام ماكينة العبور للمترو؛ لأنني نسيت كيف توضع التذكرة بشكل صحيح، وبالتالي رفضتها الماكينة.. فوجئت خلفي بمن يحدثني العربية.. أهلاً وسهلا..ها هو ذا منقذ عربي آخر يظهر في الوقت المناسب كالعادة.. ساعدني على العبور بالتذكرة " اسحب التذكرة بسرعة"، وقال إنه تعرف لهجتي أثناء حديثي مع بائع التذاكر.. قال إنه مغربي، فقلت إنني مصري.. سألته عن الاتجاه الصحيح للوصول لتمثال الحرية، فقال إنه سيأخذني إليه.. شكرا جزيلا..أثناء الطريق أجيب على أسئلته، وأؤكد أنني طالب جامعي أدرس هذا التيرم هنا.. وبعد دقيقة تركني أمام القطار R وقال لي أن أركبه، ونصحني بالنزول في محطة سيتي هول، ثم تركني..أولا أنا أعرف أن سيتي هول ليست في جنوب مانهاتن

تماما، ناهيك عن أن الآراء أجمعت على أن القطار الصحيح هو A وليس R!!

من جديد أعود أدراجي إلى حيث يمر القطار A.. ألمح أمريكيا يسأل ضابط شرطة عن القطار المناسب للوصول إلى تمثال الحرية، فأتنصت السمع لعلي أظفر بالإجابة الصحيحة.. الضابط النبيه يقول إن القطار الصحيح هو A لكن A لن يكمل خطه اليوم؛ لأن ثمة إصلاحات ما.. والحل؟.. الحل هو أن تستقل القطار C وتنزل في محطة ما لتأخذ الحافلة لتوصلك بكل سهولة إلى جنوب مانهاتن حيث تنطلق المراكب إلى تمثال الحرية.. هنا وقد زاد الأمر تعقيدا قررت أن أتابع الأمريكي طول الوقت وأنزل خلفه!

بعد نصف ساعة أخرى كنت في أقصى الجنوب من مانهاتن.. ها هو ذا تمثال الحرية من جديد لا يفصلني عنه سوى نهر هدسون.. نظرة واحدة إلى صف المنتظرين لأخذ المركب إلى جزيرة التمثال تجعلك تلغي أية نية لزيارته اليوم.. الصف يمتد إلى ما لا نهاية، وقد احتشد بالمئات –بلا أدنى مبالغة– من السياح، والمشكلة أن الكل واقف في حماس ينتظر دوره رغم أن أمامه ما لا يقل عن ثلاث أو أربع أو خمس –لا أدري!– ساعات على الأقل.. والمركب يواصل مهمته يأخذ السياح من مانهاتن إلى التمثال ومن التمثال إلى مانهاتن.. طبعا كنت قد نسيت أمر زيارة تمثال الحرية تماما..تكفيني رؤيته من بعيد!

وبدأت أتجول في المنطقة..الباعة هنا وهناك يبيعون كل ما يمت بصلة لتمثال الحرية ومدينتهم الشهيرة..تماثيل حرية صغيرة..نماذج للإمبيرستيت..صور لمانهاتن وكلها تحمل برجي مركز التجارة العالمي، وكأن البرجين لم يختفيا منذ أكثر من سبعة أعوام..هؤلاء القوم مصرون على تخليد صورة نيويورك كما يعرفها السياح الذين حفظوا منظرها ببرجيها التوأم كما اعتادوا رؤيتها في مسلسل "الأصدقاء" الأمريكي فائق الشهرة.. وثم رجل واقف بملابس تمثال الحرية يمكنك التقاط الصور معه مقابل خمسة دولارات!

ووسط كل هذا تجد نصبا تذكارياً كروي الشكل يلتقط الناس الصور أمامه.. تقترب منه وتقرأ اللافتة التي كتب فوقها ماهية هذا الشيء.. اسمه **The Sphere** .. أما عن السبب الذي يجعله مهما جدا فهو أن هذا الشيء ظل صامدا في ساحة برجي مركز التجارة العالمي لثلاثة عقود متتالية كنموذج للسلام العالمي، حتى جاء الحادي عشر من سبتمبر واختفى البرجان، وبقي النصب التذكاري كما هو.. في ١١ مارس ٢٠٠٢ نقل النصب التذكاري إلى هذا المكان في مواجهة تمثال الحرية ليكون تذكارا مؤقتا لكل ضحايا أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

و إلى الجوار أيضًا تجد نصبا تذكارياً ضخما هذه المرة لضحايا الجيش الأمريكي خلال الحرب العالمية الثانية.. ستة جدران هائلة الحجم حفرت فوقها أسماء آلاف الجنود

الأمريكان الذين فقدوا حياتهم يوما ما دفاعا عن وطنهم.. فيما بعد رأيت في واشنطن نصبا تذكاريا أجمل كثيرا للحرب العالمية الثانية، وإن كانت جدرانه مقسمة لتحمل أسمـــاء الولايـــات الأمريكية الخمسين، وليست أسماء الجنود القتلى!

٦

ليالى نيويورك

الليل في نيويورك يختلف..عندما يحل الظلام على المدينة التي لا تنام تصحو الأضواء المجنونة..يتحـول ميـدان التـايمز إلى مهرجان هائل من الألوان..تتحول الإعلانـات الـضخمة إلى لوحة ألوان حمراء تنافس غيرها على لفت الأنظار.. وشـريط الأخبار تراه دائما هناك يمر على لافتة إعلانات ضخمة مقـدما للمارة آخر الأخبار نقلا عن إحـدى المحطـات التليفزيونيـة الأمريكية..وهذه المنطقة في وسط مانهاتن لا تهدأ أبدا..هذا هو قلب نيويورك.

والمتسولون دائما هناك..بعضهم يجلس أرضا على الرصيف دون أن يفعل أي شيء منتظرا عطف المارة، والبعض الآخـر يضع لافتة كـبيرة يلخـص فيهـا قـصته.."مـن فـضلك ساعدني..ليس لدي مال"!..هكذا بكـل بـساطة.."سـاعد أطفالي".."طردوني من عملي..من فضلك أعطـني مـالا"!.. والتسول مهنة في نيويورك مثله مثـل أيـة مهنـة أخـرى.. والمتسولون يكسبون..ولا أعرف إن كانت الشرطة تطـاردهم أم لا، لكنك تراهم في الشوارع والميادين الكـبرى..وتـرى

المثقفين منهم في قطارات المترو يعزفون الموسيقى ويطلبون ثمنا لما أرغموك على سماعهم من فنهم الرفيع.. ليس كل الأمريكيين أثرياء إذن كما يظن البعض..الفقر موجود في كل مكان، وأينما وجد الغنى الفاحش وجد أيضا الفقر المدقع..

والعشاق أيضا دائما هناك..قد تتوقف تنتظر إشارة المرور حتى تعبر الشارع مع عشرات المارة، فتلمح عيناك اثنين قررا أن يستغلا تلك اللحظات الزهيدة كي يخطفا قبلة فرنسية حارة..طبعا لا أحد يبالي ولا أحد يقف يتأمل هذا الفعل الفاضح في الطريق العام..كل هذا عادي وطبيعي ويحدث في كل مكان. يمكنك أن تعبر عن حبك لرفيقتك أينما كنت..الشيء الذي قد يسترعي بعض الانتباه هو إذا عبر أحدهم عن حبه لآخر من نفس جنسه..طبعا هذا حقه الكامل -في أمريكا- لكنه يلفت الانتباه..والقاعدة الذهبية لنا نحن العرب أن ننسى تماما ما تعلمناه في بلادنا من تحية بعضنا لبعض بالأحضان والتقبيل..هذه التحيات تفهم هنا بشكل مختلف تماما..المصافحة فحسب هي اسم اللعبة!

وفي الليل يمتلأ برودواي بالزوار الذين جاءوا لحضور العروض فائقة الشهرة على مسارح برودواي..التذاكر باهظة الثمن لكن الإقبال أيضا كبير..ولابد أن تحجز مسبقا طبعا..أنت بصدد مشاهدة عرض مسرحي يشد له السياح الرحال من كل أنحاء العالم!

وسنترال بارك أيضا لا تنام ولا تغلـــق أبوابهـــا..الحديقـــة الضخمة التي تتوسط المدينة -لهذا سموها سنترال بارك- وتمتـــد كثيرا في قلبها وتصبح...مأوى للمشردين ليلا..العقلاء طبعا لا يخاطرون بحياتهم ولا يقربون ســـنترال بـــارك بعـــد حلـــول الظلام..ورغم شهرة الحديقة جدا، فإنها مجرد حديقـــة جميلـــة ممتلئة بالأشجار..تسير داخلها فتجد نفسك قد انعزلـــت عـــن نيويورك تماما.. لم تعد ترى ناطحات السحاب و لم تعد تـــسمع ضوضاء السيارات..صرت محاصرا بالأشجار والبحيرات مـــن حولك..تسير وتسير لكن الحديقة أكبر من أن تأخذها مشيا..

وبعض المتاجر لا تغلق أبوابها..يمكنك أن تسير وتتسوق في أكبر متاجر المدينة وأصغرها..ولا تنس أن تمر على مدينة الصين China Town لترى كيف يقلد الصينيون كـــل صـــغيرة وكبيرة ويبيعونها بأسواق زهيدة في قلـــب مانهـــاتن..وســـوق الصينيين مجرد شارع طويل يكتظ بعربات الباعـــة والبـــضائع الصينية المقلدة..الشيء المختلف هنا أن بوســـعك أن تفـــاوض البائع وتتجادل معه في السعر على عكس أي مكان آخر.. وإذا قررت التسوق في نيويورك، فلا تنس أن تبتاع عددا من تلـــك التشيرتات البيضاء الشهيرة التي تحمل قلبا أحمر وعبـــارة "أنـــا أحب نيويورك"، فهي أكثر ما يبتاعه السياح تذكارا لزيـــارتهم لنيويورك!

وكل ما سمعته عن مخاطر السير في شوارع نيويورك والتثبيت و"طلع الفلوس اللي معاك" صار مجرد ذكرى لسكان المدينـــة..

يقولون إن الحالة الأمنية قد صارت جيدة جدا في نيويورك..لكن هذا لا يعني طبعا أن تخاطر وتسلك شارعا مظلما مكفهرا ليلا أو أن تقرر قضاء ليلتك تجوب شوارع حي هارلم مثلا!

نصيحتي الأخيرة لك إذا قررت أن ترى هذه المدينة ليلا لا تنس أن تمشي فوق جسر بروكلين الشهير، وتقف في منتصفه تماما في الطريق ما بين مانهاتن وبروكلين لتلقي نظرة واسعة على المدينة التي لا تنام ولا حتى تتثاءب..استنشق الهواء العليل واطلب من أحد عابري السبيل أن يلتقط لك صورة يجتمع في خلفيتها مبنى الإمبيرستيت وتمثال الحرية وناطحات السحاب شاهقة الارتفاع..ولا تنس أيضا أن تبتسم، فأنت في نيويورك!

***

أجبرتني الظروف ذات مرة على قضاء الليل وحيدا أجوب شوارع مانهاتن..

كنت قد انتهيت من رحلتي في العاصمة واشنطن..تأخرت كثيرا هناك حتى إنني استقللت الحافلة العائدة إلى نيويورك في الثامنة مساء..والمسافة بين المدينتين أربع ساعات بالسيارة..المشكلة أن آخر حافلة تغادر نيويورك إلى نيوبولتز – هدفي– في الحادية عشرة والنصف مساء..أنا بحاجة إلى معجزة كي ألحق بهذه الحافلة الأخيرة!

وطبعا لم تتحقق المعجزة..وصلت محطة بورت أوثـرتي في الثانية عشرة صباحا..بالمناسبة بورت أوثرتي هي محطة أتوبيس عملاقة تقع في قلب الشارع الثاني والأربعين، وتمتـد ثلاثـة طوابق تحت الأرض..طبعا كانت الحافلة الراحلة إلى نيوبولتز قد ولت الأدبار، وأخبرني موظف الاستعلامات أن الحافلة التاليـة ستغادر في السابعة صباحا..بعد سبع ساعات من الآن!

للوهلة الأولى خطر في بالي أن أتصل بصديقي المصري الذي يقطن في بروكلين، ونعده حلالا لكل أنواع المشاكل التي قـد تواجهنا ههنا..هو يحيا هنا منذ أربع سنوات، لهذا يملك خبرة لا ندخر نحن جهدا لاستغلالها خير استغلال..لكن السؤال التـالي كيف يمكنه أن يساعدني؟..من الصعب أن أطلب قضاء الليلـة عنده، ومن قلة الذوق أن أطلب أن يخرج معي لقضاء الليل معا نتسكع في شوارع نيويورك حتى الصباح..والحل؟

حسنا أيها السادة..هذه فرصة مثالية لرؤية نيويورك ما بعد منتصف الليل..أنا في قلب المدينة..والساعة تجـاوزت الثانيـة عشرة مساء..وأمامي سبع ساعات أستكشف فيها المدينـة في هذه الفترة الحرجة من الليل..إنها مغامرة جديدة إذن!

صعدت درجات السلم أبحث عن مخرج بورت أوثرتي..إلى الشارع الثاني والأربعين خرجت لأكتشف أن الأمر ليس بهذه السهولة لأن الطقس بارد بالخارج..أمشي قليلا في الشارع..ثم شيء ما غريب..ما هذا الزحام؟

إنه ليل الجمعة..العطلة الأسبوعية غدا، وكل مراهق أمريكي سليم نفسيا يخرج للهو ليل الجمعة وكثيرون يقضون الليل حتى الفجر في البارات يشربون ويثملون..السبب الثاني أنها الأيـــام التي تسبق عيد القيامة مباشرة..إنه وقت مناسب للمرح إذن!

ولهذا ترى معي الشارع الثاني والأربعـــين مزدحمـــا عـــن آخره..بالسيارات..برجال الشرطة..وبالناس..طابور طويل من المراهقين يتوقف أمام أحد البارات ينتظرون دورهم ليـــدخلوا البار ويشربوا..ومن حولهم رجال الشرطة بهراواتهم..وأصوات سرينات سيارات الشرطة تتعالى من شارع مجاور..

أواصل السير حتى مبنى النيويورك تايمز، وهو بالمناسبة مواجه لأحد مخارج محطة الحافلات بورت أوثرتي..لا بد أن الســـادة الصحفيين في الجريدة العريقة عاكفون الآن على الإعداد لعدد الغد، لأن اليوم ولد توًا منذ دقائق قليلة..أمـــر أمـــام إحـــدى عربات اللحم الحلال، وأرى الرجل الواقف خلفهـــا يمـــسك كتابا في يده ويتمتم قارئا فيه.. يبدو أنه القرآن الكريم.

ثم أصل إلى ميدان التايمز..كثير من الشباب يلهو ويـــصرخ ويملأ ليل نيويورك ضجيجا..ماذا دهـــى هـــؤلاء المجـــانين؟.. ورجال الشرطة محتشدون بكثرة في الأمام..بكثرة لم أشاهدها هنا من قبل..إنها ليلة غير عادية فعلا!

قادتني قدماي إلى مطعم ماكدونالدز..المطعم يبـــدو أقـــل زحاما عما رأيته من قبل في ضوء النهار، لكنه هذا لا يعني أبدا أنه خال..ابتعت قهوة أمريكية وصعدت للطابق الثاني أتأمـــل

القوم الساهرين، وأشاهد الكليبات الصاخبة المذاعة على شاشة كبيرة تسلي الزبائن!

بعد ساعتين كنت قد مللت السير وسط هذه الضوضاء..أعلم أنها وسط المدينة وأنني لو تعمقت قليلا في الشوارع لوجدت الهدوء، لكنني لا أضمن درجة الأمن هناك..أفضل الضوضاء ما دمت محاطا برجال الشرطة في كل صوب.

في النهاية مللت الضوضاء والبرد وعدت أدراجي إلى محطة بورت أوثرتي..تأكد ضابط الشرطة على مدخلها من أن بحوذتي تذكرة، وسمح لي بالدخول..هذا إجراء أمني تكرر معي كثيرا داخل المحطة في تلك الليلة، والسبب أن تتجنب المحطة أن تصير مأوى للمشردين بعد منتصف الليل.

قضيت الليل مع الساهرين في الطابق الثالث تحت الأرض من محطة بورت أوثرتي في منظر ذكرني بمحطة مصر في قلب ميدان رمسيس..جلست على مقعد وجدته خاليا وسط الزحام أتأمل وجوه المسافرين..البعض قد نام والبعض قد استغرق في حديث لا ينتهي مع مرافقه.. والبعض الثالث افترش الأرض واستسلم لنوم أكثر راحة لا يوقظه منه سوى عامل المحطة الذي يأتي من حين لآخر ليتأكد أن بحوذتنا تذاكر السفر.

وفي السادسة والنصف اتخذت طريقي في طابور المسافرين إلى شمال الولاية..وفي السابعة تماما رحلت بنا الحافلة إلى الشمال.. إلى نيوبولتز.

٧

من وول ستريت إلى السفارة المصرية..

زيارة رسمية!

ثم فارق بين ما تراه على شاشة التلفزيون وما تراه بعينيك.. عندما وقفنا نتطلع إلى ساحة بورصة نيويورك في قلب وول ستريت لم نستوعب المنظر بسهولة..خلية نحل لا تتوقف لحظة..مئات من أجهزة الكمبيوتر واللاب توب..عشرات الموظفين ورجال الأعمال..والتداولات المالية تتدفق..أسهم ترتفع وأخرى تنخفض..هنا يحقق بعضهم مكاسب خرافية وهنا أيضا يخسر بعض آخر كل ما لديه..إذا كان الحظ هو اسم اللعبة في صالات القمار في لاس فيجاس، فهنا البيزنس هو كل شيء..وكاميرات المحطات التليفزيونية الكبرى مسلطة طول الوقت مستعدة للبث على الهواء مباشرة في أية لحظة.. محطة سي إن إن قد حجزت لها غرفة خاصة في هذا الطابق العلوي الذي نقف فيه لتلتقط المشهد من علٍ طول الوقت.

كنا في زيارة رسمية أعدها جامعة نيوبولتز بالتعاون مع مكتب الجامعة الأمريكية بالقاهرة في نيويورك..البداية في وول ستريت لنزور أكبر بورصات العالم، وطبعا لا بد من تصريح

مسبق وإجراءات أمنية معقدة تتضمن حمل جوازات سفرنا والمرور من البوابات الإلكترونية والتقاط الصور لنا..لا يمكنك أن تزور البورصة بسهولة إذن! المحطة التالية كانت مع السادة الهامّين جدا.. مأدبة غداء مع مجلس أمناء الجامعة الأمريكية بالقاهرة في نادي هارفرد، تم ترتيبها بالتزامن مع الاجتماعات السنوية لمجلس الأمناء في نيويورك..وفي اجتماع كهذا يمكنك أن تشاهد كل هؤلاء السادة الهامين جدا قد اجتمعوا معا في قاعة صغيرة يشاركونك تناول الغداء وقد نسي الكل بروتوكولات الدبلوماسية.. بين الوجوه أميز السيدة "دينا باول" المصرية الأصل سكرتيرة وزارة الخارجية الأمريكية.. أصافح الكثير منهم وأنا لا أعرف أهميتهم بالضبط لكن يبدو أنهم مهمين جدا..وبعد الغداء نبدأ حديثا شيقا يستمع فيه السادة الأمناء إلينا نحن الطلبة المصريين نحكي فيه عن تجربة الدراسة في أمريكا!

المحطة التالية كانت في مقر بعثة مصر في الأمم المتحدة..السفارة تقع في بداية الشارع الرابع والأربعين على بعد خطوات قليلة من مقر الأمم المتحدة.. المبنى صغير وأنيق يحمل اسم مصر ويتدلى من طابقه الثاني العلم المصري.. تفتح البوابة وتدلف مباشرة إلى المدخل ليقابلك رجل أمن مصري يبتسم لك ويتحدث معك بالعامية المصرية..أهلا بك أخيرا على أرض مصرية في قلب نيويورك - القانون الدولي ينص على أن أرض أية سفارة أجنبية مملوكة لدولة السفارة! وكنت قد زرت السفارة من قبل في واحدة من جولاتي وحيدا

حول مقر الأمم المتحدة..هذه هي المرة الثانية لي هنا..وأنا هذه المرة برفقة رفاقي المصريين والسيدة "بيث" رئيسة مكتب الطلبة الدوليين في جامعة نيوبولتز، ولدينا موعد مسبق للقاء السفير المصري في الأمم المتحدة د."ماجد عبد العزيز" شخصيا..

رحب بنا رجل الأمن ودعانا للجلوس في قاعة الاستقبال الضيقة التي لم تتسع للكل للجلوس..انتظرنا قليلا ثم قادنا أحدهم إلى غرفة الاجتماعات في الطابق الثالث جوار مكتب السفير، وطلب منا الانتظار؛ لأن "سيادة السفير في طريقه"..وعلى مائدة صغيرة مجاورة رأينا أشهى الحلويات المصرية من كنافة وبسبوسة وجلاش أيضا..وطبعا دعونا مسز "بيث" لتجرب حلوياتنا..لم تكن الحلوى شهية جدًّا، لكنها أعجبت مسز "بيث" جدًّا.

انتظرنا قليلا..كانت صورة الرئيس "مبارك" تزين مقدمة غرفة الاجتماعات، فأحسست فعلا أنني على أرض مصرية، حتى كدت أبكي..وأشرت إلى الصورة وقلت لمسز "بيث": هذا هو رئيس الجمهورية..نضع صورته في كل مكان في مصر وفي كل مكاتب الحكومة، مثلما يعلق الأمريكيون العلم الأمريكي في كل مكان في أمريكا..فابتسمت الست الطيبة وقالت: طبعا، نحن نحب علمنا أكثر من "بوش"!

وجاء سيادة السفير وجلسنا حول على مائدة الاجتماعات الطويلة..ودار بيننا حديث سياسي ممتع، طبعا باللغة الإنجليزية اتفاقا مع قواعد اللياقة؛ لأن مسز "بيث" لا تجيد العربية..والسفير واسع الصدر يرحب بأسئلتنا الكثيرة ويعلّمنا قواعد العمل في مقر بعثتنا في الأمم المتحدة..عمله شاق يبدأ في

الصباح الباكر وينتهي مع آخر الليل..بداية من الاطلاع على تقارير الأمم المتحدة والاجتماع بمندوبي مصر وإعطاء تعليماته لهم..ثم مروره على اجتماعات مجالس الجمعية العمومية أو أي مجلس دولي آخر ليتابع نشاط مندوبي مصر هناك.. يملي عليهم تعليماته ويناقشهم فيما فعلوه..يعود من جديد لمقر السفارة ليرسل تقريره اليومي إلى وزارة الخارجية..العمل الدبلوماسي شاق حقا!

يعترف لنا السفير أنه يحب السفر، رغم أن السفر الدبلوماسي مرهق جدًّا.. فمهام السيد السفير قد تتضمن سفرا عاجلا إلى الشرق الأوسط لحضور اجتماع مهم ثم العودة من جديد خلال ساعات معدودة..يحكي لنا عن رحلته الأسبوع الماضي إلى قطر..سافر ثلاث عشرة ساعة؛ ليحضر اجتماعا مدته ساعتين ثم عاد من جديد إلى نيويورك -ثلاث عشرة ساعة طيران أخرى- صباح اليوم التالي..

وكان السفير يستعين أحيانا بـ"عمرو".. و"عمرو" هذا شاب مصري ممتلئ بالحيوية والنشاط يجلس في آخر مائدة الاجتماعات يتابع حديثنا باهتمام، ينتظر إشارة السيد السفير في أي وقت..فإذا سألنا السفير سؤالا سياسيا عن نظام الأمم المتحدة أو عمليات حفظ السلام، يشير السفير لـ"عمرو" في نوع من الاختبار الحي أمامنا..و"عمرو" لا يخيب ظن السيد السفير أبدا، فهو موسوعة سياسية في أنظمة الأمم المتحدة.

عندما خرجنا من غرفة الاجتماعات كان في مواجهتنا حائط تزينه صور سفراء مصر في الأمم المتحدة منذ نشأتها..بين الصور تجد شخصيات مرموقة اعتلت فيما بعد مناصب أكثر حساسية مثل "عمرو موسى" و"عصمت عبد المجيد" و"أحمد أبو الغيط".

غادرنا السفارة وسط الأمطار الغزيرة إلى الحافلة..تحركت بنا في شوارع مانهاتن ومرت أمام مقر الأمم المتحدة لنرى المشهد الفريد..كان اليوم الجمعة السادس عشر من مايو..ذكرى ستين عاما على النكبة..أول أمس كانت أمريكا تضج باحتفالات اليهود لمرور ستين عاما على إعلان تأسيس دولة إسرائيل، وكان "بوش" في القدس يشارك الإسرائيليين احتفالاتهم هناك قبل أن يتجه إلى شرم الشيخ لحضور مؤتمر دافوس.

أما ما نشهده أمامنا الآن فهو مظاهرة فريدة من نوعها ينظمها العرب.. يحملون أعلام فلسطين ويحملون الشعارات عن حق فلسطين في الوجود.. يسيرون تحت المطر عابرين الشارع الأول إلى الحديقة الكبيرة في مواجهة الأمم المتحدة..يحملون المظلات لتقيهم الأمطار ويواصلون السير بحماس، ومن خلفهم رجال الشرطة يتأكدون أن المظاهرة تتحول بسلام كالعادة!

٨

الفراعنة في الميتروبوليتان!

مهما سمعت عن كنوز الفراعنة المعروضة في الخارج، ومهما تجولت في متاحف المصريين القدماء في أرجاء المحروسة، ومهما قرأت عن مدى انبهار الغرب بالحضارة الفرعونية، لن يساوي إحساسك هذا شيئا عندما ترى بعينيك عظمة هذه الحضارة في بلد يبعد عن بلدك مئات الآلاف من الأميال وفي عيون سياح من كل أرجاء العالم في متحف أجنبي لا يمت لمصر ولا للفراعنة بصلة.

المرة الأولى التي سمعت فيها عن متحف الميتروبوليتان — يسمونه الميت The Met اختصارا- كانت من مسز بيث مشرفة مكتب الطلبة الدوليين في جامعة نيوبولتز..كانت ليلة من ليالي مارس الممطرة..كانت الست الأمريكية الطيبة قد اصطحبتنا معها في سيارتها في جولة تسوق، وكانت السماء تمطر بشدة مما اضطرها للقيادة بسرعة متوسطة نسبيا..وطول الطريق بدأنا حديثا عن معالم مدينة نيويورك ومتاحفها، فنصحتني بزيارة متحف الميتروبوليتان، وأضافت: سيعجبك كثيرا..ستجد هناك كثيرا من آثار مصر!

ونسيت كل شيء عن متحف الميت فلا أتذكره إلا كلما طالعت منشورا سياحيا عن معالم نيويورك، حتى جاءت تلك الليلة من مايو..كنت قد خرجت توا مع صديقي من حديقة

سنترال بارك الشهيرة، وعدنا من جديد إلى شوارع نيويورك..كانت السماء تمطر بشدة أيضا -يا للمصادفة- وكان أندرو لا يزال مصرا أن نجوب سنترال بارك حتى نهايتها، بينما الحديقة تمتد أمامنا بلا نهاية، ناهيك أنها خالية تقريبا بسبب الطقس السيء..الظلام بدأ يكسو المدينة، وصار البقاء في سنترال بارك مخاطرة حمقاء لأننا سمعنا كثيرا عن عصابات نيويورك ولم نجرب التعامل معها مباشرة بعد -لحسن حظنا أو لسوئه ربما لأن السرقة بالإكراه في نيويورك مغامرة لا بأس بها أبدا!

هنا وجدت أمامي المتحف الشهير..الميتروبوليتان..المبنى الأبيض الضخم شديد الفخامة يمتد أمامنا كما رأيته مرارا من قبل في المنشورات السياحية..هنا وجدت الحل المناسب للهروب من اقتراح صديقي أن نعود أدراجنا إلى سنترال بارك في هذا الطقس وفي هذه الساعة..ندخل الميتروبوليتان..إيه؟..الساعة ثمانية..زمانه هيقفل..تعال بس يا عم..هنخسر إيه لما نسأل؟..طب هو المتحف ده مهم يعني؟.. آه، طبعا..تعال بس!

ودخلنا..تجولنا قليلا في ساحته الواسعة وأنا لا أزال أقنع صديقي بالدخول..إنها فرصة مثالية..كم مرة سندخل فيها هذا المتحف في حياتنا؟..هذه تجربة جديدة نضيفها إلى قائمة تجاربنا ههنا..وأخيرا اتجهنا إلى شباك التذاكر، وكانت قائمة الأسعار تحتم أن يدفع الطالب ٢٠ دولارا..يبدو ثمنا باهظا لمتحف لكن

لا بأس..هنا أخبرنا بائع التذاكر بما جعلنا نطير فرحـــا..أنهـــا الثامنة مساء والمتحف سيغلق أبوابه خلال ساعة على الأكثر- إنه السبت عطلة نهاية الأسبوع حيث تفتح المتاحف أبوابها حتى التاسعة مساء على غير المعتاد..ولهذا فقد توقف بيع التـــذاكر بأسعارها المعلنة، وصـــار الـــدخول بـــدفع تـــبرع لـــصالح المتحف..يعني إيه؟..يعني ادفـــع أي حاجـــة تبرعـــا وادخـــل المتحف..يا لها من بداية جميلة!..أخرجـــت ورقـــة بخمـــسة دولارات وأعطيتها للرجل ليعطيني تذكرة..ودخلنا المتحف!

عندما صعدنا إلى الطابق الثاني كان أول ما خطر على بالي رؤيته هو قسم الآثار الفرعونية..سألت رجل الأمن متوقعـــا أن يبدي دهشته أو على الأقل جهله، لكنه أشار لي بمنتهى الحماس لأسفل قائلا: الطابق الأول، فعدنا من جديد إلى الطابق الأول ليبدأ العرض الفريد..أهلا بك في قسم الآثار الفرعونية!

للوهلة الأولى تنسى تماما أنك هنا في متحف الميتروبوليتـــان وأنك دخلته للتو من الشارع الخـــامس في مانهـــاتن بمدينـــة نيويورك..تظن أنك تركت على التو ميدان التحرير في قلـــب القاهرة وابتعت تذكرة للمتحف المصري ودخلته لترى تماثيـــل ملوكنا الفراعنة وآثارهم ومقتنياتهم التي تتحدى الزمن..أنـــا لا أبالغ إطلاقا إذا قلت إنك تشعر أن قسما كاملا من المتحـــف المصري قد نقل مـــن القـــاهرة ليعـــرض هنـــا في متحـــف الميتروبوليتان..

والقسم المصري في متحف الميت يعد أكبر أقسام المتحف الذي يضم مجموعة هائلة من اللوحات الفنية والآثار القديمة من كل حضارات العالم.. لكن يبقى القسم المصري الأضخم والأجمل والأكثر إقبالا من قبل زوار المتحف النيويوركي الشهير..أكثر من ستة وثلاثين ألف قطعة أثرية تشكل محتوى القسم المصري تنتقل بك عبر عصور الحضارة المصرية القديمة فيما يقرب من أربعين قاعة عرض من أضخم أجنحة الميتروبوليتان في الجزء الأيمن من المتحف المواجه لسنترال بارك.

تسير في قاعات العرض مبهورا بكل هذا الكم الهائل من آثارنا..ما الذي جاء به هنا؟..من حمله معه؟..كيف هربه؟..أين كانت السلطات المصرية؟..متى نقب عنه ومتى وجده ومتى باعه ومن جلبه هنا؟..كم واحد اشترك في سرقة تمثال هذا الملك الفرعوني من أول من بدأ رحلة التنقيب في صحراء مصر وإلى من كتب اللوحة التوضيحية جوار الملك؟..مبهور أيضا بهذا الإقبال الكبير من السياح..بنظرات الإعجاب في عيونهم..بإصرارهم على التقاط عشرات الصور – القواعد تسمح بالتصوير لكن بدون فلاش الكاميرا.. أطفال ونساء ورجال من كل أنحاء العالم.. تجدهم أينما ذهبت في أية قاعة من قاعات المتحف..

في ذهني تساؤلات كثيرة عن الطريقة التي هرب بها هذا الكم الهائل من آثارنا لتترك أرض الوطن وترحل عبر الأطلسي لتستقر هنا في قلب نيويورك..ورغم أن الأمر يبدو مثيرا للغيظ،

لأن هذه الآثار لا تعرض في أرضنا، فإن هنالك وجه مـــشرق أيضا..هذه الآثار خير ما يمثل بلدنا في الخارج..دعاية مجانيـــة لمصر تشرف عليها الحكومة الأمريكية وترعاها وتـــسوق لهـــا أيضا كلما سوقت لمتحف الميتروبوليتان.

قبل شهرين كنت في متحف الفنـــون الجميلـــة في مدينـــة بوسطن الجميلة..هنالك ستجد قسما فرعونيا أيضا وإن كـــان أصغر كثيرا من هذا الجناح الضخم في متحف الميت..دعايـــة مجانية أخرى في أكبر متاحف بوســـطن..وفي مدينـــة ســـالم بماساتشوسيتش ستجد متاجر المدينة تعرض تحفـــا فرعونيـــة - ليست أصلية بالطبع..تماثيل لحورس وست وأوزوريس وكـــل آلهة الفراعنة.

نعود لمتحف الميت..في نهاية الجناح المصري تجد نفسك قد انتقلت من جديد من نيويورك إلى وادي النيل..إلى الأقصر هذه المرة..ها هو ذا النيل وها هو ذا معبد من معابد الفراعنة..قـــد يكون الكرنك وقد يكون الدير البحري وقد يكـــون معبـــد الأقصر..أيما كان فهو نموذج صناعي مصغر متنـــاهي الدقـــة والجمال صمم في قلب متحف الميتروبوليتان ليكون مماثلا لمعابد الفراعنة في مصر - بما أن المعبد بأكمله لم تتم سرقته منا مثلما حدث مع التماثيل والمومياوات.. وحول نموذج المعبد مجـــرى مائي صغير يمثل النيل..يا للروعة!

بعد قليل صعدت للطابق الثاني..تأملت لوحات الزيت بالغة الجمال..جبت قاعة حضارة الرومان بتماثيلها البيضاء التي تمثل بشرا عرايا أو آلهة روما.. نزلـــت لقاعـــة الفـــن التـــشكيلي وحضارات شرق آسيا.. لكني لم أر ما هو أكثر جمالا وإبهـــارا من القسم الفرعوني..وهو ليس رأيي لأني مصري، بل هو حتما رأي كل زوار الميتروبوليتان!

الفصل الرابع

حكايات واشنطن!

١

عشرة دروس من واشنطن دي سي!

هي مغامرة بكل ما تعنيه الكلمة من معان..هل تعرف معنى أن تقرر مع أصدقائك المصريين في الغربة أن تخططوا لرحلة بالكامل معتمدين فقط على أنفسكم لتشدوا الرحال إلى مدينة أخرى تبعد عن محل إقامتكم ست ساعات كاملة دون أية خبرة بهذه المدينة الجديدة؟..نحن فعلناها وقررنا أن نقضي فيها أيامنا المتبقية في إجازة الربيع التي تتخلل الفصل الدراسي في واشنطن..صحيح أننا اتبهدلنا قليلا في بداية الرحلة، لكننا استمتعنا كثيرا فيما بعد..تعال معي أعلمك عشرة دروس ينبغي أن تذاكرها جيدا إذا قررت أن تشد الرحال إلى واشنطن.

عادة ما يقترن اسم واشنطن العاصمة بواشنطن دي سي، تمييزا لها عن الولاية واشنطن وهي ولاية أمريكية تقع في الغرب، في حين أن العاصمة واشنطن تقع في مقاطعة كولومبيا، ولهذا لابد أن تذكر حرفي الدي سي للإشارة لاسم المقاطعة..هذا هو الدرس الأول!

رتبنا كل شيء قبلها بنحو عشرة أيام..حجزت صديقتنا لنا في أحد فنادق واشنطن عبر الإنترنت، وسألت صديقة أخرى عن أسعار تذاكر السفر إلى واشنطن ذهابا وإيابا..لابد أن

تدرك جيدا أن أغلى ما في أمريكا -مقارنة بمصر- هو أسعار المواصلات العامة..هنا أعلمك الدرس الثاني..إذا خططت للسفر لمدينة ما فعليك أن تبتاع تذاكر السفر مبكرا، لأن هذا يمنحك خصما كبيرا جدا..اشترينا تذاكر واشنطن بنحو ثمانين دولارا لتذكرة الذهاب والإياب قبل سبعة أيام من الرحلة، ولو كنا تأخرنا يوما واحدا لدفعنا ضعف الثمن.. الدرس الثاني!

بدأت رحلتنا في السابعة صباحا..استقللنا الباص من نيوبولتز إلى نيويورك..ساعة ونصف قضيناها نائمين لنجد أنفسنا بعدها في محطة بورت أوثرتى في قلب مانهاتن..أحمل حقيبتي الوحيدة وأساعد الفتيات المرافقات لنا على حمل حقائبهم الثقيلة متسائلين عن رصيف الباص المتجه إلى واشنطن..نصعد طابقين في المحطة الكائنة تحت الأرض حتى نصل إلى باص واشنطن..موعدنا في العاشرة وعشر دقائق..أمامنا نصف ساعة نبتاع فيها القهوة الأمريكية جميلة المذاق حتى تزيح عنا آثار النوم.

وبعد قليل انطلقنا..ليس من عادتي أن أتحدث إلى جارى في رحلات السفر، لكن تلك السيدة الفترويلية الشمطاء هي من بدأت الحديث..جلست جواري وقالت شيئا ما عن نيويورك التي أحبتها، وبدأنا حديثا عابرا حول المدينة..هي أصلا من فيرجينيا وجاءت تزور المدينة التي لا تنام في رحلة سياحية..قلت لها إنني من مصر فتحدثت معي كالعادة عن الفراعنة و قالت إنها تحب مصر لأنها مذكورة في الكتاب

المقدس..هذه نقطة جديدة..قلما تجد أحدا يحدثك عن مصر الكتاب المقدس، لأن الكل يتحدث عن الأهرامات والفراعنة..قررت أن أستغل كونها من أهل فيرجينيا لأسالها عما يمكن أن نزوره هناك فضلا عن المسافة بين واشنطن وفيرجينيا..قالت إن المسافة هي أن تعبر النهر..خط المترو يصل بين واشنطن و فيرجينيا فلا تقلق أبدا..إذا قررت أن تزور واشنطن فلا تفوت فرصة زيارة فيرجينيا..وإذا زرت فيرجينيا فلابد أن تزور أجمل مدنها الإسكندرية..أليكسندرا كما يسمونها بالإنجليزية..هذا هو درسك الثالث!

أربعة ساعات استغرقتها الرحلة من نيويورك وحتى مشارف واشنطن – المسافة تقدر بنحو ٢٢٧ ميلا طبقا لجوجل..وصلنا المحطة وحملنا حقائبنا وبدأنا رحلة البحث عن محطة مترو..سرنا قليلا حتى وصلنا لأقرب محطة، وتناولنا خريطة محطات المترو نبحث عن هدفنا..حددت لنا صديقتنا المحطة التي يقع فيها الفندق، فاستقللنا المترو وانطلقنا!

هنا يحين موعدنا مع الدرس الرابع..لا تثق كثيرا في اختيارات رفاقك لمحطات المترو..اعرف هدفك جيدا..اكتب عنوان الفندق من الإنترنت بوضوح تام، ولا تخجل أن تسأل عن اسم أقرب محطة مترو إليه..هنا دعني أتجاوز هذه النقطة ولا أحكي لكم كيف ضللنا طريقنا ونزلنا في محطة مترو نائية نحمل حقائبنا ونجوب الشوارع في إحدى ضواحي واشنطن نبحث عن اسم الشارع، في ضاحية لا يسكنها سوى الزنوج الذين

راحوا يرمقوننا بنظرات غريبة ويعاكسون فتياتنا، حتى بلغ بنا الكيل مبلغه فعاودت صديقتنا الاتصال بالفندق لتأخذ العنوان الصحيح، لندرك الحقيقة المرة..علينا أن نعود أدراجنا إلى المترو من جديد ونأخذ الخط الآخر..اقترحت أن نعود أدراجنا سيرا إلى المترو، فتعالت أصواتهن أن لا..سننتظر الباص..ما علينا..اعرف هدفك جيدا...الدرس الرابع!

في الخامسة مساء وصلنا إلى الفندق..يمكنك أن تتصور مدى إرهاقنا وتعبنا عندما تلاحظ أننا غادرنا مساكن الطلبة في نيوبولتز في السابعة إلا الربع صباحا، لنصل إلى هدفنا في الخامسة مساء بعد ثلاث ساعات من اللف والدوران في ضواحي واشنطن وأنفاق المترو..لكن ما أثار ابتهاجنا بشدة أن انطباعنا الأول عن المدينة تغير تماما..الفارق كبير جدا بين الضاحية التي نزلنا فيها في البداية وسكانها الزنوج وهدوئها المخيف وبين هذه المنطقة من قلب واشنطن..رأينا الشوارع النظيفة الواسعة الجميلة و المباني الفاخرة والوجوه البيضاء الوسيمة لندرك أننا حقا في العاصمة واشنطن..الفندق صغير لكنه أنيق ويقع في قلب المدينة وهذه هي أهم مميزاته.

وضعنا حقائبنا في بهو الفندق وجلسنا ننتظر استلام غرفنا..ذهبت صديقتنا لموظفة الاستقبال تنهى إجراءات حجز الغرف التي كانت قد حجزتها مسبقا على الإنترنت، وكنا قد اتفقنا أن نتقاسم جميعا المبلغ..هنا جاءت المفاجأة..الحجز يتطلب خمسين دولارا إضافيا..لماذا؟..كانت ثم خطأ ما في

الحساب وفقا لأسعار الغرف المعلنة على الموقع الإلكتروني للفندق على الإنترنت..والحل؟..خمسون دولارا إضافية من كل واحد منا..هل تعرف ما هذا؟..إنه الدرس الخامس طبعا..تأكد من أسعار الغرف بالفندق وراجع حسابك جيدا حتى لا تكتشف فجأة أنك قد خدعت..وبعد خلافات ومداولات حلت المشكلة ودفعنا المبلغ كله مقدما وحجزنا ثلاث ليال.

و أخيرا..أخيرا..حمل كل واحد منا حقيبته وصعد إلى غرفته...

***

الآن صار بوسعي أن التقط أنفاسي وأجلس أتأمل معكم خريطة المدينة..

بدت لي غرفة الفندق صغيرة أنيقة..شغلت التليفزيون على السي إن إن، ليذيع خطابا جديدا للمرشح الديمقراطي باراك أوباما يتحدث فيه عن العنصرية، وجلست على الفراش أتأمل مكان الفندق على الخريطة..إننا في قلب المدينة كما تلاحظون..فقط بضع خطوات وتجد ميدان ماكفرسون أمامك ومن بعده البيت الأبيض..هل هو قريب منا إلى هذا الحد؟

وعلى الخريطة تكتشف أن كل ما تسمع عنه في واشنطن يتركز في ذات المنطقة..وسط واشنطن..البيت الأبيض ومن خلفه الحديقة الواسعة التي يتوسطها أثر واشنطن - الذي يتخذ هيئة مسلة فرعونية عملاقة، وعلى امتدادهم الأثر التذكاري

لإبراهام لنكولن، وفي الجوار في دائرة واسعة مركزها أثر واشنطن تتناثر أشهر معالم المدينة..مبنى الكونجرس - يسمونه مبنى الكابيتول، ومكتبة الكونجرس الشهيرة ومتاحف السميثونيان ومتحف الهولوكوست وأثر ذكرى الحرب العالمية الثانية ومباني الوزارات التي تشبه بعضها البعض وتتسم بذات الطراز المعماري الذي يذكرك بمتاحف الرومان..كل هذا في مكان واحد..هكذا تقول الخريطة..إذن هذا هو درسنا السادس..كل شيء على الخريطة..ادرس الخريطة جيدا!

الساعة الآن التاسعة مساء..مذيع السي إن إن يتحدث عن حلول الذكرى الخامسة لبدء الحرب على العراق والحصيلة قرابة الأربعة آلاف قتيل في صفوف الجيش الأمريكي - لا يتحدثون عادة عن عدد الضحايا في الجانب الآخر..أغلب أصدقائي ذهبوا لتناول العشاء وبقت هنالك صديقتان بوسعي أن أخرج معهما..ها هي ذي بداية جولتنا في المدينة تبدأ في التاسعة مساء بعد يوم سفر شاق طويل..لا بأس..لا ينبغي أن أضيع لحظة واحدة من الآن. كل لحظة لها ثمنها..لقد دفعنا مبلغا باهظا في الفندق ولا ينبغي أن نضيع وقتنا في هراء..الوقت من ذهب في واشنطن..الدرس السابع.

وبينما انتقل مذيع السي إن إن للحديث عن ارتفاع أسعار الوقود غادرت الغرفة وخرجنا من الفندق..للمرة الأولى نجوب شوارع واشنطن بلا هموم البحث عن مأوى أو مشاكل حمل الحقائب..نجوبها باستمتاع نستنشق الهواء العليل ونستمتع

بالطقس الربيعي الجميل الذي افتقدناه في نيويورك..إنه مارس..ما أروع واشنطن في مارس..نسأل عن البيت الأبيض ونسير إليه..نقترب من سوره و أستأذن ضابطي الحراسة هناك أن نلتقط بعض الصور..لا مانع أبدا..صور براحتك يا عم..نلتقط الصور أمام المبنى الأبيض الشهير بالنافورة التي كنا نراها في الأفلام الأمريكية ونشرات الأخبار..هل هذا البيت الأبيض الصغير البسيط هو أهم القصور الرئاسية في العالم؟..هل هذا السور الحديدي الذي نرتكن إليه هو الذي يحمي معقل الرئيس الأمريكي؟..أين قوات الحراسة وكاميرات المراقبة وعربات الأمن المركزي؟..لا شيء من هذا كله..أو هذا ما تراه عيناك فحسب!

نواصل السير ونرى المسلة العملاقة بأضوائها الليلية الجميلة..عمود من النور يرتفع شامخا في ليل واشنطن فتراها أينما ذهبت..تتساءل رفيقتي عما أتى بهذه المسلة الفرعونية الضخمة إلى هنا، فأجيبها أنه أثر واشنطن..ليست مسلة أصلية طبعا فلا توجد مسلة بهذا الحجم..

بعد قليل من السير قررت إحدى رفيقتيّ أن الوقت قد حان لبعض التسوق..كل النساء مغرمات بالتسوق والمحلات إلى حد الجنون..ودون سابق إنذار أوقفت صديقتنا تاكسيا وطلبت منه أن يذهب بنا إلى جورج تون حيث توجد المحلات..ووجدت نفسي متورطا معهما في جولة تسوق جديدة.

داخل التاكسي دار الحوار بيننا بالعربية كالعادة حتى لا يفهمنا السائق..ثم قررت أن أدردش قليلا معه لأتعرف بمعالم المدينة..سألته عما يمكنا زيارته هنا، فنصحنا بالمتاحف طبعا..أغلب المتاحف هنا مجانية، وهذه أهم مزايا واشنطن..إذا قررت أن تزور المتاحف في نيويورك هيتخرب بيتك..في واشنطن معظم المتاحف مجانية..إنه الدرس الثامن!

أما السائق فاسمه محمد..من أفغانستان..سائقو التاكسيات أغلبهم من المهاجرين..راح يحدثنا عن حياته هنا بينما أنا قلق من الأجرة التي سيطلبها بعد قليل..لا أعرف شيئا عن أسعار التاكسيات هنا لكنه يعرف الآن أننا سياح لا نعرف شيئا عن المدينة، والعادة أن يستغل سائقو التاكسيات السياح..وصلنا إلى جورج تون فطلب اثنيّ عشر دولارا..عظيم..كلا، ليس هذا هو الدرس التاسع لأنني لم أجرب تاكسيا آخر لأعرف إن كان هذا استغلالا أم لا!

ونزلنا إلى شوارع المدينة شبه الخالية من المارة..هذه مدينة أمريكية تقليدية جدا هادئة جدا مثل أغلب مدن أمريكا..لا ناطحات سحاب..فقط منازل وعمارات لا تزيد في الغالب عن عشرة أدوار أو عشرين طابقا بالكثير، مثل أغلب مدن أمريكا، أما نيويورك ولوس أنجلوس فهما من الاستثناءات طبعا..

وفي واشنطن منظر معتاد ستراه كثيرا جدا..رجل أو امرأة بملابس رياضية يركض أو تركض على جانب الطريق، واضعا سماعات هيدفون على أذنيه ومندمجا تماما مع رياضته..المثير أن المنظر ذاته يتكرر سواء كان الجو باردا أو دافئا..طبيعي أن تجد

فتاة بشورت قصير تجري على الرصيف حتى لو كانت درجـــة الحرارة صفرا!

وسرنا نتأمل واجهات المحلات المغلقة..كلها مغلقة..الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة بعد لكن كل شيء مغلق..فقط أماكن السهرة تفتح أبوابها في هذه الساعة "المتأخرة" وفقـــا لتوقيـــت واشنطن..في ساعة كهذه تبدأ مدن أخـــرى مثـــل نيويـــورك ليلتها..يبدو أن أهالي أهم عاصمة في العالم يفـــضلون النـــوم مبكرا..ظللنا نجوب الشوارع نصف ساعة أخرى حتى وجـــدنا واجهة محل ملابس مغلق تعرض فستانا ثمنه مليون دولار..هذه مزحة بلا شك..وإلا ماذا تسمي هذا الفستان المعلق جـــواره ولافتته تعلن أن ثمنه ثلاثة ملايين دولار؟..هؤلاء القوم لطفـــاء حقا!

وهذا عزيزي القارىء درسك التاسع..لا تحاول أن تتسوق في واشنطن بعد التاســـعة..كـــل المحـــلات تغلـــق أبوابهـــا مبكرا..حاول أيضا ألا تتجول في الـــشوارع بعـــد منتـــصف الليل..هذه المدينة تنام مبكرا جدا وتستيقظ أيضا مبكرا، فـــلا تخاطر بنفسك وتسير وحيدا ليلا..

في طريق العودة واصلنا السير مهتـــدين بالخريطـــة الـــتي أحملها..كان هذا هو الدرس السادس فلا تنسه..من حين لآخر نستوقف واحدا من المارة لنسأله عن الطريق..عنـــدما اقتربنـــا كثيرا من منطقة الفندق استوقفنا شابا أخيرا نسأله عن الطريق،

فإذا به يفاجئنا بالتحية الشهيرة: "السلام عليكم"..طبعا حجاب صديقتنا يخبر الآخرين بوضوح عن هويتنا..كان الشاب جزائريا اسمه طارق..بدا سعيدا للغاية برؤيتنا وراح يحدثنا عن نفسه..هاجر من بلده منذ ثلاثة أعوام ويعمل حاليا في فندق هيلتون..دعانا لزيارة المركز الإسلامي وتمنى رؤيتنا ثانية قبل أن يودعنا أمام الفندق..فيما بعد قابلنا كثيرا من المحجبات في شوارع واشنطن وأدركنا أن هذه المدينة عامرة بالمسلمين..عندما تزور المركز الإسلامي فلا تنبهر كثيرا بأن كل هذا يحدث في العاصمة الأمريكية..إنه الدرس العاشر!

٢

في متاحف السميثونيان!

إنها الذكرى الخامسة لبدء الحرب على العراق.. بدأ اليوم بالنسبة لي في السادسة صباحا.. شربت كوبا من القهوة الأمريكية -المجانية في الفندق- على استعجال، قبل أن أنطلق إلى ميدان ماكفرسون لأشهد بنفسي المظاهرة التي نظمتها جماعات السلام ضد الحرب على العراق.. كنت في غاية الحماس وأنا أتجول مع ناشطي السلام وألتقط لهم الصور ومقاطع الفيديو جنبا إلى جنب مع مراسلي وكالات الأنباء العالمية والصحفيين ورأيت كاميرات مختلف القنوات الإخبارية الأمريكية، فيما ترتفع اللافتات هنا وهناك عن أعداد الضحايا وتكلفة الحرب.. في لافتة ضخمة تقرأ أن تكلفة يوم واحد من الحرب تعادل ٧٢٠ مليون دولار.. ترى هل يبالغون قليلا؟

في العاشرة عدت إلى الفندق لأرتاح قليلا وألتقط أنفاسي بعد هذه المظاهرة الصاخبة، صعدت إلى غرفتي أشاهد نشرة الأخبار التي تتحدث عن توجه الرئيس الأمريكي اليوم إلى البنتاجون لإلقاء خطابه عن حرب العراق، في الوقت الذي تضجّ فيه شوارع واشنطن بالمظاهرات المعارضة لسياسته، فيما يقترب عدد ضحايا الجيش الأمريكي في العراق من رقم الأربعة آلاف قتيل، وينتقل المذيع لتحليل موقف أوباما وهيلاري كلينتون مرشحي الحزب الديمقراطي في الانتخابات الرئاسية الأمريكية من الحرب على العراق.

بعد قليل قررت أن أنسى كل شيء عن حرب العراق ومظاهرات ناشطي السلام وأبدأ الاستمتاع بيومي الأول في العاصمة واشنطن..هناك الكثير من الأشياء التي ينبغي أن أزورها و لم أزر شيئا بعد..هل أضيع وقتي في متابعة نشرات الأخبار؟.. إن المنشورات السياحية عن واشنطن أمامي مليئة بالمتاحف ولا بد أن أبدأ زيارتها.

في نفس الوقت كان أصدقائي أمام البيت الأبيض يلتقطون الصور مع السياح، فيما تعبر فرق المتظاهرين في الشوارع هاتفين ضد بوش ولاعنين الحرب على العراق التي تنفق عليها حكومتهم من أموال الضرائب.. هنا أوقف رجال الشرطة الطرق المحيطة بالبيت الأبيض فجأة، وظهر موكب من السيارات الفاخرة اخترق الطرق الخالية.. تساءل أصدقائي عن سر هذا الموكب وعرفوا أنه موكب الرئيس بوش يبدأ رحلته من البيت الأبيض إلى البنتاجون حيث يترقب الأمريكيون خطابه هناك.. بهذه البساطة؟..غلق الطرق لبضع دقائق فحسب..هذا كل ما فعلوه كي يؤمنوا موكب رئيس أقوى دولة في العالم!

***

تعال أولا نراجع معلوماتنا عما نحن بصدد زيارته الآن.. معهد السميثسونيان "Smithsonian" واحد من أشهر المعاهد التعليمية التي تمولها الحكومة الأمريكية، ويضم ١٩ متحفا وحديقة الحيوان و٩ مراكز أبحاث، تقع أغلبها في العاصمة واشنطن ويقع بعضها في نيويورك سيتي وفيرجينيا..أكثر متاحف السميوثنيان شهرة وإقبالا من كل

زوار واشنطن تلك التي تقع في قلب العاصمة فيما يسمى الناشيونال مول بالقرب من البيت الأبيض وأثر واشنطن، حيث يكون بوسع الزائر أن ينتقل من متحف إلى متحف مجاور ببساطة، كما أن كل متاحف السميثسونيان مجانية تماما.. وتضم منطقة الناشيونال مول المتحف القومي للفضاء والطيران ومتحف التاريخ الأمريكي والمتحف الأمريكي الهندي ومتحف التاريخ الطبيعي ومتحف الفن، بينما تقع حديقة الحيوان في ضواحي واشنطن.

وليست كل متاحف هذه المنطقة تابعة للسيمثونيان.. في الجوار متحف ذكرى الهولوكوست وهو مجاني أيضا لكنه ليس تابعا للسميثسونيان..هناك متحف التجسس الأمريكي -الذي يتتبع تاريخ الجاسوسية والجواسيس ووكالة المخابرات الأمريكية المركزية سي آي إيه- ولا هو مجاني ولا هو تابع للسميثسونيان طبعا، كما أنه من أحدث المتاحف هنا حيث افتتح في يوليو ٢٠٠٢ وتكلف إنشاؤه ٤٠ مليون دولار.

ومن متحف إلى متحف..أسير باستمرار وأمرّ على محتويات المتحف..كان الطقس الجميل الذي خيم على المدينة في الصباح قد انقلب الآن إلى أمطار غزيرة، أواجهها كلما خرجت من متحف واتخذت طريقي إلى متحف آخر..

عندما دخلت متحف التاريخ الطبيعي استقبلني هيكل ديناصور عملاق من عصور ما قبل التاريخ، وتذكرت على الفور الفيلم الأمريكي الشهير "ليلة في المتحف" الذي جرت أحداثه في متحف التاريخ الطبيعي في نيويورك، وتجولت في

قاعات المتحف كثيرا..أدخل قسم أفريقيا لأسير في غاباتها وأرى نماذج الأسود الأفريقية الشرسة والزرافة بعنقها الجميل والنمور وغيرها من حيوانات الغابات..غادرت المتحف محبطا لأني لم أحبه كثيرا.. لم أكن يوما مغرما بهياكل حيوانات ما قبل العصور أو نماذج الصخور والحيوانات والنباتات وعينات التشريح التي تذكرك بمعامل كليات العلوم.

في قاعة جميلة خاصة بالكوارث الطبيعية يمكنك أن تشاهد فيلما عن الزلازل والبراكين، وترى خرائط الكرة الأرضية وقد خطت عليها أماكن الزلازل وأشهر البراكين، وترى نموذجا ضخما مجسما للكرة الأرضية.

وبلغ حماسي ذروته في متحف الطيران والفضاء، ومبناه قريب جدا من مبنى الكابيتول، كما أنه من أجمل مباني متاحف السميثسونيان وأكثرها شعبية وازدحاما..هنا يمكنك أن تتبع رحلة الإنسان من الصفر إلى الفضاء، منذ قفز "عباس بن فرناس" من الجبل محاولا الطيران إلى طائرة الأخوين "رايت" إلى رحلة "يوري جاجارين" حول الأرض إلى الخطوات الأولى لـ "نيل أرمسترونج" فوق القمر ورحلات ناسا العديدة إلى الفضاء الخارجي التي توقفت في يناير ٢٠٠٣ مع تحطم المكوك ديسكفري بروّاده.. مسيرة العلم نحو غزو الفضاء تراها أمامك مجسمة موضحة بالخرائط واللوحات ونماذج الطائرات بأحجامها الحقيقية.. يمكنك أن تدخل بنفسك كابينة طائرة وتلقي نظرة قريبة على أجهزة الملاحة.

ورحت أسير مبهورا أتأمل نمـاذج الطـائرات المعلقـة في السقف، أو طائرات الهليكوبتر الموضوعة في الجوار يلتفّ حولها السياح يلتقطون الصور معها، وتتحسس أجسـام المقـاتلات الحربية التي شاركت في الحرب العالمية الثانية، ثم تقف مأخوذا أمام سفن الفضاء غير مقدر أن هذا الجسم السـاكن الواقـف جوارك بوسعه أن ينطلق بسرعة خرافية مغادرا أرضنا في رحلة إلى القمر أو المريخ!

وعندما انتهيت من زيارة كل هذه المتاحف كنت مرهقـا بشدة..واكتشفت أنني زرت ثلاثة متاحف فحسب ومـا زال هنالك المزيد، لكنني اكتفيت من اللف في طرقـات المتـاحف والتقاط الصور..ذاكرة كاميرتي قد امتلأت وتورمت قـدماي من كثرة السير وأشعر بجوع عظيم..في قاعة متحف الطـيران والفضاء وجدت خمسة أو ستة زوار قد افترشوا الأرض أمـام لوحة عملاقة تحمل صورة "نيل أرمسترونج" ببدلة الفضاء يخطو على سطح القمر وإلى جواره العلم الأمريكي مسجلا لحظـة انتصار العلم والبشرية في تحقيق حلم الوصول إلى القمر..أمـام هذه اللوحة غاصت فتاة أمريكية في نوم عميق وقد قـررت أن تأخذ قسطا من الراحة..ترددت قليلا قبل أن أحاول تقليـدها لكنني تذكرت الأمطار الغزيرة التي تنتظـرني في الخـارج إذا قررت أن أرحل إلى الفندق الآن لآخذ قـسطا مـن الراحـة بدوري، فنزعت عن نفسي أي شعور بالخجل وجلست جوار الفتاة الأمريكية على الأرض أمام لوحة أرمسترونج مـسترخيا

أتأمل السياح يروحون ويجيئون هنا وهناك، وبعضهم يجلس أرضا أيضا ليستريح قليلا دون ذرة واحدة من الخجل..هؤلاء القوم بسطاء جدا!

وعندما خرجت من المتحف قادتني قدماي إلى النصب التذكاري للحرب العالمية الثانية، الذي سحرني جماله وجعلني أحبه أكثر من أي شيء آخر رأيته في واشنطن..هذه البحيرة الدائرية الصناعية الجميلة بنافوراتها الصغيرة والأعمدة الست والخمسين التي تحمل أسماء الولايات الأمريكية الخمسين، وعلى أحد أعمدتها تقرأ أن الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن قد قام بافتتاحها بنفسه..ولا تندهش كثيرا فالنصب التذكاري حديث جدا إذ تم افتتاحه للعامة أواخر أبريل ٢٠٠٤، ويقع في منتصف المسافة بين أثر واشنطن والنصب التذكاري لإبراهام لنكولن.

في اليوم الأخير لزيارتي قررت أن أقوم برحلة أخيرة إلى حديقة الحيوان، ودخولها مجاني مثل كل متاحف السميثسونيان.. لم تعجبني الحديقة كثيرا وكانت كثير من الحيوانات نائمة أو غائبة عن مكان عرضها في مكان ما.. لكن يحسب للحديقة تنظيمها وجمالها وأناقتها..وقبل كل شيء فهي مجانية مثل كل متاحف السميثسونيان..لا تنسَ أبدا ما قلته لك من قبل..واشنطن أفضل مدينة في العالم تتفسح فيها ببلاش!

٣

على قمة واشنطن!

عندما صعدت إلى قمة الإمبيرستيت في نيويورك سيتي بدت مانهاتن كلها أمامي سيوفا معدنية تمتد عاليا كأقزام جوار الإمبيرستيت..في واشنطن الأمر مختلف..أعلى قممها هو مبنى أثر واشنطن أو واشنطن مونومينت التي تشبه مسلة فرعونية عملاقة الشكل..والمنظر من قمتها مختلف لأنك ترى واشنطن تمتد أمامك كلها دون حجاب، لأن المدينة خالية تماما من ناطحات السحاب وأغلب مبانيها لا تتجاوز عشرين طابقا..والصعود إلى أعلى قمة في واشنطن ليس بالأمر الهين..صحيح أنه مجاني وأن بوسع أي سائح الصعود، إلا أن الأمر أصعب كثيرا مما تخيلته..ولهذا قصة!

في جولتي الأولى حول أثر واشنطن لاحظت وجود صف من الناس يزدحم أمامه..سألت أحد رجال الأمن هناك عما إذا كان بوسعي دخول مبنى الأثر، فقال إن التذاكر وزعت كلها اليوم..سألته في حذر عن تكلفة الدخول فقال إنه مجاني.. وكل شيء مجاني في واشنطن..لا تنس هذا أبدا!

وذهبت لمكان توزيع التذاكر أتساءل عن إمكانية الحصول على تذكرة للغد، فأخبرني الموظف أن عليّ الحضور في السابعة صباحا غدا ليكون بوسعي الحصول على تذكرة..التذاكر كلها

مجانيــة وتــوزع كلــها في الــصباح البــاكر بأســبقية الحضور..والتذكرة تمنحك هذه الفرصة الذهبية..دخول أثــر واشنطن والصعود إلى قمتها ورؤية العاصمة الأمريكية من أعلى قمة فيها..يا للروعة! هذا حلم بلا شك..الصعود إلى قمة هذه المسلة الفرعونية المقلدة!

لكن الأمر ليس بكل هذه السهولة للأسف..في اليوم التالي استيقظت مبكرا جدا واتخذت طريقي نحو الأثــر..ســلكت الطريق في نحو ثلث ساعة، مهتديا بالأثر الضخم الــذي تــراه أينما كنت..حينما وصلت إليه في حــوالي الــسابعة والربــع أدركت مدى صعوبة الأمر حقا..أمام عيني كان يمتد أمــامي صف طويل جدا بدايته عند منفذ توزيع التذاكر أما نهايته فــلا تبدو واضحة للعيان، إذ يمتد الصف ويلتف كثيرا ليــستوعب هذا العدد الكبير من السياح الذين استيقظوا مبكرا جدا جــدا وجاءوا ليحجزوا لهم مكانا هنا في هــذا الطــابور أمــلا في الحصول على تذكرة!

اتخذت مكاني في الصف..للحظة تمنيت أن أجد فراغــا في مكان ما في الصف فأقف فيه، إلا أنني عــدلت عــن ذلــك وفضلت أن أكون متحضرا..سرت إلى نهاية الصف ووقفــت وسط مجموعة من الأمريكيين..مضى الوقت بطيئا ونحن ننتظر في ملل توزيع التذاكر الــذي يبــدأ عــادة في تمــام الثامنــة مساء..السؤال الذي يشغل عقول الجميع: هل تكفي التــذاكر كل هذا العدد؟

تأملت الأثر الضخم المحاط بدائرتين..الأولى دائرة من الأعلام الأمريكية تحيط به مباشرة ودائرة واسعة جدا من الحشائش الخضراء..ورحت أتسلى بالاستماع إلى حديث أسرتين أمريكيتين تتعارفان أمامي كي يمضوا دقائق الانتظار الرتيبة..حكت امرأة لأخرى أن شقيقتها ظلت واقفة في طابور كهذا قبل شهر حوالي ساعتين ثم نفدت التذاكر قبل دورها مباشرة..إنه سوء الحظ ولا شك..ماذا عن حظنا نحن؟..أنقل نظري بين الأمريكيين وأتابع عددا من الفتيات الشقراوات يجرين هنا وهناك مستمتعات بضوء الشمس الدافئة..يبدو أنهم يفتقدن هذه الشمس من حيث جاءوا.

في الثامنة بالضبط بدأ توزيع التذاكر..وبدأ الطابور يتقدم رويدا رويدا..ببطء شديد لكنه يتقدم..كان حماسي يزداد شيئا فشيئا حتى بلغ الذروة حينما صار أمامي حوالي عشرين شخصا فحسب..هنا توقف الطابور وصاح صائح: نفدت التذاكر..ماذا؟..هنا لا بد أن تتعالى صيحات الحانقين، والأمريكيون عادة لا يدخرون جهدا في التعبير عن حنقهم بالألفاظ الإنجليزية الشهيرة التي كنت أسمعها في الأفلام الأمريكية، وصرت أسمعها هنا ليلا ونهارا بمناسبة أو بدون.. في مجتمع كهذا لا يصير التعبير عن الحنق أو الغيظ عيبا..عبر براحتك!

استسلم السياح الذين فشلوا في الحصول على تذكرة لحظهم السيء ومضوا يبحثون عن هدف آخر يزورونه

اليوم..أما أنا فلم أستسلم..ليس من السهل أن أتخلى عن زيارة أثر واشنطن بسهولة..كان لدي أمل في أن يتخلى أحـد ممـن حصل على تذكرة عن تذكرته ويمنحني إياهـا، لكـن أملـي تضاعف كثيرا عندما عرفت أن بوسع السائح الذي يصل لمنفذ توزيع التذاكر أن يحصل على ست تذاكر على الأكثر..ماذا لو كـان لـدى أحـدهم تـذكرة إضـافية لا يحتاجهـا؟ انطلقت إلى أثر واشنطن..وقفت بجوار صف الطابور المستعد للصعود بعد دقائق إلى أعلى الأثر..لاحظ أن التذاكر مقـسمة إلى فئات، وكل فئة تحمل موعدا مختلفا من التاسـعة صـباحا وحتى الثانية ظهرا، حتى لا يتكدس الكل أمام الأثر في نفـس الوقت..سرت أمام طابور التاسعة أحاول أن ألاحظ أحدا لديه تذكرة إضافية، أو حـتى واحـدا يـستغل الموقـف ويبيـع التذكرة..اقتربت من سيدة تقف في آخر الصف واسـتعطفت متسائلا عما إذا كانت التذاكر قد نفدت..هنا وجدت السيدة تبتسم وتشير إلى طابور التاسعة والنصف الواقـف في الخلـف وتقول: اذهب هناك..الرجل ذو الكاب..لديه تذاكر إضافية!

و لم أصدق نفسي وأنا أذهب لألتقط التذكرة من الرجل في يدي..سألته في حذر فمنحني التذكرة في حماس..كان الرجـل قد حصل على ست تذاكر وراح يوزعها عمـن بحاجـة إلى تذكرة، وكان نصيبي التذكرة الأخيرة..الحمد لله رب العالمين!

اتخذت مكاني في الطابور..يقترب منا الـضابط الـشاب ويفتش عن تذاكرنا ويتأكـد أنهـا تحمـل موعـد التاسـعة

والنصف..يتعرف بنا بسرعة ويسأل كل واحد عن الولاية التي أتى منها..هذا من كنتاكي وهذه من بنسلفانيا وأنا جئت من نيويورك لكني مصري أصلا..يبتسم الضابط ويشير إلى الأثر قائلا: أخذنا تصميمه من عندكم..مسلة فرعونية! أبتسم بينما الصف يمضي إلى داخل أثر واشنطن.

***

شيد الأمريكيون أثر واشنطن تخليدا لذكرى الرئيس الأمريكي جورج واشنطن عام ١٨٨٤ من الصخر والرخام والجرانيت، وكان الأثر أطول بناء في العالم بارتفاع ٥٥٥ قدما ، وبقي في هذه المرتبة حتى عام ١٨٨٩ فحسب حينما شيد برج إيفل في باريس، لكن الأثر بقي أطول بناء صخري في العالم وأطول بناء في واشنطن حتى الآن، بفارق أكثر من مائتي قدم عن المبنى الثاني طولا في واشنطن ويبلغ ارتفاعه ٣٢٩ قدما، ويحتل مبنى الكابيتول -مبنى الكونجرس بمجلسي النواب والشيوخ- المرتبة الرابعة.

بدأ بناء الأثر في الرابع من يوليو عام ١٨٤٨- عيد الاستقلال الأمريكي، ولم يكتمل بناؤه قبل عام ١٨٨٤، بسبب الحرب الأهلية الأمريكية، وقد صممه الأمريكي روبرت ميلز.

لم أكن أعرف كل هذا والمصعد يحملني مع مجموعة من السياح إلى أعلى الأثر..المصعد بطيء نوعا ويستغرق نحو

دقيقتين أو ثلاث قبل أن تجد نفسك في الطابق الأخير من الأثر..تخرج من المصعد لتختار واحدة من النوافذ الزجاجية لتقف خلفها تتأمل واشنطن من أعلى قممها.

هنا لا بد أن تعترف بالموقع العبقري الذي يحتله أثر واشنطن..أنت في قلب واشنطن مباشرة..كل نافذة من نوافذ الطابق الأخير للأثر تكشف لك جانبا من نواحي المدنية بحيث ترى العاصمة واشنطن دي سي أمامك ممتدة بالكامل على مرمى البصر..من هذه النافذة ترى البيت الأبيض من عل، فلا تصدق أن هذا الصندوق الأبيض الصغير هو أهم قصر رئاسي يتحكم في مصائر العالم..

وكل معالم واشنطن تراها من عل بوضوح تام..الطرق ترتسم أمامك كخريطة مجسمة تتأملها بهدوء..ترى نهر بوتوماك بفروعه وجسوره.. ترى متاحف السميثسونيان كلها..ترى متحف الهولوكوست..مبنى الكونجرس..حتى مبنى البنتاجون - وزارة الدفاع الأمريكية- يبدو مجسما بشكله الخماسي..حتى الأثر التذكاري للحرب العالمية الثانية يبدو شديد الروعة من عل بنوافير المياه التي لا تتوقف لحظة.

من عل تتأكد أن هذه المدينة مقسمة بنظام دقيق..المساحات الخضراء شاسعة حقا..الطرق تمتد كخطوط رفيعة بين كتل المباني..هذه المدينة جميلة بحق، والفارق بينها وبين نيويورك ضخم للغاية..أغلب المباني هنا صغيرة لا تتعدى طوابقها

العشرين طابقا بالكثير..الزحام هنا أقـــل كـــثيرا..الأشـــجار والمساحات الخضراء تجدها هنا وهناك بينما تتركز في حديقـــة واحدة هي سنترال بارك في نيويورك..

وعلى جدار الأثر تقرأ كلمات جورج واشنطن التي قالهـــا قبل مائة عام من بناء الأثر:

"أمنيتي الأولى أن أرى العالم كله في سلام، وأن يحيا سكانه كمجموعة واحدة من الأشقاء يكافحون من أجـــل ســـعادة الجنس البشري".

وللأسف ليت واحدا من خلفاء جورج واشنطن يكلـــف نفسه بعض العناء ويسير بضع دقائق من البيت الأبيض إلى أثر واشنطن ليقرأ هذه الكلمات التي قالها أول رئيس أمريكي قبل ثلاثمائة عام، وللأسف لم يجلب خليفته الأخير سوى التعاســـة والدمار والحروب إلى العالم.

٤

هولوكوست..هولوكوست!

أمام المدخل توقفت..الزوار كثيرون لذلك ينبغي أن تأخـــذ دورك في الصف.. تعبر البوابة الإلكترونية حيث يتم تفتيـــشك بعناية..في هذا المتحف بالذات تزداد الإجراءات الأمنية عن أي متحف آخر..حينما تبدأ السير في القاعة الأولى ستطالع عيناك زوارا من كل أنحاء العالم..سترى في عيونهم تعاطفا بلا حدود، وقد ترى الحزن قد كسا ملامح بعضهم ولا بـــأس بدمعـــة أو دمعتين في عين أحدهم..مرحباً بك في متحف الهولوكوست!

بين الشارع الرابع عشر والشارع الخامس عشر في الاتجـــاه الجنوب الغربي -كما يحددون اتجاهات الشوارع في واشنطن- يقع المتحف الأمريكي لذكرى الهولوكوست بـــالقرب مـــن الناشيونال مول..إنه أشهر متـــاحف تخليـــد ذكـــرى محرقـــة الهولوكوست في العالم..أضخم دعاية سياحية ضد النازية وهتلر لصالح اليهود وحق إسرائيل في الوجود..قبلة السياح اليهود من قارات العالم الست..

شيد المتحف عام ١٩٩٣ بتمويل من الحكومة الأمريكيـــة وعدد من اليهود كان أبرزهم والمتحمس الرئيسي لبناء المتحف هو -صدق أو لا تصدق!- المخرج الأمريكي اليهودي "ستيفن سبيلبيرج" مخرج أفلام الفك المفترس وحديقة الديناصـــورات،

وقد زار المتحف حتى الآن أكثر من ٢٥ مليون زائر منـــهم ٨ ملايين طفل مدارس، حيث اعتادت المدارس أن تنظم رحلاتها إلى متحف الهولوكوست، كما أن الإحـــصائيات تؤكـــد أن ٩٠% من زوار المتحف ليسوا من اليهود، ولا ينصح الأطفال تحت سن الحادية عشرة بزيارة المتحف..الموقع الرسمي للمتحف على الإنترنت بثماني لغات مختلفة منها العربية، وقد زاره ١٥٠ مليون زائر خلال العام ٢٠٠٦، منهم مئات الآلاف من الدول العربية والإسلامية - كما يؤكد الموقع الإلكتروني في فخر.

الآن أتجه إلى مكتب الاستعلامات وآخذ تذكرة مجانية -كل التذاكر مجانية ويسمح لك بالتبرع لدعم المتحف- أصـــعد إلى الطابق الثالث مع أطفال المدارس الكثيرين من حـــولي الـــذين يرتدون زيا موحدا..والطـــابق الثالـــث عبـــارة عـــن قـــصة الهولوكوست في صور ومقاطع فيديو..عليك أن تقـــف أمـــام إحدى الشاشات مع الواقفين لتشاهد فيلما قصيرا عن مرحلة ما في قصة مذبحة الهولوكوست الطويلة، وتنتهي من الفيلم لتنتقل إلى شاشة مجاورة لتشاهد جزءا آخر وهكذا..والقصة طويلـــة ومليئة بالتفاصيل المثيرة..من صعود هتلر في الحـــزب النـــازي واعتلائه عرش ألمانيا ثم بدء معاداته لليهود..وتتـــوالى قـــصص معاناة اليهود..على كل يهودي أن يحمل نجمة يهودية مرسومة على صدره حتى يعرف الكل أنه يهودي..اليهود محرومون من حقوقهم..الاضطهاد يزداد ضدهم..تنـــدلع الحـــرب العالميـــة الثانية..أفران الغاز..حرق ستة ملايين يهودي خـــلال أعـــوام قليلة، منهم أكثر من مليون طفل..وننتقل إلى حكايات الناجين من الهولوكوست..الأفلام قمة في الإثارة والبراعة في الإعـــداد

والتصوير والإخراج والمونتاج، وبذل فيها جهدا خرافيا لإثارة تعاطف المشاهدين إلى أقصى درجة حتى إنك قد ترى الدموع في عيون بعض الزوار، وهم يدخلون قاعة الفيديو يشاهدون الفيلم، أو يتنقلون بين الشاشات مشاهدين مقاطع الفيلم التسجيلي أو متأملين صور ضحايا هتلر.

الطابق الثاني هو الأكثر إثارة وتأثيرا في النفس وإثارة لتعاطف الزوار..القسم اسمه "تذكر الأطفال.. قصة دانيال"..خذ نفسا عميقا وتأهب لما ستراه الآن..ادخل معي من المدخل الضيق لتدلف إلى بيت الطفل الألماني دانيال، لتشاهد مأساته وتقرأ يومياته وتتعرف قسوة هتلر وشروره في التعامل مع الأطفال اليهود..في المدخل تشاهد معي فيلما قصيرا يوضح مأساة الأطفال اليهود في ألمانيا النازية، وفي هذا القسم قصة تخيلية للطفل الألماني دانيال الذي واجه الاضطهاد كطفل يهودي، ويدعوك الفيلم إلى تأمل مترل دانيال قبل وبعد اندلاع الحرب العالمية..ثم ينتهي الفيلم وندخل إلى مترل دانيال الجميل قبل اندلاع الحرب العالمية..المترل جميل منظم وبسيط..نرى حجرة دانيال المرتبة بأناقة ونرى لعبه ودميته..يومياته موجودة في الجوار يمكنك أن تقف وتقرأها معي..يبدو أن دانيال يحيا حياة ممتعة حقا..تقترب من فراشه فتسمع صوت ضحكته تنطلق من مكان ما، وترى صورته مع والده ووالدته معلقة على الحائط..جميل..جميل..الآن دعنا ندخل البيت التالي.

البيت التالي غرفة واحدة فقيرة قذرة..فراشان صغيران وأدوات مبعثرة..هذا هو بيت دانيال بعدما بدأ اضطهاد هتلر لليهود..صورة دانيال وأسرته ممزقة..دمية دانيال

محروقة..صفحات اليوميات تنطق بالعذاب اليومي الذي يعيشه دانيال..ترى قميصه معلقا وعلى صدره النجمة السداسية لتدل للكل على أنه يهودي..تقرأ في يوميات دانيال: أجبروني علـــى ارتداء هذه النجمة في المدرسة..ما ذنبي أنا؟

عندما تخرج من قسم "دانيال" غارقا في خواطرك الـــسوداء متعاطفا بشدة مع الطفل دانيال، تصل إلى القاعة التذكارية التي ترى فيها قصاصات الورق التي كتبها ورسمها زوار المتحـــف لدانيال ولغيره من مئات الآلاف من أطفال اليهود الذين قتلهم هتلر..اقرأ معي رسمة حزينة لطفل كتب فيها: "لا تحـــزن يـــا دانيال.. كلنا معك"..ستقرأ كثيرا وكثيرا لتدرك مدى تعاطف الزوار مع دانيال واليهود عامة..جاء دوري لأترك شـــيئا مـــا لدانيال فالتقطت القلم وكتبت له:"إنني متعاطف معك بشدة يا دانيال..يبدو أن اليهود قد عانوا كثيرا، لكن ما ذنب زملائك من الأطفال في فلسطين كي يدفعوا ثمن هـــذه المعانـــاة؟"..ثم تركت قصاصتي، ونزلت إلى الطابق الأرضي..

***

صورة لثعبان ضخم يلتهم نجمة داوود، وجوارهـــا عبـــارة "كذبة خطيرة"..وفي لوحة أخرى نقرأ عن التهديـــد الأعظـــم لليهود..اللوحة تقول إن ثم كتابا اسمه (بروتوكولات حكمـــاء صهيون) ظهر في روسيا عام ١٩٠٥، يصف خطط قادة اليهود لحكم العالم عن طريق السيطرة على الاقتصاد والإعلام وإثـــارة

النزاعات الدينية، ورغم أن أصل الكتاب غير معروف فإن ترجمات عدة ظهرت بلغات مختلفة للكتاب منها ترجمة عربية في بداية العشرينيات..في مكتبة زجاجية غيرها تجد كتبا من الترجمات المختلفة للبروتوكولات بينها الترجمة العربية والفارسية..في لوحة أخرى تقرأ بالحرف الواحد: "لاقت بروتوكولات حكماء صهيون اهتماما كبيرا في العالم العربي والإسلامي من قبل قادة الحكومة لاستغلالها كسبب لارتكاب جرائم العنف ضد اليهود ودولة إسرائيل، كما تدرس كثير من الكتب المدرسية البروتوكولات كحقائق، وانتقلت البروتوكولات إلى خطابات القادة وحتى رسومات الكارتون للأطفال، وفي عام ٢٠٠٢ مولت الحكومة المصرية مسلسلا تليفزيونيا مستمدا من البروتوكولات، في خطوة أدانتها الحكومة الأمريكية، كما استغلت حركة حماس الفلسطينية البروتوكولات كمبرر لاستخدام الإرهاب ضد المدنيين الإسرائيليين".

صعد الدم إلى رأسي وأنا أقرأ هذه السطور وأصورها بالكاميرا غير مصدق هذا الهجوم المباشر على حكومة بلدي، وقد خمنت أن النص يقصد مسلسل "محمد صبحي" الشهير..هذه اللوحة معلقة في قلب متحف الهولوكوست يراها ملايين الزوار وسيراها ملايين آخرون من زوار المتحف!

في مكتبة الهدايا التذكارية يمكنك أن تبتاع كتابا عن الهولوكوست أو شيئا يخلد ذكرى الضحايا الأبرياء من اليهود

الذين قتلهم هتلر..وعادة ما توضع هديتك في كيس يحمل عبارة "تذكر الأطفال" أو "فكر فيما رأيت"، وعندما تغادر المتحف كله تجد العبارة الأخيرة محفورة ببنط ضخم على جدار المتحف..فكر فيما رأيت..لابد أن تفكر فيما رأيت!

وفعلا كنت مشغولا بالتفكير فيما رأيت..كل هذا الكم من التأثر والبراعة والدعاية لضحايا الهولوكوست الذين لقوا مصرعهم قبل أكثر من نصف قرن..ماذا فعلنا نحن العرب لضحايانا الذين يسقطون يوميا في فلسطين والعراق؟..ماذا فعل العالم لآلاف الضحايا الذين قتلهم الصهاينة في فلسطين منذ انتهت معاناة اليهود مع النازية وبدأت معاناة العرب مع الصهيونية؟..ماذا فعل العالم لثمانية آلاف مسلم قتلهم الصرب في البوسنة في ثاني أكبر مذبحة تشهدها أوروبا في العصر الحديث بعد الهولوكوست؟..هل خلد ذكراهم في متحف كهذا الذي زرته في واشنطن؟

خرجت إلى شوارع واشنطن حالما بمتحف ضخم لضحايا الصهيونية تموله الحكومة المصرية أو ثري عربي نشيده في قلب القاهرة نخلد به ذكرى ضحايانا، كما فعلت الحكومة الأمريكية وكما فعل "سبيلبرج" المخرج اليهودي المتحمس لتخليد ذكرى المحرقة..ثمة بارقة أمل قرأت عنها فيما بعد، إذ أنشأ إسلام أون لاين متحفا مماثلا لما حلمت به لكن في الخيال فحسب..المتحف شيده إسلام أون لاين في عالم الحياة الافتراضية على موقع الإنترنت الشهير Second life،

والسؤال هو: متى ينتقل هذا المتحف من عالم الخيال إلى أرض الواقع؟

دع العرب يبحثون عن الجواب بينما ملايين من زوار متحف الهولوكوست يفكرون..يفكرون فيما رأوه!

٥

ذات مرة في الكونجرس!

عندما قررت أن أزور واشنطن دي سي، كان لدي حلم صغير..أن أدخل البيت الأبيض وأسير في طرقاته البيضاء حتى أصل إلى المكتب البيضاوي الشهير، حيث يوقع السيد "بوش" قرارات الحروب، ثم أملّ سريعا من زيارتي للبيت الأبيض فأتركه وأتجه إلى مبنى الكونجرس لأدور فيه قليلا قبل أن أطلع إلى البنتاجون..كانت هذه سلسلة من الأحلام الغريبة لكن واحدا منها على الأقل تحقق..لقد زرت الكونجرس!

كل شيء متاح في أمريكا حتى زيارة البيت الأبيض..وليس من السهل أن ترتب رحلة داخل البيت الأبيض بسرعة، فطلب الرحلة لابد أن يرسل مقدما قبل الرحلة في مدة من ستة أشهر إلى شهر على الأقل، من خلال أحد أعضاء الكونجرس، والطلب لابد أن يكون لمجموعة لا تقل عن عشرة أفراد..لذا استحال أن ننظم رحلة للبيت الأبيض، ونحن الذين قررنا أن نزور واشنطن قبل أسبوع فحسب!

لكن ماذا عن زيارة الكونجرس؟..كانت مسز "بيث" مدير مكتب الطلبة الدوليين في جامعة نيوبولتز قد أجرت اتصالاتها مع سيناتور الولاية في الكونجرس، ورتبت لنا زيارة إلى مبنى الكابيتول، وحددت لنا موعدا في التاسعة صباح يوم الخميس

مع سكرتير السيناتور ليقابلنا أمام المبنى الشهير، ويصطحبنا في جولة داخله.

في الثامنة والنصف تحركنا من الفندق وانطلقنا على وجه السرعة في شوارع واشنطن حتى لاح أمامنا مبنى الكابيتول، وواصلنا السير مسرعين حتى التقينا بالسيد السكرتير، وكان شابا أمريكيا وسيما راح يتعرف بنا.

عند مدخل الكابيتول وزعت علينا بطاقات تحمل أسماءنا ووقفنا في صف طويل للزوار الذين يحملون تصريحا بالدخول، وقالت التعليمات إننا لن يسمح لنا بالدخول حاملين أية مسحوقات أو سوائل..الأمر لا يشكل أية مشكلة لي طبعاً؛ لأني لا أحمل سوى حافظة نقودي وكاميرتي الرقمية، لكنها مشكلة ضخمة للفتيات طبعا..ودخلنا إلى الكابيتول..

عن يمين الناشيونال مول يقع مبنى الكابيتول أشهر مباني واشنطن بعد البيت الأبيض، ويعد المبنى هو نقطة المركز التي قسمت منها مقاطعة كولومبيا رغم أنه لا يقع في مركزها بالضبط، لذلك ترى الشوارع في واشنطن تحمل أسماءها بالإضافة إلى حرفين إنجليزيين اختصارا للجهات الفرعية مثل شمال شرق، شمال غرب، جنوب شرق، جنوب غرب. وكل هذه الاتجاهات بالنسبة لموقع الكابيتول.. صمم المبنى المهندس الأمريكي "ويليام ثورنتون"، وإن كان تصميمه قد عدل بعدها، وبدأ تشييده في ١٩ سبتمبر

١٧٩٣..كل الغرف في مبنى الكابيتول مصممة لتأخذ شـــكل الحرفين اللاتينيين إتش H أو إس S نسبة لكلمتي ســـينات أو هوس الإنجليزيتين..

عندما تدخل إلى القاعة الكبرى في الطابق الأول من المبنى، والتي تتوسطها القبة العملاقة المميزة لمبنى الكونجرس، تشعر أنك قد دخلت متحفا للتاريخ الأمريكي..ترى مختلـــف التماثيـــل للقادة والرؤساء الأمريكان. تماثيل بيضاء جميلة مصنوعة بدقـــة متناهية كالعادة..والتماثيل قد وزعت هنا وهناك على جوانب القاعة الدائرية الكبيرة..لوحات الزيت الضخمة الـــتي رسمهـــا أشهر فناني أمريكا تزين الجدران..

ورحنا نسير خلف مرشدنا في قلب مبنى الكابيتول، نلقـــي النظرات على مقاعد غرفة اجتماعات النواب القديمة، ونلـــتقط من الصور ما نشاء حتى جـــاء موعـــدنا مـــع قاعـــة نـــواب الكونجرس..هنا لابد أن نتوقف ونسلم الكاميرات والحقائـــب إلى رجال الأمن..لا مزيد من التصوير في هذه القاعة!

ولا أدري لماذا يمنعون التصوير في هذه القاعة بالذات رغـــم أن كل شيء مسموح فيه التصوير؟..قليلة هي المـــرات -بـــل نادرة- التي سمعت فيها رجل أمن يقـــول لنـــا إن التـــصوير ممنوع..فالكاميرا في كل يد تلتقط الصور دون مـــشاكل.. إلا هذه القاعة!

بعد قليل انتهت جولتنا في مبنى الكابيتول..ودعنا السكرتير الشاب، وصرنا طلقاء من جديد..أعتقد أنه قد حان موعـــدنا الآن؛ لأن نترك الكونجرس كما كنت أسميه أو مبنى الكـــابيتول كما يسميه الأمريكان..دعونا الآن نسير قليلا حتى نبلغ مـــبنى

مكتبة الكونجرس الشهيرة جدا..دعونا نقترب بحذر ونصعد سلالمها الطويلة لنلقي السؤال المعتاد: هل بوسع العامة دخول المكتبة؟

***

تعد مكتبة الكونجرس هي أكبر مكتبات العالم، ففيها ما يقرب من ٣٢ مليون كتاب ومطبوع بحوالي ٤٧٠ لغة مختلفة، بالإضافة إلى ٦١ مليون مخطوطة أخرى..

أنشئت المكتبة في ٢٤ أبريل ١٨٠٠ حينما قرر الرئيس الأمريكي "جون آدمز" نقل مقعد الحكومة من فيلادلفيا إلى العاصمة الجديدة واشنطن..تعرضت المكتبة للدمار الشامل في أغسطس ١٨١٤ حينما استهدفتها قوات الاحتلال الإنجليزي مع مبنى الكابيتول، فاحترقت المكتبة بكل كتبها، لكن مديرها السابق "توماس جيفرسون" قدّم للمكتبة مجموعته الخاصة الفريدة من الكتب -أكثر من ستة آلاف كتاب جمعها خلال خمسين عاما- إلى مكتبة الكونجرس وقبل الكونجرس عرضه في يناير ١٨١٥ مقابل حوالي ٢٣ ألف دولار! لكن المكتبة لم تسلم من الكوارث، إذ تعرضت لحريق ضخم في ٢٤ ديسمبر ١٨٥١ التهم ثلثي محتوياتها من الكتب -حوالي ٣٥ ألف كتاب-..تقع المكتبة حاليا في ثلاثة مبان هي: "توماس جيفرسون" -المبنى الأضخم والأشهر-و"جون آدمز"، والمبنى التذكاري لـ "جيمس مادسون"..

هذه المعلومات تقرأهـا في المنـشورات الـتي تجـدها في المدخل..أنت تقف في صف أمام المدخل لتعبر خلال البوابـة الإلكترونية، وتدخل بقدميك أكبر مكتبات العالم..المفاجأة أنه لا يمكنك أن تدخل غرف القراءة إلا إذا كنت تحمـل بطاقـة القراءة..لذلك لم تسمح لي جولتي داخل مكتبة الكـونجرس أن أدخـل إلى قاعـات القـراءة أو أرى مجموعـات الكتـب الضخمة..فقط تجولت في مبنى "تومـاس جيفرسـون" المـبنى الأضخم والأشهر..

سرت قليلا في طابقه الأول أتأمل الجدران الضخمة البيضاء واللوحات الكبيرة وصعدت إلى الطابق الثاني..سرت قليلا هنا وهناك، ورأيت الناس ملتفين حول نسخة قديمة من الكتـاب المقدس، فوقفت معهم أتفرج عليها وأصورها..

كان لدي ثم أمل أن أدخل صالة القراءة، لكني اكتـشفت استحالة ذلك دون أن أحمل بطاقة العضوية، لكـن كـل مـا استطعت فعله هو أن أنظر إلى رواد المكتبة من خلـف بـاب زجاجي رأيت منه بعض مجموعات الكتب..وهكذا أمـضيت حوالي نصف الساعة أجوب طرقات أكبر مكتبات العالم قبـل أن أغادرها محبطا دون حتى أن ألمس فيها كتابا واحدا اللهم إلا تلك النسخة الأثرية من الكتاب المقدس!

٦

المركز الإسلامي..

صلاة الجمعة بره وجوه!

كنت مرهقا بشدة.. أمضيت اليوم بأكمله أجوب شوارع واشنطن وزرت متاحف السميثونيان ثم عـدت للفنـدق في حوالي السادسة مساء لآكل شيئا وأشاهد نشرة الأخبار..بعـد ساعتين من الراحة قررت أن أنزل من جديـد..كـل سـاعة نقضيها في الفندق لها ثمنها، وبالتالي كل ساعة في هذه المدينـة لها ثمنها أيضا..لا وقت لمزيد من الراحة..لا بد أن أبدأ مغامرة جديدة..لأقوم بإلقاء نظرة على المركز الإسلامي في واشـنطن دي سي!

وكالعادة كنت قد أعددت كل شيء..العنوان كتبته مـن الإنترنت بدقة..٢٢٥١ ماساتشوسيتش أفينو..استعنت بموظف الاستقبال في الفندق لأحدد موقع المركز على الخريطة..وضعت الخريطة في جيبي بعد أن درست الطريـق جيـدا، وبـدأت رحلتي..إنه الليل..واشنطن تبدأ ليلها الطويل الهادئ..حركـة المرور تقل..الهواء يأتي منعشا جميلا..

بعد نصف ساعة من السير طالعت مبنى السفارة التركيـة، وجوارها مباشرة رأيت المئذنة الضخمة..ولم أصـدق عـيني

للوهلة الأولى..ها هو ذا مسجد ضخم يقف بكل كبرياء في قلب هذا الحي الراقي الهادئ في قلب واشنطن، وسط عدد من السفارات الأجنبية وعلى الطريق الرئيسي مباشرة..المسجد ضخم ترتفع فوقه مئذنة عالية -لا يسمح طبعا بانطلاق الأذان منها، وتعلو أمام مدخله أعلام عدد من الدول العربية والإسلامية..

دخلت..خلعت حذائي ووضعته أمام الباب ودخلت متوكلا على الله..ولم أصدق عيني من جديد..كأنني انتقلت فجأة من عالم إلى عالم آخر تماما..هذا مسجد بحق..مسجد بكل ما تعنيه الكلمة من معان..أناس يصلون..أناس يقرأون القرآن..زخارف إسلامية..لوحة بمواعيد الصلاة..لن يمكنك أبدا أن تتخيل إحساسي إلا إذا مررت بهذه التجربة بنفسك..لقد قضيت أكثر من شهرين في مدينتي الصغيرة نيوبولتز دون أن أدخل مسجدا..فقط كنا نكتفي بالصلاة معا نحن الطلبة المسلمين، ونقوم بحجز إحدى غرف مبنى اتحاد الطلبة لنصلي الجمعة معا..شهران كاملان نمارس طقوسنا الدينية وحدنا أو معا، محاولين أن نحافظ على هويتنا في هذا المجتمع الغربي..وها أنا الآن أرى أمام عيني مسجدا يملؤه المسلمون، عربا كانوا أو أمريكان أو من أية جنسية كانت، وكأنني في الأزهر أو الحسين، وليس في قلب واشنطن.

كان المصلون قد انتهوا من صلاة العشاء، لكنني كنت مصرا على الصلاة..نزلت للطابق السفلي حيث غرف تحفيظ القرآن

ودراسة اللغة العربية وقاعة الفيديو والحمامات..توضأت وصعدت إلى المسجد من جديد..صليت العشاء ثم اتخذت جانبا لأقلب في المصاحف..مصاحف مترجمة إلى الإنجليزية والفارسية والتركية..رحت أقلب فيها مبهورا قبل أن ألتقط مصحفا عربيا وأقرأ سورة يس وقد شعرت بأنني طفل ضال اهتدى أخيرا إلى بيته..كنت سعيدا..سعيدا بشدة!

عندما خلا المسجد من المصلين التقطت عددا من الصور في خفاء، ثم غادرت المسجد وتجولت حوله..كانت هناك مكتبة إسلامية جواره، وغرفة الإدارة حيث يوجد مشرف المسجد وماكينة بنك خاصة لرواد المسجد تسحب نسبة تبرع للمسجد.. بعد دقائق غادرت المسجد وقد تملكني شعور غامض بالراحة..وعقدت العزم أن أصلي الجمعة في هذا المسجد..لا بد أنها ستكون تجربة فريدة!

***

كان القرار الذي اتخذته غريبا حتى بالنسبة لي..لقد ودعت زملائي في صباح الجمعة بعد أن حان موعد مغادرتنا للفندق والرحيل إلى نيويورك سيتي ومنها إلى نيوبولتز حيث ندرس ونقيم..لكنني ودعتهم وقلت لهم: مع السلامة..سألحق بكم الليلة..مازال لدي ما أفعله هنا في واشنطن..وتركتهم يغادرون الفندق لأظل وحدي هنا في هذه المدينة..حينها فقط شعرت بالغربة..لقد تركني رفاقي المصريون وحدي في هذه المدينة التي

لا أعرف فيها أحدا..على أن أخطط كل شيء بنفسي..الليلة سأقطع طريق العودة الطويل وحدي..لا بأس..لا بأس..المهم ألا أضيع هذه الفرصة الذهبية..صلاة الجمعة جماعة في المركز الإسلامي في واشنطن!

تركت حقيبتي في مكتب استقبال الفندق بعد أن غادرت غرفتي..أخذت رقم السفارة المصرية -كإجراء احتياطي لا فائدة منه- وتأكدت من طريقي من موظفة الاستقبال الحسناء، التي يبدو أنها انتابها القلق لأنني لم أغادر المدينة مع رفاقي، فبدوت لها من كثرة أسئلتي بشأن الطريق ومحطات المترو ومواعيد مغادرة الباص إلى نيويورك مغتربا يمكن أن يضل طريقه في أية لحظة، فأعطتني كارت الفندق بأرقام تليفوناته وطلبت مني أن أتصل بهم إذا ضللت طريقي..هذه الفتاة مهذبة بحق..ابتسمت لها طالبا منها ألا تقلق بشأني..مستحيل أن أضل طريقي يا سيدتي..لقد ضللت طريقي لتوي ليلة أمس، وقضيت ليلة سوداء وحدي في شوارع واشنطن، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين!

بعد نصف ساعة كنت أمام المركز الإسلامي من جديد..لاحظت وجود ضابط شرطة أمريكي يقف أمام المسجد..الساعة الواحدة والربع..المسجد ممتلئ تقريبا..ذهبت للوضوء واتخذت مكاني وسط المصلين أنتظر الأذان، أنقل نظري بين وجوه المصلين..وجوه من مختلف الأعراق..أميز وجوها شرق أوسطية الملامح..شرق أسيوية الملامح..أوربية

الملامـــح..مختلـــف الجنـــسيات..أطفـــال بـــصحبة آبائهن..شباب..شيوخ..

في الواحدة والنصف تماما علا صوت المؤذن داخل المسجد – داخــل المــسجد فحـــسب طبعـــا، ثم بـــدأت خطبـــة الجمعة..الخطيب يتحدث بالعربية ويبدو أنه عـــربي الأصـــل، ويستعين بورقة كتب فيها نص خطبته..البعض يفهم والـــبعض الآخر لا يفهم سوى أسماء "النبي محمد صلى الله عليه وســـلم" وأسماء الصحابة وعبارات "سبحان الله" و"ما شاء الله" وغيرها من العبارات التي لا تترجم ويعرفها المسلمون عامـــة..الخطبـــة تتحدث عن أخلاق النبي محمد- صلى الله عليه وسلم..لم يطل الجزء الأول من الخطبة كثيرا، قبل أن يبدأ الخطيـــب الخطبـــة القصيرة فإذا هي باللغة الإنجليزية وتقـــدم ملخـــصا للخطبـــة الأولى..ثم بدأت الصلاة.

انتهت الصلاة و لم يتحرك أحد ليترك المسجد..الإمام يبـــدأ في قراءة أخبار الجالية بسرعة.. فلان توفت والدته..علان تبرع بكذا..فلان آخر بحاجة إلى كذا وكذا..ثم الخبر السعيد..لـــدينا مسلم جديد أيها السادة..كان اسمه مارك..تعال يا مارك..

وأمام عيوننا تقدم شـــيخ أمريكـــي أبـــيض الـــشعر إلى الإمام..الإمام يقول إن مارك أعلن إسلامه وســـيقوم بـــتلاوة الشهادة الآن..وعلا صوت الإمام يلقنه أن "لا إلـــه إلا الله وأن محمدا رسول الله" ومارك يرددها وراءه ثم يترجم الإمام المعـــنى

له، قبل أن يضج المسجد بصيحات التكبير..وأخيرا أعلن الإمام أن مارك صار اسمه "أنس" وشرح: هذا اسم أحد أسماء الصحابة -يقصد أنس بن مالك رضي الله عنه، وأن مارك سيتلقى دروسا دينية في المركز الإسلامي خلال الأسابيع التالية..

أقبل الجميع على مارك أو أنس يصافحونه ويتحدثون معه..يسألونه عما عرفه عن الإسلام، فيقول إنه قرأ عنه كثيرا..ويبتسم الرجل وقد رأى الفرحة في عيون من حوله، والكل يتسابق إلى مصافحته بحرارة.

غادرت المسجد لأكتشف طقسا جديدا من طقوس الصلاة ههنا..الغداء يوزع مجانا عقب الصلاة..في الفناء الخالي ملحق بالمسجد وضعت موائد كبيرة، ووقف القوم في صف طويل ملتف أمام منفذ توزيع الطعام..أما الطعام فهو نصف دجاجة وبعض الأرز لكل واحد..وبالهناء والشفاء!

***

عندما غادرت المسجد لاحظت شيئا غريبا جدا..رأيت مجموعة من المصلين يفترشون الرصيف المقابل للسفارة التركية بجوار المسجد مباشرة، وأمامهم يقف خطيب يخطب فيهم بالعربية أيضا..صلاة جمعة أخرى إذا؟..لماذا لم يصل هؤلاء القوم معنا في المسجد؟..سؤال لا بد أن أعرف إجابته..

اتجهت إلى بائع يبيع كتبا إسلامية أمام المسجد وسألته..ابتسم وقال لي إن هؤلاء المصلين يبغون الاستماع إلى هذا الخطيب دون سواه، ثم إن الخطيب من الشيعة..من الشيعة؟..نعم..يفضل أهل السنة أن يصلون مع الخطيب السني في المسجد، بينما يفضل الشيعة الصلاة مع الخطيب الشيعي في الخارج..ألا تمانع السلطات الأمريكية؟..لا إطلاقا..فقط على المصلين أن يلتزموا بالرصيف وألا يسدوا الطريق..وأضاف الرجل: بعض المصلين ينتهون من الصلاة في المسجد ويخرجون يصلون أيضا في الخارج..البعض يفضل هذا الخطيب لفصاحته وجرأته في تناول القضايا المختلفة..سألته: هل يمكن للسنة والشيعة أن يصلوا معا؟..أجاب: إننا نصلي لرب واحد..الخلاف يقع عندما نتكلم عن اختلافاتنا..

تركته لأراقب القوم الذين بدأوا في الصلاة أمامي..انتهت الصلاة وتجمع البعض حول الإمام يتحدثون معه..اقتربت منهم أستمع إلى ما يقولونه، فتقدم مني أحدهم وصافحني..كان سوريا يعيش هنا في واشنطن اسمه وسام..سألني عن رأيي في الخطبة فقلت له إنني صليت في المسجد و لم أتابع الخطبة..قال لي دعنا نتحدث إلى الخطيب..ودخل إلى الدائرة الملتفة حول الخطيب يتناقشون معه في موضوع خطبته. تركتهم وداخلي أسئلة كثيرة..هل الخلاف بين السنة والشيعة وصل إلى واشنطن؟

***

بعد شهر من هذه الواقعة وجدت إجابة لتساؤلاتي بالمصادفة البحتة.. كنت في مدينة نيوراك في نيوجيرسي أمثل جامعتي في مؤتمر رابطة الطلبة المسلمين لطلاب شرق أمريكا..بالمصادفة كان وسام أيضا ممثلا لجامعة جورج تاون في المؤتمر..قابلته وصافحته..في اليوم التالي جاءت الفرصة لنقف معا قليلا، فانتهزت الفرصة لأسأله عن حقيقة ما رأيته في المركز الإسلامي في صلاة الجمعة، وكنت أشك في كونه شيعيا..

حكى وسام لي الحكاية باختصار..كاد هذا الخطيب الإيراني -الذي يصلي بالناس في الخارج- أن يكون إمام المسجد منذ نحو ربع قرن، لكن لجرأته الشديدة في تناول قضايا الأمة الإسلامية تم عزله من منصبه، وجيء بإمام آخر للمسجد يتحدث في أمور دينية عادية، رغم أن الخطيب الإيراني أكثر فصاحة وبلاغة وثقافة عمن سواه..وهكذا منذ ذلك الحين صارت هناك صلاتان جمعة في نفس التوقيت.. إحداهما تدور داخل المسجد والأخرى يؤمها الخطيب الإيراني خارج المسجد بجمهوره المعجب بموهبته الخطابية..

اكتفى وسام بهذا القدر، و لم يذكر شيئا عن السنة أو الشيعة..واكتفيت بدوري و لم أطرح مزيدا من الأسئلة على أمل أن أجد جوابا وافيا على لسان أحد مسلمي واشنطن دي سي فيما بعد.

فيما بعد اكتشفت سر هذا اللغز الذي يشغل كل زوار المركز الإسلامي من مسلمي العالم، إذ وجدت مقالا بالإنجليزية على الموقع الرسمي للمركز الإسلامي يوضح سر هذا اللغز بتفاصيله..والحكاية ترجع إلى عام ١٩٨٣ حينما تسببت خلافات كثيرة بين مسلمي واشنطن وتدخلات السفارة السعودية إلى تفجر هذه الأزمة، حينما ألقت السلطات القبض على إمام المسجد محمد العاصي، والحكاية طويلة وأكثر تعقيدا من ذلك، لكن النتيجة يعرفها كل مسلمي واشنطن ويرضون بها منذ الثمانينيات، تثير دهشة غيرهم من المسلمين الذين يمرون لأداء صلاة الجمعة أو صلاة العيد فيفاجأون بوجود صلاتين في نفس الوقت إحداهما داخل المسجد والثانية خارجه أمام السفارة التركية..والاتحاد قوة!

٧

واشنطن – فيرجينيا

للمترو في واشنطن سحر خاص..شبكة المترو معقدة ومتشابكة للغاية تنقلك بين ضواحي واشنطن إلى أحياء فيرجينيا تحت نهر بوتوماك الذي يفصل بينهما..خمسة خطوط مترو متقاطعة بشكل معقد للغاية ولابد أن تحمل معك خريطة لمحطات المترو حتى لا تضل طريقك بين محطات المترو..ولابد أن تنتبه جيدا للون قطار المترو الذي ستركبه..هناك خمسة خطوط بخمسة ألوان مختلفة..أحمر وأصفر وأزرق وأخضر وبرتقالي.

وبينما كان سعر تذكرة المترو الذي ركبته في نيويورك وبوسطن موحدا، دولارين لتذكرة الطريق الواحد وأربعة دولارات لتذكرة الذهاب والإياب، فإن سعر تذكرة المترو في واشنطن كان يختلف حسب قرب أو بعد المحطة التي ستركب إليها..كما يختلف السعر في أوقات الذروة حيث يزداد عشرين سنتا أو أكثر..حسب وقت الذروة!

كانت المفاجأة عندما اشتريت تذكرة ذهاب وعودة بأربعة دولارات كما اعتدت، واستخدمت التذكرة مرة بلا مشاكل، وحينما استخدمتها للمرة الثانية وجدت نفسي غير قادر على

الخروج من محطة المترو..فالبوابة الإلكترونية لا تقبل تـذكرتي وترفض السماح لي بمغادرة المحطة..أنا متأكد أنـي لم أخطـأ الحساب..استخدمت التذكرة مرتين فحسب، فلـم تعـاملني كنصاب يحاول مغادرة المترو بتذكرة منتهية أو زائفـة؟..ولأني على ثقة بموقفي فقد اتجهت إلى أحد ضباط المحطـة وأخبرتـه بالمشكلة، فقادني ببساطة إلى ماكينة صرف التذاكر في الجـوار ووضع التذكرة في فجوتها، ليظهر على الـشاشة مبلـغ "١٥ سنتا"، فقال لي: إنه وقت الـذروة..سـعر التـذكرة زاد ١٥ سنتا..ادفعهم!

فأخرجت عملتين معدنيتين من فئة العشرة والخمسة سنتات ودفعت بهما إلى الماكينة..لاحظ معي أن حجم عملة الخمـس سنتات أكثر ضخامة من العشرة سنتات، وكنت قد قـرأت في باب "صدق أو لا تصدق" في جريدة الأهـرام ذات مـرة أن عملة الخمسة سنتات يتكلف صنعها ثمانيـة سـنتات..المهـم استعدت تذكرتي بعد أن دفعت فارق الثمن، وخرجـت مـن المحطة لأكتشف أن المحطة تقع بالكامل تحت المـبنى الخماسـي الشهير..مبنى البنتاجون!

كانت المحطة نفسها تحمل اسم البنتاجون..ومخرج المحطة هو مدخل المبنى الأسطوري..وأمامه ترى العشرات مـن الجنـود والضباط الذين يحملون على أكتافهم النجوم والنسور..ضباط من مختلف رتب الجيش الأمريكي يدخلون ويخرجون من مـبنى البنتاجون، يخرجون أو يدخلون محطة المترو..وعلـى الجـدار

الضخم الذي يحمل حروف كلمة "بنتاجون"، تقـرأ العبـارة التالية: "في ذكرى هؤلاء الذين فقدوا أرواحهم في الحادي عشر من سبتمبر"..إنه ذلك الجانب من مبنى البنتاجون الذي تحطمت فيه طائرة الركاب الأمريكية التي استهدفت مبنى وزارة الدفاع الأمريكية يوم الحادي عشر من سبتمبر قبل سبعة أعـوام مـن الآن.

في اندهاش رحت أتحرك حـول المـبنى الضخم بكـل حرية..أين الإجراءات الأمنية؟..أين قوات الحراسة؟..لم أشاهد أي منها..و لم أندهش كثيرا هذه المرة، فقد رأيت البيت الأبيض أمس دون أن أرى سوى رجل حراسة واحد..لابد أنهم يثقون كثيرا في التكنولوجيا الحديثة وإجراءاتها الأمنية غـير المتاحـة للعيان..ابتعدت عن المبنى وتجاوزت ساحته المزدحمة بالسيارات، وصعدت تبة خضراء لأرى البنتاجون واضحا ورأيت ضـلعين كاملين من أضلاعه الخمسة، فرحت ألتقط له الـصور بكـل سهولة..وتذكرت لافتات "ممنوع الاقتراب أو التصوير" الـتي تراها أمام كل مباني المؤسسات العـسكرية في مـصر وأمـام معسكرات الجيش..ممنوع الاقتراب وممنوع التصوير..ألا يخشى الأمريكيون على مبنى وزارة دفاعهم كما نخشى نحن علـى أي معكسر من معسكرات الجيش نفرض حوله سياجا أمنيا عاليـا ونمنع الاقتراب منه أو حتى محاولة تصويره؟

ولدهشتي رأيت طائرات الركاب تحلق في سمـاء فيرجينيـا بالقرب من مبنى البنتاجون..رغم ما حدث في ١١ سبتمبر فإن

الطائرات لم تغير من مسارها ولا يزال بوسعها التحليق بحرية في سماء واشنطن وفيرجينيا..وها هي ذي طائرة ركاب قد انطلقت منذ دقائق من مطار رونالد ريجان -القريب جدا- وتبدأ رحلة صعودها أمام عينيّ ملقية السلام على مبنى البنتاجون.

هؤلاء الأمريكيون مخاطرون حقا!

***

قررت زيارة مدينة الإسكندرية الشهيرة التي تقع في فيرجينيا..والطريق الأسهل والأبسط هو المترو..فقط لابد أن تبقي خريطة المترو بين يديك وتلقي نظرة عليها من حين لآخر لتتأكد أنك في الطريق الصحيح..لاحظ أن خريطة المحطات ليست مطبوعة على جدار المترو كما هو الحال عندنا..كما يجب أن تكون يقظا لأنك ستبدل بين أكثر من خط مترو..بدأت الرحلة من محطة ماكفرسون في قلب واشنطن مستقلا الخط الأزرق – لابد أن تتأكد أنه اتجاه فرانسونيا وليس اتجاه لارج تون سنتر..بعد عشر محطات بالضبط تنتهي رحلتك مع الخط الأزرق لأنه آخر تقاطع مع الخط الأصفر، ولابد أن تترك الأزرق الآن وتستقل الأصفر..وبعد محطة أخرى ودعت المترو ونزلت كي ألقى السلام على..على الإسكندرية!

سرت كثيرا دون أن أرى شيئا مميزا..كانت أشبه بقرية صغيرة..البيوت بعيدة عن بعضها..لا شيء مميز..لا شيء يثير الدهشة أو الانبهار..هل هذه هي مدينة الإسكندرية عظيمة

الجمال التي حدثتني عنها السيدة الفترويلية التي جلست جواري في الحافلة المتجهة من نيويورك إلى واشنطن؟

و لم أجد شيئا أصوره سوى سيارة شرطة حملت عبارة "بوليس الإسكندرية"، عدت أدراجي من جديد إلى المترو إلى الخط الأصفر إلى الخط الأزرق..وفى محطة البنتاجون نزلت وقد قررت أن أبحث عن هدف لي في فيرجينيا قبل العودة من جديد إلى واشنطن!

وخطر في بالى أن أزور جامعة فيرجينيا تيك..و لم لا؟..هذه الجامعة اكتسبت شهرة عالمية بلا شك عقب الأحداث المأساوية التي جرت فيها العام الماضي..بدت لي الفكرة رائعة، لاسيما أنني اكتشفت محطة مترو تقع قرب نهاية الخط البرتقالي تحمل حرفي VT خمنت أنها ترمز إلى فيرجينيا تيك..وهكذا اتجهت إلى محطة الأتوبيسات العامة أمام مبنى البنتاجون وسألت موظف الاستعلامات عن الأتوبيس المتجه إلى هناك..وكنت قد قررت أن أجرب الرحلة بالأتوبيس بدلا من المترو..هذه تجربة جديدة!

بعد دقائق كنت في الأتوبيس ٣ الذي أخبرتني سائقته -نعم سائقته حيث أن كثيرات من النساء يقدن المركبات العامة هنا- أنه متجه إلى جامعة فيرجينيا..بعد دقائق اكتشفت أنها تقصد جامعة أخرى غير فيرجينيا تيك، وأخبرتني أن فيرجينيا تيك بعيدة جدا عنا هنا -فيما بعد عرفت أنها في بلاكسبرج، وهي

مدينة صغيرة تبعد عن العاصمة واشنطن نحـــو ٢٧١ مـــيلا أي أربع ساعات ونصف تقريبا بالسيارة طبقا لجوجل.

قررت أن أواصل معها الطريق بدلا من الـــترول..عـــددتها جولة سياحية في شوارع فيرجينيا حتى تنتهي رحلة الأتـــوبيس ويعود أدراجه إلى محطة البنتاجون.

مرة أخرى أصابني الإحباط، إذ بـــدت لي كـــل شـــوارع فيرجينيا متشابهة جدا لا جديد فيها على الإطـــلاق..المنـــازل تقليدية جدا ولا شيء يلفت النظـــر إليهـــا..الطـــرق عاديـــة جدا..الأحياء متناثرة والشوارع خالية مـــن المـــارة بـــشكل مستفز..لم أر متاجر أو أسواق أو ميادين كبرى..ترى كيـــف تبدو هذه الأحياء عند حلول الظلام؟

ومن التعب غفوت قليلا فكنت أستيقظ من حـــين لآخـــر لألقي نظرة على وجوه الركاب الأمـــريكيين الـــذين يترلـــون ويصعدون من محطة لأخرى..وفي النهاية عاد الأتوبيس أدراجه إلى البنتاجون، فترلت أنا أبحث عن مدخل محطة المترو تاركـــا فيرجينيا التي مللتها سريعا وعائدا إلى واشنطن التي لم أشبع منها بعد.

٨

تائه في واشنطن

الوحدة..قد تكون خيارك الوحيد للاستمتاع بوقتك أحيانا..

في تلك الليلة كنت قد سرت كثيرا في شوارع واشنطن وحيدا..بدأت رحلتي من الفندق في قلب وسط المدينة متجها صوب البيت الأبيض، ومنه سلكت شارع بنسلفانيا حيث يبدو مبنى الكونجرس واضحا مضيئا تماما في نهايته..بلغت الكونجرس و جلست قليلا في ساحته العريضة الممتدة من مبناه وحتى مبنى أثر واشنطن .

وعدت للمشي من جديد..كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساء، وكانت الشوارع تخلو رويدا رويدا لكنني لم أبال..ما دمت أسمع صفارات سيارات الشرطة تدوي من حين لآخر فلا مجال للخوف..كل شيء سيكون على ما يرام.

كانت المنطقة التي أعبرها الآن هي منطقة متاحف السميثونيان العامرة بالمتاحف المجانية، وهي منطقة تكون عامرة بالسياح صباحا وها هي خالية تماما ساكنة كالقبور ليلا..خالية حتى من أية حراسة أمنية ليلا..لا أعرف كيف يخاطر الأمريكيون بمتاحفهم إلى هذه الدرجة؟، ولكنني أقسم لك أن

المتاحف -بل وأغلب المدينة أيضا- تكون خالية من أية حراسة بشرية يمكن رؤيتها على الأقل ليلا..

ها هو أثر واشنطن من جديد..المسلة الضخمة تمتد عاليا مضيئة في ليل واشنطن الهادئ الجميل..كانت الساعة الآن الحادية عشرة والنصف مساء وكان ينبغي أن أبدأ رحلة العودة، لكنني كنت مصرا على أن أواصل التجوال..بدأت السير نحو الأثر التذكاري لضحايا الحرب العالمية الثانية الذي كنت قد رأيته في ضوء النهار، وخمنت أنه سيبدو أكثر روعة ليلا.

اتخذت طريقا ساكنا شبه مظلم على جانب البحيرة الصناعية الصغيرة متجها نحو الأثر التذكاري الذي يبدو مضيئا في نهاية الطريق..من جانبي يركض شابان أمريكيان متحمسان يمزحان بصوت عال ثم يختفيان في الظلام..ويعود السكون من جديد..

أخرجت الموبايل وشغلت أغنية لعمرو دياب تؤنسني في وحدتي هذه..كل شيء يدفعك للشعور للاستمتاع..الجو الجميل ونسمات بداية الربيع..الهدوء المخيم على المكان..ضوء القمر شبه المكتمل المنعكس على مياه البحيرة عن يمينك..وأضواء أثر واشنطن من خلفك وأثر الحرب العالمية من أمامك، فيما ترى أحد جسور واشنطن تعبر النهر عن يسارك..وصوت عمرو دياب يمزق سكون ليل واشنطن..لكنها الوحدة!

وقفت أمام الأثر التذكاري للحرب العالمية..ثمة بحيرة دائرية صغيرة تخرج منها عشرات النافورات الجميلات، وتحاط بسور متقطع إلى خمسين قطعة تحمل كل واحدة اسم واحدة من الولايات الأمريكية الخمسين.. لم أكن وحيدا هذه المرة لأني رأيت شابا وفتى يأخذان صورة أمام البحيرة تحت ضوء القمر.

واصلت السير..كان هناك ما يشبه متحفا صغيرا خلف الأثر تقود إليه سلالم عالية، ويبدو داخله تمثال ضخم لرجل يجلس على مقعد..أخرجت الخريطة من جيبي وعرفت أنه الأثر التذكاري لإبراهام لينكولن..حسنا، لم لا أزوره؟

وأمام الأثر الجديد كان هناك بعض الشباب هذه المرة..رأيت الشابين اللذين رأيتهما قبل قليل يركضان، وكانا بصحبة فتاة..وبمنتهى البساطة اندمج أحدهما مع الفتاة في عناق طويل وقبلات..لقد أخذ الفتى الطريق جريا من أجل لقاء عشيقته هنا وسط معالم واشنطن.

صعدت لألقي نظرة على الأخ لينكولن وحييته بصورة..هبطت من جديد أراقب العاشقين من بعيد حتى أخذها الفتى من يدها ورحلا..اقترب مني مجموعة من الشباب الزنوج يمزحون بصوت عال، فخفت و قررت أن أواصل رحلتي من جديد..الثانية عشرة مساء الآن.

على الخريطة أمامي أحاول أن أحدد موقعي.يمكنني الان أن أخوض تجربة جديدة وأعبر النهر إلى الجانب الآخر من واشنطن..إنها فيرجينيا..لم لا؟

بدأت مشوارا طويلا تجاه الكوبري..كنت أسير وحيدا عن يميني تماما النهر بلا أسوار أو فواصل، وعن يساري الطريق تمر عليه سيارة من حين لآخر..يبدو أن واشنطن تنام مبكرا جدا..في مثل هذه اللحظة تكون مدينة مثل نيويورك تستعد لبدء ليلتها الساهرة، في حين تستسلم العاصمة للنوم..لكنني سأواصل رحلتي..سأعبر النهر و أبحث عن أية محطة مترو وأبدأ رحلة العودة..كانت تجربتي في بوسطن قد علمتني أنه من المهم أن تتوه..تجول كثيرا كما تشاء ما دام حولك الناس والسيارات، حيث يمكنك أن تسأل أين أقرب محطة مترو وتبدأ رحلة العودة في أنفاق المترو.

أواصل السير متأملا عابرا واحدا من هذه الجسور الكثيرة..أتذكر ليالي القاهرة وكوبري قصر النيل..أتذكر أصدقائي في مصر وأتمنى لو كان واحدا منهم بصحبتي الليلة..ستكون أجمل ليلة في حياتنا لو ضللنا الطريق معا في واشنطن..سنحيا معا أجمل ذكريات ربما نقصها على مسامع أصدقائنا بعدها وربما أولادنا أيضا يوما ما..ماذا إذن لو ضللت طريقي وحدي؟

ولم أكذب خبرا..بعد قليل أدركت فعلا أنني ضللت طريقي..الجسر الذي ظننت أنني أعبره حسب الخريطة لم يكن كما حسبته..يمكنني أن أختار الحل الأمثل الآن وأعود أدراجي من جديد..لا يزال أثر واشنطن واضحا تماما ويمكنني أن أهتدي به حتى الوصول إلى قلب المدينة من جديد..هل أعود؟

بالطبع لا..لا يزال بوسعي أن أدور من جديد متخذا طريقا آخر باحثا عن أقرب محطة مترو..حسنا..توكلت على الله وعبرت طريق السيارات صوب منطقة المنازل..كان الهدوء مسيطرا تماما حتى إنك لا ترى أي مجنون يسير في الشوارع ما عدا أنت..وقفت أبحث عن اسم الشارع والشارع المتقاطع معه، ثم أخرجت الخريطة وحددت مكاني..حسنا..الحقيقة أنني بعدت كثيرا عن أقرب محطة مترو..أو ربما الخريطة لا تظهر كل محطات المترو..ينبغي أن أجد أحدا لأسأله.

كانت ثمة محطة بنزين وخلفها سوبر ماركت مغلق..من وراء الباب الزجاجي للسوبر ماركت وجدت شابا يعمل بالداخل..أشرت له مرارا حتى استجاب لي وأشار لي أن أقابله عند النافذة.. وقف أمام النافذة الزجاجية المغلقة وفتح فجوتها السفلية الصغيرة، سألني عما أريد..طلبت منه زجاجة بيبسي..ذهب ليجلبها دون حتى أن يفتح النافذة..حسنا، لابد أن القواعد تحتم عليه ألا يتعامل مباشرة مع الزبائن بعد منتصف الليل..التعامل يكون من خلف النافذة.

وطلب مني دولارا ونصفا وأن أمررهما له من خلال فجوة النافذة..انتظر حتى مررت له دولارين قبل أن يدفع لي بزجاجة البيبسي من الفجوة أيضا، ذهب ليجلب لي الباقي..سألته عن أقرب محطة مترو لكنه قال بإيجاز إنه لا يعرف شيئا وأغلق النافذة..ثم تركني وحيدا من جديد..

سرت قليلا في الشوارع الخالية ثم قررت أن أجلس وأشرب البيبسي..كان الطقس يزداد برودة، وبدأت السماء تمطر..الأمطار قد تشتعل فجأة وسط جو مشمس جميل..هذه الأمور تحدث كثيرا.

رأيت رجلا قادما فذهبت إليه..وسألته عن أقرب محطة مترو..كالعادة قال إنه لا يعرف..واقترح علي أن أواصل السير في هذا الطريق حتى أبلغ جامعة جورج واشنطن..هناك سأرى كثيرا من الطلبة ويمكنني أن أسأل أحدهم..لابد أن هناك محطة مترو..كان الرجل متعاونا جدا، لكنني شعرت أنه "يفتي"..طلبة يسيرون في الشوارع الآن؟..إن المدنية كلها صامتة كالقبور..

لم يكن هنالك خيار آخر..مشيت من جديد في الطريق الذي أشار إليه..ما دمت أعرف مكاني على الخريطة فلا ينبغي أن أقلق..مشيت قليلا حتى أدركت أنه لا جديد في هذا الطريق..شاهدت مبنى ضخما كتبت عليه بحروف كبيرة "ووترجيت" فخمنت أن ثمة علاقة له بفضيحة ووترجيت الشهيرة التي أطاحت بالرئيس الأمريكي نيسكون..اقتربت من

المبنى باحثا عن أية حراسة أمنية أسألهم عـن الطريـق، فلـم أجد..نزلت إلى منطقة ركن السيارات لأجـد أحـدا، فلـم أجد..صعدت من جديد و قررت أن ألف حول المبنى..

هنا رأيت زنجيا يسير بطريقة مريبة من بعيد..قلت إنه ربمـا يكون سكرانا..هذا طبيعي..لكنه توقف فجـأة وراح ينظـر لي..يا نهار أسود..ماذا يريد؟..وفجأة وجدته يركض تجاهي!

وركضت بدوري..ماذا يريد هذا الأحمق؟..إنها فرصة مثالية لو كان يبحث حقا عن ضحية..الشوارع خالية ساكنة رغم أن هذه المنطقة حيوية من العاصـمة..لا سـيارات..لا أمـن..لا مارة..يا للمصيبة!

فجأة تحت العلم الأخضر الحبيب بالسيفين وعبارة "لا إلـه إلا الله محمد رسول الله"..لم أصدق أنني أمام سفارة المملكـة العربية السعودية..لم أنظر خلفـي وركـضت إلى الـسفارة مباشرة..تخيلت الموقف التالي..أن أجد جنديا سعوديا ألقي عليه السلام فيرد علي بالسلام..أتعرف به وأخبره أنني من مـصر ثم أساله عن الطريق..يدعوني إلى كوب شاي أو فنجـان قهـوة فأشكره وأعاود سؤاله عن الطريق..طبعا كان كل ذلك ضربا من الخيال لأن السفارة بدورها كانت ككل شيء هنا مغلقـة وخالية من أية حراسة أمنية..فقط ترى بابها الزجاجي لـصقت عليه ورقة بيضاء عليها مواعيـد العمـل الرسميـة بالعربيـة

والإنجليزية، وخلف الزجاج ترى علم المملكة..استدرت خلفي محبطا لأكتشف أن مطاردي قد اختفى..

تنهدت وعاودت السير من جديد..هذه المرة كنت أشعر بالقلق فعلا..وجدت أمامي مركز جون كينيدي فتمنيت أن أجد أمامه أي حارس..صعدت السلام الطويلة المؤيدة إليه لأجد نفسي وحيدا من جديد أطل على العاصمة وأثرها المضيء وجوها الساكن..وما من أحد كالعادة.

حسنا..لا حل الآن سوى الاعتماد على نفسي..معي خريطة المدينة ومعي خريطة محطات المترو..حددت مكاني وحددت أقرب محطة مترو بحسب الخريطة..الكارثة أن أقرب محطة تقع في الجانب الآخر من النهر..لابد أن أعبر هذا النهر اللعين..على الخريطة اسمه نهر بوتوماك، والجسر الأقرب اسمه كوبري روزفلت التذكاري..توكلت على الله وسرت تجاهه.

بعد قليل كنت أسير على جانب الكوبري عابرا النهر..لابد أن أعترف أنه نهر جميل جدا..واسع جدا..يبدو رائعا ليلا ومن خلفه تبدو فيرجينيا أو الجانب الآخر من واشنطن..كانت السماء قد أعلنت غضبها واشتد المطر..ضممت الجاكت وواصلت السير محاولا أن أنفض القلق عن نفسي..لسوف أعود من جديد إلى الفندق ولسوف أحكي مغامرتى في الصباح..إن شاء الله..لا ينبغي أن أقلق!

لكن كان ينبغي أن أقلق..حين وجدت الكوبري يعبر فوق تلك الجزيرة المليئة بالأشجار العالية المخيفة قلقست..نظرت أمامي لأدرك أنه من الخطر أن أواصل السير وحدي في تلك الساعة..المرحلة المقبلة من الجسر تبدو مقلقة ولا يمكنني أن أخاطر!

و الحل؟..الحل الأمثل والأصعب الآن هو أن أعود أدراجي..نعم..أتخذ أقرب طريق صوب وسط واشنطن من جديد..ها هو ذا أثر واشنطن يبدو واضحا من جديد..سأمشي إليه..أعرف أن السماء تمطر بقسوة..أعرف أن الجو بارد..أعرف أن الشوارع خالية..لكن ما باليد حيلة.

اتخذت طريقي صوب أثر واشنطن..من حين لآخر أخرج الخريطة وأتأكد من أنني في الطريق الصحيح..كان المطر قد مزق الخريطة لكنني ظللت محتفظا بها..عيني تتأكد من أسماء الشوارع والطرقات وأعاود التأكد مستعينا بالخريطة..أحيانا أركض وأحيانا أمشي..لكنني لا أتوقف.

عند اثر واشنطن ضللت طريقي من جديد..مشكلة هذه المنطقة أنها ميدان ضخم جدا يتوسطه الأثر، مما يجعلك تضل طريقك بسهولة..أي شارع من هذه الشوارع ستسلكه؟..وأي طريق في الشارع ستتخذه؟..يمينا أو يسارا..اخترت الطريق الذي يحمل اسم الشارع الخامس عشر -حيث يقع الفندق بعد قليل- لكنني أدركت أني اتخذت طريقا خاطئا حينما رأيت

متحف الهولوكوست أمامي..كنت قد زرته صباحا وكان المكان عامرا بالحراسة..ها هو ذا المتحف ساكنا تماما و لا أرى أية حراسة أمامه..خفت أن أقترب منه باحثا عن أية حراسة مختفية حتى لا يشتبهون في..اتخذت الاتجاه الآخر وعاودت السير من جديد..

حينما رأيت مبنى وزارة التجارة اطمأن قلبي..رأيت تلك المرأة من الحراسة الأمنية للمبنى داخل كابينة الحراسة نفسها..كنت قد قابلتها ظهرا وسألتها عن مكان الأثر التذكاري للحرب العالمية..ها هي ذي تواصل مهمتها و تنظر لي من خلف زجاج الكابينة في شك..تجاهلتها وواصلت السير..عبرت مبنى وزارة المالية ومررت من أمامه ملقيا نظرة قريبة على البيت الأبيض..لابد أن الأخ بوش نائم الآن بجوار السيدة لورا يحكي لها عن خطابه الذي ألقاه في البنتاجون اليوم عن نجاح حربه في العراق في الذكرى الخامسة لبدايتها، ولابد أن ترد عليه منتقدة هؤلاء الحمقى الذين جابوا شوارع العاصمة اليوم مطالبين بسحب القوات الأمريكية من العراق و ينتقدون زوجها بكل الطرق!

يبدو أن سيارة الحراسة الواقفة أمام البيت الأبيض قد شكت في هذا الفتى الذي يتجول قرب البيت الأبيض في هذه الساعة المتأخرة، لأنني رأيت السيارة تتحرك قليلا للخلف..نظرت إلى الإمام وأوليت ظهري للبيت الأبيض متجها صوب ميدان ماكفرسون.

بعد دقائق قليلة كنت أعبر مدخل الفندق..موظفة الاستقبال تنظر لي مندهشة، فأتجاهلها وأركض فوق درجات السلم إلى الطابق الرابع..أدخل غرفتي وأخلع معطفي المبلل وألقي بنفسي على الفراش..لا أصدق أنني مررت بكل هذا حقا..

كنت مرهقا..أرتجف من البرودة..و لكنني كنت سعيدا أيضا..لقد ضللت الطريق في واشنطن!

الفصل الخامس

حكايات من بوسطن

١

الرحلة

كانت الساعة الثانية ظهرا..انتهينا منذ دقائق من أداء صلاة الجمعة جماعة معا في الغرفة ٤٠٩ من مبنى اتحاد الطلبة في جامعة نيوبولتز..الحافلة الضخمة تقف منتظرة أن تمتلىء بالطلبة المسافرين إلى بوسطن..وكنا بينهم..رحت أتأمل وجوه المسافرين..هنالك أيضا أمريكان..أعرف أيضا تلك الفتاة الإيطالية والفتاة اليابانية وصديقتها الكورية..وأعرف طبعا رفاقنا المصريين..

لم أستقل الحافلة مع الآخرين..كان صديقنا المصري محمد قد فضل السفر بسيارته، فانضممت إليه..دقائق وانطلقت الحافلة فانطلقنا خلفها، لنبدأ رحلتنا إلى مدينة بوسطن في أول أيام إجازة الربيع التي تتخلل الفصل الدراسي وتستمر الإجازة عشرة أيام.

واذا ذكرت بوسطن ذكرت جامعتيّ هارفرد ومعهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا الشهيرتين جدا، اللذان يعدان من أفضل جامعات العالم وأعرقها إذا لم يكونا أفضلهما على الإطلاق، ولهذا كنا متحمسين بشدة..نحن بصدد زيارة أعرق جامعات العالم!

كنا على أهبة الاستعداد لرحلة السفر الشاقة..وإذا قررت السفر بنفسك فلابد أن ترتب نفسك جيدا، وجيدا هذه تعني أشياء أخرى لابد أن تهتم بها بجانب إعداد حقائبك..لابد أن تلقي نظرة على توقعات الأرصاد الجوية لطقس الغد وخلال الأيام الثلاثة القادمة..هذه نقطة بالغة الأهمية حتى لا تبدأ يومك بطقس مشمس ثم ينقلب فجأة معك إلى جليد كثيف متساقط تلغي بسببه رحلتك..النقطة الثانية أن تعرف طريقك جيدا..احمل معك جهاز القيادة الإلكتروني GPS الذي يستعين بالقمر الصناعي لرسم الطرق أمامك وتحديد الاتجاهات في طريقك طول رحلتك عبر الولايات المختلفة، أو -إذا لم تكن تملك الجهاز- اطبع خريطة الاتجاهات من جوجل..ولا تنس أن تتأكد أنك تحمل بعض الفكة كي تدفع رسوم المرور من مدينة إلى أخرى ومن ولاية لأخرى..النقطة الأهم أن تعرف شيئا عن قوانين المرور في الولايات التي أنت بصدد زيارتها، فالقانون يختلف جزئيا من ولاية لأخرى، ولا تنس أيضا أن تعرف السرعة القصوى على الطرق فلا تتجاوزها..إياك أن تتجاوزها..لقد حذرتك!

الطقس جيد..عادة ما تذاع درجات الحرارة بالفهرنايت، لأحولها بنفسي إلى درجات سليزيوس التي أفهمها..درجات الحرارة عشرة درجات سليزيوس وهو شيء جيد..طبعا العادة التي تكتسبها مع الوقت في أمريكا هو متابعة أخبار الطقس..كل ليلة يجلس الأمريكيون أمام قناة الطقس ويزر

لمعرفة طقس الغد، واحتمالات سقوط الثلج أو الجليد أو الأمطار غدا، ونسبة هذه التوقعات..وبناء عليه يخطط الأمريكان لرحلاتهم أو جولاتهم، والأمريكيون مختلفون في كل وحدات القياس..نحن نتحدث عن درجات الحرارة بالسليزيوس وهم بالفهرنايت..المسافات بالكيلومتر وهم بالأميال..الأطوال بالأمتار وهم بالأقدام..نقدر السوائل باللتر وهم بالجالون..هؤلاء القوم مولعون بالاختلاف عن كل شعوب العالم!

المسافة ٢١٨ ميلا..يقدرها جوجل بنحو ثلاث ساعات و نصف، فيما قطعنا نحن الطريق في أكثر من خمس ساعات - لاحظ أننا توقفنا في كافتيريا لنصف ساعة..الميزة في هذه الرحلة أننا عبرنا عبر ثلاث ولايات مختلفة..ولكل ولاية قوانينها..وكأنك تعبر من دولة إلى اخرى..ولكل دولة رسوم الضرائب الخاصة بها التي تحصل على أي منتج تشتريه فيها..لاحظ أنك تدفع ضرائب على أي منتج تشتريه من زجاجة المياه إلى جهاز اللابتوب، ولكن تختلف نسبة الضريبة حسب الولاية..

ولكل ولاية تسعيرة مختلفة لأسعار البنزين والسولار..لاحظ أولا أن السولار أغلى من البنزين..يقال إن نيوجيرسي هي صاحبة أرخص أسعار للبنزين لأن الميناء يوجد فيها فلا تضاف رسوم نقل..كما توجد بعض الولايات التي لا تضيف قيمة الضرائب إلى أسعار السلع مثل أوريجون.

كنا أربعة..اثنان مصريان منهما أنا..صديقنا السعودي فلاح وصديقنا التركي فتيح..وبما أن فتيحا لا يجيد العربية فقد صار الحديث بالإنجليزية..تناقشنا لمدة ساعتين في قضايا شتى من الإمبراطورية العثمانية وعظمتها -كما حاول فتيح أن يقنعنا- حتى وصلنا إلى هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المملكة السعودية - كما راح فلاح يحكي لنا!

الآن وقد عبرنا الحدود إلى ولاية ماساتشوسيتس..مهلا. لابد أن تنطق الاسم بطريقة صحيحة أولا..لنقسمه نصفين.."ماسا"..ثم "تشوسيتس"..عظيم..كررها عدة مرات وستجد لسانك قد أخذ على نطقها..الأمر ليس صعبا أبدا!

عند وصولنا إلى بوسطن كانت المفاجأة أننا بصدد الإقامة في فندق هوليداي إن الشهير..هي مفاجأة إذا عرفت أننا دفعنا خمسين دولارا فحسب للرحلة التي تنظمها إدارة الجامعة لقضاء ثلاثة أيام في بوسطن..كل أربعة اشتركوا في غرفة مزدوجة..ولأن عدد الفتيات أكبر من عدد الفتيان فقد وجد زميلين لنا فتاة وصديقها اشتركا معهما في الغرفة، وناما معا على الفراش الثاني..لا مشكلة..هذه هي أمريكا!

وهذه هي بوسطن..المدينة التي أسسها المستعمرون الإنجليز عام ١٦٣٠..هي أكبر مدن نيو إنجلاند، ونيو إنجلاند -أي انجلترا الجديدة- اسم يطلق على ولايات شمال شرق البلاد، وتضم ست ولايات منهم ولاية ماساتشوسيتس التي عاصمتها

بوسطن ذاتها..إذا كنت متابعا جيدا للأفلام الأمريكية فلابـــد أنك قد رأيت مبنى مستشفى بوسطن الشهير مرة واحدة علــى الأقل. في بوسطن أيضا جامعتان من أهم جامعات العالم همـــا جامعتا هارفرد وجامعة إم آي تي .

إن أمامنا كثيرا من اللهو غدا!

٢

سانت باتريك داي..في بوسطن!

الهدوء والجمال والبساطة..هذه الكلمات القليلة تصف مدينة بوسطن عاصمة ولاية ماساتشوستس..المباني فخمة وأنيقة دون أن تستفزك ضخامتها كما تشعر فى نيويورك..الشوارع نظيفة و جميلة..لا زحام بشكل ملفت للنظر..نهر تشارلز يخترق المدينة قاسما إياها نصفين..في كامبردج تجد جامعتيّ هارفرد وإم آي تي..تلك هي بوسطن.

في قلب المدينة أمام مبنى البلدية أو السيتي هول يوجد نصبا تذكاريا ضخما..عندما تقترب منه تجده أقيم لتخليد ذكرى أفران الغاز ومحرقة الهولوكوست الشهيرة..اللوبي اليهودي قوي جدا هنا كما ترى!

وأهم متاحف المدينة هو متحف بوسطن للفنون الجميلة، واحد من أكبر متاحف الولايات المتحدة، يزوره أكثر من مليون زائر سنويا، ويحتوي على ٤٥٠ ألف تحفة فنية، وتم تأسيسه عام ١٨٧٠ وانتقل إلى مكانه الحالى عام ١٩٠٩...المتحف ضخم للغاية ويضم أقساما لمختلف أنواع الفنون والثقافات والحضارات..تمضي مذهولا بين عشرات من لوحات الزيت الضخمة والتماثيل العملاقة والآلات الموسيقية

..حضارات قديمة قدم الأزل وحضارات أحدث منها من كل بلاد العالم تتتابع أمام عينيك..والغريب أنك ترى ذلك في مدينة أمريكية تاريخها يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر، ورغم ذلك يجمع متحفها حضارات تعود إلى آلاف السنين قبل التاريخ..

في الطابق الأول يوجد قسم كبير للآثار الفرعونية، لكنه أصغر كثيرا من القسم الفرعوني في متحف الميتروبوليتان في نيويورك سيتي..سترى الكثير من التماثيل الفرعونية -المهربة طبعا- والمومياوات..ويمكنك أن تستخدم كاميرتك وتصور كما تشاء..رحت أجوب القسم الفرعوني وألتقط الصور متأملا نظرات الإعجاب في عيون الزوار قبل أن أتأمل المومياوات نفسها.

ولا تندهش عندما تفاجأ بقسم للحضارة الإسلامية، عندما تدخله سترى مجموعة رائعة من مخطوطات الفن الإسلامي تحمل عبارات باللغة العربية مثل "ما شاء الله" و"بسم الله الرحمن الرحيم"..في مخطوطة أخرى ستقرأ سورتي القدر والبينة من القرآن الكريم بالخط الكوفي..والمخطوطات تعود لأزهى عصور الحضارة الإسلامية..

كانت المرة الأولى لي التي أرى فيها نماذج من الحضارة الرومانية في بوسطن..فالمتحف عامر بتماثيل الرومان، وكلها تماثيل رخامية بيضاء منحوتة ببراعة مذهلة مراعية كافة

التفاصيل بشكل مدهش..وهنالك تماثيل رجال ونساء عــراة تماما..وتماثيل لآلهة الرومان..تقف أمامها تتأمل براعة النحــات الذي لم ينس شيئا فجسد أمامك جسما بشريا كــاملا بكــل تفاصيل عضلاته..

وأكثر ما أحببته في المدينة هو جولاتي وحيــدا..في الليلــة الأولى لنا في بوسطن تركت أصدقائي في أحد مطاعم البيتــزا وانطلقت أجوب شوارع بوسطن وحيدا..الوحدة تجعلك أكثر حرية وانطلاقا أحيانا..وهكذا سرت وحدي حتى نهر تــشارلز وعبرت الجسر إلى الجانب الآخر من المدينة..واصــلت الــسير حتى بلغت الجسر الثاني وعدت أدراجي سيرا حتى وصلت إلى الفندق، في الوقت الذي كان فيه رفاقي يبحثون عني وقد ظنوا أني قد ضللت طريقي!

تجربتي الثانية مع التوهان أكدت لي حقيقة مهمة..لا تعتمد على نصائح المارة كثيرا..سيقول لك أحــدهم اذهــب يمينــا والآخر سيقول لك اذهب يسارا..أفضل طريقة لمعرفة طريقك هو الذهاب لأقرب محطة مترو واستقلال المترو إلى أقرب محطة إلى هدفك..المترو لن يخطيء أبدا..الميزة العظمى عندما تتــوه أنك سترى معالم لم تسمع عنها ولم تخطط لزيارتها..وهكــذا زرت مدافن ضحايا مذبحة بوسطن الذين قتلهم الإنجليز قبــل ثلاثة قرون!

وأمام الفندق كان ثمة مطعم يقدم وجبات شرق أوسطية..القائمة تتضمن الفول والفلافل والكشري كثير من الأطعمة المصرية جدا..في تلك الليلة كنت واقفا أتأمل القائمة الملصقة على الباب الزجاجي للمطعم بينما المطعم نفسه مغلق في هذه الساعة المتأخرة..مر جواري رجل أمريكي وقال لي وقد لاحظ اهتمامي بالقائمة: هذا المطعم رائع..أنصحك أن تجرب بابا غنوج!

في الليلة الثانية ذهبت مع صديقتي المصرية لمقابلة صديقة لها أمريكية..كانت الفتاة الأمريكية قد تعرفت بصديقتي العام الماضي أثناء دراستها اللغة العربية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ولما أتينا لبوسطن كانت صديقتي حريصة على الاتصال بصديقتها الأمريكية لتراها في مدينتها..قابلناها في مطعم ياباني في مبنى بوسط المدينة كله مطاعم مختلفة..تجربتي السابقة في المطعم الياباني جعلتني أقاوم إلحاح النادل أن أجرب السوشي..لا مزيد من السوشي أرجوك..لم أحبه في المرة السابقة فضلا على أنني لم أستطع قط أن أتعلم طريقة مسك عصي الخشب..وهكذا قررت أن أجرب شيئا أعرفه جيدا ولن يفتكس فيه اليابانيون جديدا..طلبت مكرونة!

دار حديث الذكريات بين صديقتي وصديقتها..كانت الفتاة الأمريكية متحمسة جدا وراحت تجرب معنا لغتها العربية..عامية وفصحى..قالت لنا إنها سعيدة لأنها تمارس معنا العربية التي من الصعب أن تمارسها هنا..قالت إنها تفتقد القاهرة

جدا، وراحت تستعيد معنا ذكريات كأس الأمم الأفريقية قبل عامين وقت أن كانت مصر تستضيف البطولة، وكانت هـي تشجع المنتخب المصري بحماس وذهبت ذات مرة إلى الإستاد أيضا..وأضافت: أنا بحب مصر كتير قوى!

كان اليوم هو السابع عشر من مارس، وكانت شـوارع بوسطن مزدحمة بالمارة فى أزياء الاحتفالات..أنـاس في أزيـاء غربية يتجمعون في دوائر يتفرجون على من يغنى ومن يـرقص ومن يرتدى الطراطير الملونة..سألنا عن السبب فكانت الإجابة أنه عيد سانت باتريك Saint Patrick's Day وهو عيد أيرلندي أصلا يعد إجازة رسميـة في أيرلنـدا، ويحتفـل بـه الأيرلنديون حول العالم..في أمريكـا يحيـي الأيرلنـديون أو الأمريكان ذوو الأصول الأيرلندية الاحتفالات بهـذا العيـد، ويشاركهم الأمريكان أنفسهم هذه الاحتفالات في كثير مـن المدن الكبرى في الولايات المتحدة..وبالمصادفة البحتة كنـا في بوسطن تزامنا مع احتفالاتها بهذا العيد!

وكان وسط المدينة مزدحما بشدة..طـوابير مـن الفتيـان والفتيات يقفن في انتظار دورهن أمام البارات..المطاعم مزدحمة مثل الشوارع..الباعة الجائلون ينادون معلنين بيع الهدايا بأسعار رخيصة..

كنت سائرا مع صديقى محمد نتفرج على كل هذا، توقفنا أمام بائع كوفيات يعلن أن ثمـن الكوفيـة دولار واحـد..إن

الطقس شديد البرودة وأظن أننا بحاجة إلى كوفية كهذه..وقبل كل شيء هي ذكرى من بوسطن..هنا وجدنا فتاتين حسناوتين تشجعانا على الشراء من البائع..قالت إحداهما إن المنتجات رخيصة جدا..وبدأت حوارا معنا تعرفنا بها وأخبرناهما أننا من مصر..أبدت الفتاتان سعادتهما بشدة وسألتني عن معنى كلمة "أحبك" بالمصرية -وليس العربية كالعادة- فأخبرتها..عادت تسأل عن معنى كلمة "اللعنة"- كما تترجم في الأفلام الأمريكية- بالعربية!

وبعد دقيقة من الحديث دعتنا الفتاتان لدخول البار بصحبتهما..تبادلت النظرات مع صديقي وأخبرتها أنني في العشرين من عمري ولا يمكنني أن أدخل..القانون لن يسمح لي بذلك قبل أن أبلغ الحادية والعشرين..وأخبرها صديقي أننا لا نشرب الخمر إطلاقا..ديننا يحتم ذلك..أصرت الفتاة وطلبت منا أن نشرب معها دون أن نسكر..كوب واحد فحسب..لا يا ستي مينفعش..وودعناها وهي تعدنا بزيارة مصر يوما ما!

٣

في جامعة هارفرد..

غرفة صغيرة في الطابق تحت الأرضي من أحـد مـساكن الطلبة..مجموعة من المصاحف وسجاد فاخر ومصلية في موضع الإمام..على الحائط مواعيد الصلاة وبعض الزخارف الإسلامية ولوحة أسماء الله الحسنى..هل تصدق بعد كل هذا أننا في قلب جامعة هارفرد أشهر جامعات العالم على الإطلاق؟

وجامعة هارفرد هي أقدم مؤسسة للتعليم العالي في الولايات المتحدة، أنشئت عام ١٦٣٦، وتخرج فيها ٧٥ فـائزا بجـوائز نوبل، من أشهر خريجيها من الساسة الأمريكان جون آدامـز وجون كيندي وفرانكلين روزفلت..وهارفرد مثل أية جامعـة أمريكية أخرى هي جامعة بلا حواجز..لا أسوار ولا بوابـات مغلقة ولا رجال أمن يمنعونك من الدخول..يمكنك أن تـدخل نطاق الجامعة وتتجول بين مبانيها العريقة ذات الطراز القـديم الذي يشعرك أنك قد عدت بالزمن إلى القرن السابع عشر..ولا شيء يمنعك من دخول مبانيها الأكاديميـة أيـضا..الأبـواب مفتوحة ما عليك سوى أن تدفع الباب وتدخل، لتجد نفسك تتجول بين معامل وحجرات دراسة أشهر جامعـات العـالم وأغلاها ثمنا..ستمر عيناك على وجوه الطلبة المفترض أنهم أبرع طلاب العالم وأكثرهم ذكاء وعبقرية وبالتأكيد ثراء أيضا..

بدأت رحلتنا في جامعة هارفرد الشهيرة في متحف الفن..وهو واحد من أشهر متاحف الفن في أمريكا التي يأتي لها عاشقو الفن من هنا وهناك..الكثير من لوحات الزيت..التماثيل المنحوتة ببراعة كالعادة..كثير من تلك التحف الأثرية التي مللنا منها في متحف بوسطن للفنون الجميلة..مهما كانت القيمة التاريخية لمحتويات هذه المتاحف، فإنك في لحظة ما تشعر أنك قد رأيت كل هذا من قبل، أو أن هذه التماثيل واللوحات كلها متشابهة..ماذا يعنيني أنا إذا كانت لوحة الزيت هذه تنتمي إلى القرن الخامس عشر أو القرن السابع عشر ما دامت اللوحتان تحملان مشهدا متشابها لحد كبير؟

من حولك رجال الأمن بالبدل الكاملة يتجولون هنا وهناك ليراقبوا اللوحات ويحذرونك من لمسها..لا مانع من أخذ الصور لكن من فضلك أطفيء الفلاش..

عندما انتهينا من المتحف شاعرين ببعض الضجر من كم المتاحف التي زرناها في بوسطن، خرجت مع زميلتي لنبدأ جولتنا في جامعة هارفرد..اتصلت هي بصديقتها المصرية التي تدرس هنا في هارفرد واتفقنا أن نقابلها أمام المتحف..وبعد دقائق كنا معها!

في البداية اتجهنا إلى مبنى المكتبة..إنها رابع أكبر مكتبات العالم بعد مكتبة الكونجرس والمكتبة البريطانية والمكتبة الفرنسية القومية..الدخول يقتصر هنا على طلبة الجامعة بالإضافة إلى مرافقيهم..وهكذا اصطحبتنا زميلتنا معها إلى داخل المكتبة،

وأنا لا أصدق بعد أنني برفقة واحدة من اثنتين من أصول مصرية يدرسان في هارفرد!

عندما خرجنا من مبنى المكتبة، كان الحديث قد انتقل إلى رابطة الطلبة المسلمين في جامعة هارفرد..فالزميلة المصرية من أهم أعضائها..وكنت قد قرأت قبل أسبوعين في موقع العربية نت عن الضجة التي أحدثتها رابطة الطلبة المسلمين في هارفرد في أنحاء أمريكا، بعد أن وافقت إدارة الجامعة على تخصيص ساعات معينة للفتيات فقط في صالات الجيم، وهي سابقة في الجامعات الأمريكية..سألت الزميلة عن هذا الموضوع، فإذا بها واحدة من اللائي طلبن هذا الطلب من إدارة الجامعة..وعلى حد قولها كان الأمر بسيطا للغاية..كتبن طلبا ووقعن عليه وذهبن به إلى عميد الجامعة..وافق الرجل متكرما بعد أن رأى حماسهن إلى تخصيص ساعات للفتيات واحتراما لأفكارهن ومعتقداتهن..كان الأمر أبسط من أن يصل إلى الإعلام لتتناوله الصحف والمحطات التليفزيونية الأمريكية..أخبرتنا الزميلة أنها أجرت عددا قياسيا من الحوارات الصحفية مع وسائل الإعلام حتى أنها صارت تكره الصحفيين كرها أعمى..طبعا لم أخبرها أنني أدرس الصحافة!

في هذه اللحظة صادفنا ثلاثا من الطالبات ذات الأصول العربية أعضاء أيضا في رابطة الطلبة المسلمين..منهن من تدرس اللغة العربية مع صديقتنا..وهكذا تبادلنا التحية الإسلامية الشهيرة "السلام عليكم"وتصافحت الفتيات بينما لم أبادر أنا

المصافحة لأن بعض الفتيات لا ترحبن بالمصافحة..وهكذا اكتفيت بهز الرأس و العبارة الإنجليزية العتيدة Nice to meet you!

اتجهنا بعدها لنرى غرفة المصلى الصغير أو ما يسمونه المسجد..مررنا على الغرفة المخصصة لصلاة اليهود ثم غرفة الهندوس وبعدها غرفة المسجد..من المعروف أن في بوسطن مركزا إسلاميا ضخما لكنه يبعد ما يقرب من ربع ساعة عن جامعة هارفرد، لذا كانت رابطة الطلبة المسلمين حريصة على أن تخصص غرفة دائمة للصلاة أسوة باليهود والهندوس، أما الكنائس فهي في كل مكان حول الجامعة وتتميز مبانيها بذات الطراز العتيق الذي يميز مباني هارفرد.

في مدخل غرفة المسجد لوحة أنيقة كتبت فوقها قواعد غرفة العبادة..فلا طعام ولا شراب في الغرفة..خلع الأحذية واجب..خفض الصوت لابد منه طبعا!

وعند تمثال جون هارفرد -مؤسس جامعة هارفرد كما قالت لنا صديقتنا- توقفنا..كان بعض الزائرين يقفون يلتقطون الصور عند التمثال، ولاحظت أن أحدهم قد وقف عند قدمي التمثال ووضع يديه على قدم الأخ هارفرد..قالت لنا زميلتنا المصرية إن هذه عادة زوار هارفرد..أن تضع يديك على قدمي هارفرد لتأخذ الحكمة منه..وهكذا انتظرنا حتى تحرك الزوار فتحركنا بدورنا نأخذ الحكمة من المستر هارفرد..نضع أيدينا على قدميه ونلتقط الصور!

فيما بعد قرأت عن هذا التمثـــال إنهـــم يـــسمونه تمثـــال الأكاذيب الثلاثة..أولا لأنه ليس للسيد جون هارفرد..ثانيـــا: هو لم يؤسس جامعة هارفرد بل ترأسها فحسب..ثالثا التاريخ المكتوب على التمثال خطأ!

واصلنا طريقنا وزميلتنا المصرية تواصل شرح "معالم" جامعة هارفرد..الواضح أن الأمريكيين قد جعلوا من كل شيء أثـــرا تاريخيا خالدا، لمجرد أنه ينتمي للقرن السابع عشر مثلا..كـــل تاريخهم يبدأ من القرن الخامس عشر لذلك فالقرن السابع عشر يعد تاريخا مهما..لهذا يعظمون من شأن هذه النافورة في ساحة جامعة هارفرد لأنها تنتمي للأعوام الأولى للجامعة..وهكذا!

التقطت نسخة من جريدة الجامعة التي يصدرها الطلبة ههنا لكي أتصفحها لاحقا..لاحظ أنني كنت أتعامل مع كل شيء أجده ههنا في هارفرد بقداسة ما..عندما تـــضع في ذهنـــك أن هذه أعظم جامعات العالم تصير لأي شـــيء -مهمـــا كـــان بسيطا- أهمية ما..فيما بعد تصفحت الجريدة الطلابية و لم أجد فيها شيئا خارقا أو غير معتاد..مجرد جريدة طلابيـــة مملـــة لا تختلف كثيرا عن الجريدة التي تصدرها جامعـــة نيوبـــولتز..ولا شك أن الجريدة التي تصدرها الجامعة الأمريكية بالقاهرة أكثـــر إمتاعا..بالنسبة لي على الأقل!

مضينا نجوب جامعة هارفرد بين مساكن الطلبة..دخلنا أحد المساكن وسرنا في قاعة الطعام والمكتبة الصغيرة الملحقة بكـــل

مسكن وقاعة التلفاز..رأينا بعض الطلبة يمزحون..هؤلاء طلبة جامعة هارفرد؟..يكفيهم الاسم شرفا!

أما معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا- إم آي تي- فقد تأسس عام ١٨٦١، وقد ذهبت لزيارته على عجل في آخر أيامنا في بوسطن..أخذت المترو إلى أقرب محطة مترو إليه وسرت قليلا حتى وصلت إلى جامعة إم آي تي الشهيرة..رحت أجوب مباني الجامعة في سهولة كالعادة..مضيت بين المعامل وحجرات الدراسة حتى مللتها..كانت المباني وكل شيء يبدو تقليديا..طراز حديث قد تجده في أية جامعة أخرى، على عكس هارفرد التي تشعر فيها بالعراقة والأصالة!!

٤

سالم..مدينة الساحرات الشريرات!

في كافيه اسمه جولوجولو جلسنا..انتهت جولتنا الطويلة في مدينة سالم أخيرا في هذا الكافيه، بعد أن أيقن جون وتشارلز أنه لن يكون بوسعي أنا وصديقي أندرو أن ندخل معهم البار..كنا جميعا دون الحادية والعشرين لكن جون وتشارلز كان لديهما بطاقات هوية مزورة أعداها خصيصا لدخول البارات - كثيرون يفعلون ذلك بالمناسبة!

وهكذا دخلنا الكافيه الذي نصحنا به المارة وجلسنا ننتظر مطرب الليلة كي يقدم فقرته..ودار بيننا حديث، سألني جون إذا كنت قد زرت دولا أخرى غير أمريكا فقلت لا..وسألته ذات السؤال فأجابني ببساطة: نعم..زرت إسرائيل مرتين..لماذا؟..لأنني يهودي طبعا..وكانت مفاجأة!

بدأ التعارف بيننا في غرفة الفندق..الغرفة مزدوجة بها فراشان لكننا اكتشفنا أن جون وتشارلز سيشاركاننا الغرفة..لا مشكلة..إنها ليلة واحدة فحسب وسنكسب صديقين جديدين..وسرعان ما دعانا جون إلى سيارته لنذهب بها لتناول الغداء سويا في أحد المطاعم القريبة..

أعترف بأن جون كان لطيفا جدا..أضفى على الرحلة روحا جميلة بنكاته وروح الدعابة..يبدو أن تشارلز -وهو من أصل هندي بالمناسبة- صديقه الأنتيم..

كنا في سالم..إذا كنت متابعا جيدا لأفلام الرعب الأمريكية فلابد أنك تعرف سالم..مدينة الساحرات..مدينة السحر الأسود..هنا حيث اعتاد كل من تتجه إليه أصابع الشك أن يعدم بلا مناقشة بعد محاكمة هزلية..تقع المدينة الصغيرة في ولاية ماساتشوسيتس..تأسست المدينة على نهر نومكيج عام ١٦٢٦، وأطلق عليها اسم "سالم" المستوحى من لفظ "شالوم"في العبرية أو "سلام" في العربية..تشتهر المدينة الصغيرة بسلسلة من المحاكمات وقعت بين فبراير ١٦٩٢ ومارس ١٦٩٣ وجهت فيها السلطات التهمة لأكثر من ١٥٠ شخصا تم إلقاء القبض عليهم بتهمة السحر، وحكمت المحكمة بإعدام ١٩ شخصا -١٤ امرأة وخمسة رجال- شنقا..

وفي متاحف سالم بدأت جولاتنا..من متحف سحر إلى متحف آخر.. تشاهد الكثير من تماثيل الساحرات..تستمع إلى قصص كثيرة عن النساء اللائي حرقن بتهمة السحر..تقرأ كثيرا عن قواعد اكتشاف إذا كانت المتهمة ساحرة أو لا..وهناك طريقة طريفة لمعرفة ذلك على وجه يقين، هي قتل الساحرة وإلقاؤها في النهر..فإذا طفا جسدها كانت ساحرة وإذا غاص جسدها كانت بريئة..حينها يمكنك أن تدعو لها بالمغفرة!

ووسط هذا الجو الكئيب رحنا نتجول ومرشدتنا تشرح لنا الكثير عن هذا التاريخ الأسود..في قاعة أشبه بقبو أسفل المتحف نتجول وسط أجسام تماثيل الساحرات ووجوههن المفزعة..

كل هذا الكم من التماثيل المرعبة وأجواء العصور الوسطى والسحر الأسود والمشعوذات والتعويذات الشيطانية والجماجم..المدينة عامرة حقا بكل ما هو مثير للرعب..حتى في متاجر المدينة ستجد منتجات للبيع تمثل كل هذا، مع عددا من رموز السحر من الحضارات الأخرى..طبعا كان للفراعنة نصيب الأسد، ورأيت تماثيل لآلهة الفراعنة من ست إله الشر إلى حورس وإيزيس وأوزوريس..

لم تكن ينقصنا سوى زيارة المقابر التاريخية حيث تدفن الساحرات حتى يكتمل الجو المرعب الذي حبسنا أنفسنا فيه..وزرناها فعلا لنكتشف أنها تعود إلى العام ١٦٣٧!

***

عرفت أن جون يهودي..

يبدو أنه كان خجولا أن يعلن ذلك في البداية..حينما كنا في المول التجاري وقال لنا: سلامو أليكم..شالوم أليكم..سألته كيف يعرف هاتين العبارتين العربية والعبرية، فقال إنه يسمعها في الأفلام..ولم يكن قد وثق بنا ليعلن أمامنا أنه يهودي..هو يعرف أننا من مصر، وأعتقد أنه يدرك أن مصر دولة عربية..لا

تنظر لي هذه النظرة عزيزي القارىء بما أن أن هـــذه حقيقـــة بسيطة، لأنني قابلت أمريكان كثيرين لا يعرفون أن المـــصريين عرب، ويظنوننا لا نزال نتحدث اللغة المصرية القديمة!

لكن هذه المـــرة قالهـــا أمامنـــا عنـــدما كنـــا في ملـــهى جولوجولو..وبسرعة تجاوزنا اختلافاتنا و لم نتحدث في الأمـــر كثيرا حتى انتهت سهرتنا وركبنا معـــه ســـيارته عائـــدين إلى الفندق..

في تلك الليلة انفردت بصديقي..أخبرته بصدمتي "جون طلع يهودي"!..طب وفيها إيه؟..فيها إيه إزاي؟..حسنا..لقد كـــان الفتى لطيفا معنا لأقصى حد، ولا يوجد ســـبب منطقـــي لأن أكرهه لأنه مجرد يهودي..اتفقنا على ذلك ونسيت أو تناسيت أن جون مختلف..على الأقل جون يدين بديانة سماوية، ربما كان صديقه ذو الأصل الهندي هندوسيا..

لكن تشارلز أخبرنا في الصباح التالي في حديث عـــابر أنـــه مسيحي كاثوليكي..ليس من السهل أن تـــصرح بـــديانتك في دولة مثل أمريكا، لا يبالي أهلها بأمر الديانة كثيرا ولا يوجـــد هنالك خانة للديانة في البطاقة القوميـــة..وإن كـــان كونـــك يهوديا يكسبك بعض الحساسية، وكونك مسلما يعطيك كثيرا من الخطورة!

الأمر الذي أقلقني هو زيارة جون لإسرائيل..هل معنى ذلك أنه يدعمها؟..لا يهمني أن يكون يهوديا، فكثير مـــن اليهـــود

يرفضون الصهيونية..لكن أن يكون صهيونيا، فهذا معناه الكثير..

وفتحت معه حوارا سياسيا أثناء تناولنا القهوة ظهر اليوم التالي..تحدثنا عن الانتخابات الرئاسية الأمريكية - موضوع الساعة كالمعتاد، فقال لي إنه كان على وشك أن يدعم أوباما لكن والديه يدعمان هيلاري كلنتون..لماذا؟..لأن أوباما تبرع بأموال كبيرة للكنيسة..طب وده فيه إيه؟..هذا يعني أنه يدخل الدين في مسألة الانتخابات..كان موقفه غريبا، لكن الحوار جرى على أية حال في أبريل قبل أن تهزم كلنتون في انتخابات الحزب الديمقراطي وقبل أن يحج أوباما إلى القدس ليعلن من هناك أن أمن إسرائيل واجب أمريكي مقدس!

وبدأنا رحلة العودة التي تستغرق أربع ساعات على الأقل..من ماساتشوسيتس إلى كونيكتكت إلى نيويورك..وفي الطريق كان في انتظارنا تجربة جديدة!

كنا منطلقين بالسيارة مشغلين بعض أغاني الروك الأمريكية..فجأة اكتشفنا أن سيارة شرطة تتعقبنا..هنا لا مفر من أن تتوقف على جانب الطريق وتنتظر مصيرك المرعب..الأمر واضح..لقد تجاوز جون السرعة المقررة -ستين ميلا- والتقطه رادار سيارة الشرطة فتعقبتنا..

هنا يجري السيناريو المعتاد..نتوقف إلى جانب الطريق..تتوقف سيارة الشرطة خلفنا..ننتظر بضع دقائق تسمح

لضابط الشرطة أن يأخذ أرقام السيارة ويتحرى عنها وعن مخالفاتها السابقة عبر جهاز الكمبيوتر في سيارة الشرطة..ثم يترل رجل الشرطة في هدوء ويتجه إلينا..يخبر جون -بما أنه قائد السيارة- أنه تجاوز السرعة المقررة ويطلب منه رخصة القيادة وأوراق تسجيل السيارة..يأخذ الشرطي الأوراق ويعود إلى سيارته، بعدما اعتذر جون له ورجاه ألا يعطيه مخالفة..الشرطي يعود لسيارته وننتظر نحن داعين الله ألا نأخذ مخالفة..لكن الشرطي يتأخر بضع دقائق ويكون الأمر واضحا..أنه يعد المخالفة..بعد قليل يخرج الشرطى من سيارته ويأتى إلينا ليناول جون ورقة المخالفة ويخبره بموعد المحاكمة..اتجه إلى المحكمة يوم عشرين من الشهر الجاري!

تركنا الشرطي لتنهال الشتائم من جانب جون....فيما بعد سيذهب جون للمحكمة إما ليقر بذنبه وارتكابه المخالفة ويدفع الغرامة -والغرامات باهظة عادة- وإما لأن يقول إنه بريء وساعتها ستستعين المحكمة بشهادة الشرطي..الأمر أكثر تعقيدا من عندنا فلا مجال هنا لعشرين جنيه للباشا الضابط ولا سحب رخصة ظلما وعدوانا..

واصلنا رحلتنا إلى نيوبولتز في حزن!

الفصل السادس

حكايتان من نيوجيرسي

١

عندما يجتمع مسلمو أمريكا!

كان تحديا جديدا..أن تعتمد على خرائط جوجل اعتمادا كاملا لتصل إلى هدفك..كنت ممثلا عن جامعة نيوبسولتز لحضور مؤتمر رابطة الطلبة المسلمين **MSA National** في مدينة نيوراك في ولاية نيوجيرسي..وكنت وحيدا لا أملك سوى ورقة مطبوعة من موقع جوجل بالاتجاهات..لكني كنت متحمسا للغاية لأن أخوض هذه التجربة..أن أصل لوحدي إلى هدفي..أن أمثل جامعتي في هذا المؤتمر الكبير الذي يحضره مئات من الطلبة المسلمين من أعضاء رابطات الطلبة المسلمين في مختلف ولايات شرق الولايات المتحدة الأمريكية.

إنه يوم الجمعة..انتهيت من الزيارة الأسبوعية لمقر الأمم المتحدة وودعت زملائي وبروفسير أوزلر وتركتهم لأبدأ رحلتي وحيدا..سألت عددا من المارة حتى وصلت إلى محطة القطار بينسلفانيا ستيشن – يسمونها بين ستشين اختصارا..مبنى الإمبيرستيت يبدو واضحا في الخلفية، بينما عربة طعام حلال تقف أمام مدخل المحطة..في المحطة أسأل المارة من جديد حتى أصل لشباك التذاكر وأقطع تذكرة ذهاب وعودة إلى نيوراك القريبة جدا من نيويورك..إنها المحطة الأولى في رحلة القطار إلى نيوجيرسي.

وكانت هذه المرة الأولى التي أركب فيها قطارا أمريكيا..كان القطار مزدحما لكنني استطعت أن أجد لنفسي مكانا بين سيدة وكهل أمريكي..ثلث ساعة فحسب قضيتها في القطار أتأمل وجوه الموظفين الأمريكيين العائدين من عملهم في نيويورك سيتي إلى نيوجيرسي..أمضى القطار حوالي عشر دقائق في النفق قبل أن يصعد إلى الأرض بعدما خرج من نيويورك سيتي وبدأ رحلته في ولاية نيوجيرسي..نزلت في أول محطة.

هذه إذن هي نيوراك..الاسم سمعته مرارا من قبل لأن المدينة تحتضن مطارا دوليا يحمل اسمها يعد الأكبر في المنطقة بعد مطار جون كينيدي في نيويورك..المدينة صغيرة نظيفة هادئة لا يميزها شيء ومبانيها عادية، فلا مقارنة بينها وبين نيويورك سيتي التي غادرتها من نصف ساعة في شيء..الفارق بين نيوراك ونيويورك سيتي هو الفارق بين مدينة القاهرة وبين أية قرية فقيرة من قرى الصعيد.

اهتديت بخريطة جوجل وأجوبة المارة حتى وصلت إلى الفندق..عبرت باب الفندق الفخم لأفاجأ بالمنظر المهيب..عشرات من الفتيات المحجبات..عشرات من الفتيان بملامح عربية أو وسط آسيوية..كل هؤلاء طلبة مسلمين جاءوا من مختلف ولايات أمريكا لحضور المؤتمر..من اللحظات الأولى تدرك أن أغلبهم لا يجيد العربية وأنهم تربوا ونشأوا هنا في الولايات المتحدة..

وبمنتهى الحماس يرحبون بك..ومن اللحظة الأولى تجدهم يقسمون أعضاء المؤتمر وفقا للجنس..فهذا الجانب لـ"الإخوة" brothers وذاك الجانب لـ "الأخوات" sisters.

..والحوار باللغة الإنجليزية طبعا لأن أكثرهم لا يعرف سواها..لكنك ستجد لغتهم مزينة بالعبارات الدينية التي لا تترجم على غرار "سبحان الله" و"الحمد لله" و"ما شاء الله".

توجهت إلى ركن الإخوة أبحث عن اسمي ضمن أسماء المشاركين في المؤتمر..سلموني بطاقة عليها اسمي مفترض أن أعلقها على صدري طول الوقت وملفا يحمل جدول أعمال المؤتمر و منشورات بعض المنظمات الإسلامية الأمريكية ومجلة رابطة الطلبة المسلمين المسماة ذا لينك أي الاتصال.

ولكني واجهت مشكلة بسيطة..لم يكن هنالك حجزا باسمي في الفندق!

***

بعد ربع ساعة كنت أدخل غرفتي في الطابق الثاني عشر..اضطررت أن أحجز غرفة مفردة لي على أن أسترد ما دفعته من الرابطة فيما بعد..الغرفة واسعة أنيقة ترى من نافذتها النهر والطائرات المقلعة من مطار نيوراك القريب..والفراش واسع وثير..ارتحت فوقه نصف ساعة أقلب قنوات التليفزيون قبل أن يحين موعد التجمع في بهو الفندق في السادسة والنصف!

وفي البهو شعرت بوحدتي..كان ممثلو وممثلات الجامعات يتبادلن الأحاديث معا بينما أنا جئت وحيدا من جامعتي..لا أعرف أحدا هنا..لا أحد يعرفني..فقط أخر ما كنت أطمح إليه أن أعثر على ممثلي جامعة ألباني وهي أقرب جامعة إلى جامعتي جغرافيا..ولعل قرب المسافات يقربنا قليلا!

دخلت قاعة المؤتمرات عندما طلب منا أن نتجمع هنا..والعادة في مثل هذه المؤتمرات هي الفصل بين الجنسين..الأخوات في الجانب الأيمن من القاعة والإخوة في الجانب الأيسر..

هنا لفت نظري فتى يسير وحيدا ويجلس أيضا وحده..عندما تكون وحيدا وتفكر في أن تصاحب أحدهم، عليك أن تبحث عن شخص آخر وحيد مثلك..لهذا قررت أن أتجه إليه وأتحدث معه..هنا تعالى صوت أحد الإخوة بأذان المغرب..حان وقت الصلاة!

***

اسمه أحمد..أحمد مصطفى..هذا اسمه وحده وليس اسمه مع والده..أفغاني الجنسية..تعرفته خلال الساعات الأولى من المؤتمر..لفت نظري من البداية لأنه كان وحيدا مثلي، بينما أغلب ممثلي الجامعات جاءوا في جماعات فتجدهم جالسين مع بعضهم..إلا هو..كان وحيدا..مثلي!

تعارفنا بعد أن صلينا المغرب في قاعة بالطابق الأول بالفندق حجزتها الرابطة وجعلت منها مسجدا..الفتيان يصلون في الأمام والفتيات يشكلن صفا في الخلف..

وبعد الصلاة وزع العشاء فجلسنا في مجموعـــات كـــبيرة نأكل..وبدأ التعارف.. كثير من المشاركين ولدوا في أمريكـــا وتربوا فيها يحملون الجنسية الأمريكية أيضا، رغم أن لهم أصولا عربية أو أسيوية أو حتى أفريقية..كلهم مـــسلمون..وأغلبـــهم أمريكيون..وبسرعة كسرنا الثلج -كما يقـــول الأمريكـــان- وبدأنا حوارا واسعا..ومن حين لآخر أجد واحدا لـــه أصـــل مصري..وفجأة يتحول حديثنا إلى العربية..كنت مبهورا بشدة وأنا أقابل هذه المجموعة من مختلف الأصول الذين قدموا مـــن جامعات شتى كي يمثلوا جامعاتهم في هذا اللقاء الكبير.

أنت تتعارف على أناس كثيرين، وأنت تعـــرف جيـــدا أن أمامك يومين فحسب ستقضيهما هنا في نيوراك في نيوجيرسي، وبعدها ستعود إلى نيوبولتز ولن ترى أغلب هؤلاء ثانية..لكنك رغم ذلك مصر على التعارف بالجميع بشدة.

تعرفت بالأفغاني الشاب..كان طالبا في جامعة مانهاتن فيـــل - و لم أكن قد سمعت عنها من قبل..وتحدثنا معا كـــثيرا..هـــو أصلا من كابول..ترك أسرته في أفغانستان وجـــاء يـــدرس في أمريكا..سألته عما إذا كان قد عاصر الحرب هناك في كابول، فسألني مبتسما:عن أي حرب تتكلم؟..كلما انتـــهت حـــرب بدأت أخرى في أفغانستان!

في تلك الليلة صعدت معه إلى غرفته وبدأ هو يعمل واجب اللغة العربية..نعم..فهو يدرس العربية في جامعته..والسبب أنها لغة القرآن وكل مسلمي العالم يطمحون في تعلم العربية كي يفهموا القرآن بلغته..في أوقات كهذه تحسد نفسك لأنك ولدت عربيا ونزل القرآن الكريم بلغتك..تخيل نفسك لو كنت أفغانيا أو تركيا أو إيرانيا أو حتى أندونيسيا تحفظ القرآن وتتلوه في صلاتك وتستمع إليه دون أن تفهم كلماته..

ودراسة العربية في أمريكا صارت متوفرة أكثر عن أي بلد غربي آخر بعد أحداث ١١ سبتمبر..صارت العربية تدرس كلغة أساسية مثلها مثل الإسبانية والفرنسية و صار طلاب العلوم السياسية والعلاقات الدولية أكثر رغبة في دراسة العربية بما أنها لغة بلدان الشرق الأوسط حيث العراق وفلسطين ومواطن الإرهاب..وهناك مئات الطلبة يتدفقون من أمريكا إلى القاهرة للدراسة في معهد اللغة العربية بالجامعة الأمريكية كل فصل دراسي!

جلست مع أحمد أراقبه وهو يحل واجبه..كانت الأسئلة شبيهة بالتي يدرسها طلاب سنة أولى ابتدائي..ضع كلمة مناسبة في الفراغ..ثم السؤال الأصعب وهو سؤال الترجمة..كان أحمد بارعا لكنه راح يسألني كثيرا..بعض الأسئلة لم أجد لها إجابة سوى أننا نستخدمها كده وخلاص!

وعندما هبطنا معا بالمصعد إلى الطابق الأول منعنا رجال الأمن من السير إلى قاعة المؤتمر..لماذا؟..لأن سيادة رئيس

الدومينيكان يقطن معنا في الفندق، وموكبه سيمر الآن خارجا من الفندق..انتظرنا نصف دقيقة حتى مشى السيد الرئيس!

***

بعد يومين وجدنا أنفسنا نصافح بعضا للمرة الأخيرة..يومان فحسب قضيناهم معا وكانت فرصة طيبة للتعرف بكثير من الأشخاص الطيبين جدا..وبالصدفة صادفت اثنين كانا قد درسا في الجامعة الأمريكية بالقاهرة العام الماضي، وكان أحدهما يعرفني..وجلسنا معا نتذكر الأصدقاء المشتركين!

افترقنا على وعد بلقاء آخر في مكان وزمان لا نعرفه..فقط تبادلنا أسماءنا على موقع الفيس بوك لنبقى أصدقاء على الإنترنت إلى الأبد..

صافحت صديقي الأفغاني والتقطت معه صورة أخيرة أخذتها لنا زميلته المصرية التي تترأس رابطة الطلبة المصريين في جامعة مانهاتن فيل، ثم تعانقنا ليرحل هو مسرعا ليلحق بالقطار.

وكان أكرم يتبعني مصرا أن يوصلني بسيارته إلى محطة القطار..وأكرم مصري آخر قابلته هنا..والده تركي وأمه مصرية..يتحدث العربية معي لكنها عربية اكتسبها من أمه دون أن يتحدث بها كثيرا، فتشعر أنها لغة طفل في الخامسة من عمره..وكان هو مصرا على استخدام العربية معي دائما حتى لو كلمته أنا بالإنجليزية..وكان مصرا أن يوصلني.

وأمام محطة القطار غادرت سيارته وتعانقنا بقوة..دعونا الله أن نتقابل مرة أخرى يوما ما في القاهرة..وقال لي مودعــا : لا إله إلا الله..فقلت: محمد رسول الله...ثم دخلت المحطة!

٢

باترسون..

لم يكن الشارع نظيفا جدا..تبدو المدينة صغيرة نسبيا، وبيوتها صغيرة..أما المحلات فكانت متناثرة عن يميننا ويسارنا بينما السيارة تشق طريقها في الشارع الرئيسي للمدينة..على لافتات المحلات تقرأ..صالون فلسطين..مقلة وبقالة الأقصى..مطعم الشام..نقدم أشهى المأكولات السورية..وكأنك قد انتقلت إلى إحدى قرى سوريا أو لبنان..لكن الحقيقة أنك في مدينة باترسون في ولاية نيوجيرسي الأمريكية!

لم يكن ذلك اليوم عاديا..كنا أربعة..ثلاثة أصدقاء مصريين وسعودي..انطلقنا في الصباح الباكر من محل إقامتنا في نيوبولتز في ولاية نيويورك لنتخذ طريقنا صوب ولاية نيوجيرسي - والولايتان متقاربتان جدا حتى إنك كي تصل من نيوبولتز إلى نيويورك سيتي تمر عبر ولاية نيوجيرسي!..

وجهتنا هذه المرة مختلفة..مدينة الملاهي الأمريكية الشهيرة الأعلام الستة Six Flags..كالعادة كانت معنا خرائط الطريق المطبوعة من جوجل..كانت توقعات الأرصاد الجوية تشير إلى احتمالات سقوط أمطار، لكننا غامرنا وحجزنا التذاكر عبر الإنترنت ليلة أمس، وقررنا أن نخوض هذه

المغامرة..إذا لم نفعلها اليوم، لن نفعلها أبدا..امتحانات نهاية العام مقبلة خلال أيام، ولن يكون هنالك وقت لنفعلها ثانية..إننا سنغادر هذه البلاد قريبا!

وعلى بركة الله اتخذنا طريقنا صوب السكس فلاجز..التذاكر على الإنترنت سعرها أربعون دولارا، أما سعر بيعها على بوابة الملاهي فستون دولارا..الفارق كبير طبعا!

دخلنا السكس فلاجز لتبدأ المتعة الحقيقة..أغلب الألعاب هنا تعتمد على السرعة..عربة تركبها لتنطلق بك فوق قضبان معدنية تصعد وتهبط وتنقلب بك لأعلى و أسفل ويمينا ويسارا وهكذا حتى تجد نفسك قد انتهيت من هذه اللعبة..حان الوقت لتجربة لعبة أخرى!

أكثر الألعاب عبقرية في رأيي كانت ذلك الفيلم الذي تجلس تشاهده في قاعة شبيهة بالسينما لكنك تشعر أثناء مشاهدتك للفيلم أنك البطل ذاته..قصة الفيلم أن أحدهم قد تسلل إلى مكوك فضاء والمكوك ينطلق إلى القمر..هنا تبدأ دور بطولتك للفيلم..النظارة التي ترتديها على عينيك تجعلك ترى كل شيء ثلاثي الأبعاد كأنك تعيشه بنفسك..وتجد نفسك منطلقا وسط الفضاء بالفعل..والحقيقة أن الكرسي الذي تجلس عليه يتحرك ويرتفع ويهتز وفقا لسيناريو الفيلم لتعيش ما يعيشه البطل كأنك هو شخصيا!

بعد ساعات من المتعة غادرنا السكس فلاجز، لنذهب إلى محطة البترين..النصيحة الذهبية لكل زوار نيوجيرسي القادمين

من ولايات أخرى ألا يملأوا خزان الوقود في السيارة كـــاملا بالبترين، بل يملأوه بما يكفى وصولهم للولاية فحسب..والسبب طبعا أن أسعار البترين في نيوجيرسي هي الأقل بـين ولايـات أمريكا..فالميناء يقع في هذه الولاية مما يوفر أســعار النقــل إلى ولايات أخرى!

في الطريق توقفنا أمام سوبر ماركت لنبتاع بعـض الميـاه والبسكويت..لفت نظري أثناء تجولي في السوبر ماركت وجود منتجات كثيرة تحمل كتابات بالعبرية..أثار الأمـر شـكوكي لكني أخذت ما أريد ودفعت ثمنه وغادرت المتجـر..عنـدما اجتمعنا في السيارة من جديد تساءل صديقي: هل رأيتم العلم الإسرائيلي المرفوع على باب السوبر ماركت؟!!

***

قررنا أن نتناول غداء عربيا مائة في المائة في باترسون!

وتعد باترسون مكانا لأكبر جاليـة تركيـة مهـاجرة في الولايات المتحدة، كما أنها ثاني أكبر المدن الأمريكية في عـدد الأمريكيين العرب بعد مدينة ديربورة في ميتشجن..

لم أصـدق عـيني بـسهولة وأنـا أسـير في شـوارع باترسون..كأنني لم أعد في أمريكا..فجأة اخترقـت حـاجز المكان وعبرت المحيط ووصلت إلى شمال أفريقيا أو إحدى دول الشام..لا شيء يوحي بأنك في مدينة عربية..لافتات المحـلات بالعربية والإنجليزية..قوائم الطعام المعلقة تبشرك بأشهى الأطعمة

العربية..طبق اليوم ورق عنب..شاورمة..كباب وكفتة..حلو الشام والبسبوسة..

دخلنا مطعما سوريا..لم يكن مزدحما، وكانت الفتاة التي تخدم فيه محجبة..جاءت إلينا وسألتنا بالإنجليزية عما نريد، فتحدثنا بالعربية..وهكذا صار الحديث عربيا..أتت لنا بقائمة الطعام المليئة بأشهى المأكولات العربية من الفلافل إلى الحمص والكفتة..

وإلى جوار الكاشير صندوق تبرعات صغير كتب فوقه :"تبرعوا لمسجد الرحمة"..أما الصندوق فممتلئ بأوراق البنكنوت الخضراء -الدولارات- وعملات الربع دولار المعدنية..

ومن المطعم ذهبنا لنبتاع الحلو..في مطعم آخر خاض بالحلويات اخترنا أن نأكل بلح الشام..الطبق ثلاث قطع والسعر خمسة دولارات..يبدو غاليا لكننا نفتقده بشدة..

غادرنا المطعم ليحين وقت التسوق..مضينا إلى سوبر ماركت ضخم..والبضائع هناك عربية..كثير مما قد تجده في أي سوبر ماركت في مصر أو أية دولة عربية قد تجده هنا..يمكنك هنا أن تجد علب الفول المدمس الجاهزة..أشهر الأنواع هي "حدائق كاليفورنيا" وهي علب فول جاهزة لأن تأكلها فورا..

الجبن موجود وبكثرة..تقرأ لافتات علب الجبنة..جبنة فلسطينية..جبنة قريش..جبنة عراقية..حتى الجبن بكل الجنسيات..

في غرفة واسعة بالسوبر ماركت تجد كل ما تشتهيه الأنفس من موسيقى عربية..المجموعة الكاملة لأم كلثوم..مجموعة العندليب..والألبومات الجديدة أيضا..شريط عمرو دياب..أحلى ما غنى عمرو دياب..وفي الجوار قسم الديفيديهات..فيلم عمارة يعقوبيان حاليا دي في دي بسبعة دولارات فحسب..وأفلام عربية كثيرة..أبيض و أسود وألوان..وقسم الكتب يقدم لك أشهر الكتب العربية وأشهر روايات الأدب العربي..ستجد نجيب محفوظ ويوسف إدريس وحتى أنيس منصور..كل ما تتوقعه قد تجده!

عندما تخرج من السوبر ماركت محملا بالسلع العربية، ستجد عند المخرج مجموعة من الجرائد العربية..لا أعني بذلك الصحف العربية المعروفة بل جرائد باللغة العربية تصدرها الجالية العربية هنا في أمريكا..والجرائد تختلف وتتنوع..هناك جرائد جادة تعنى بشئون العرب المقيمين في أمريكا، وتطرح قضاياهم جنبا إلى جنب بعض الأخبار السياسية عن الدول العربية والقضايا العربية مثل قضية فلسطين، وقد تجد مقالة أو مقالتين تهاجمان إسرائيل بحرية تامة..

وهناك جرائد الإثارة..قد تجد بعض المانشيتات الصفراء جنبا إلى جنب إلى صورة هيفاء وهبي وبعض الأخبار الفنية الساخنة..حتى هيفاء وهبي تهم العرب الأمريكان!

ولعل أشهر الصحف انتشارا "صوت العروبة"، وهي جريدة أسبوعية مطبوعة تصدر في أمريكا منذ ١٩٩٣ وتوزع في خمس ولايات، ومقر الجريدة في ٩٥٦ الشارع الرئيسي هنا في باترسون، وهي الصحيفة العربية الثانية من حيث القدم،

صدرت لتحافظ على اللغة العربية والثقافة العربية بين الجالية العربية في وقت لم تكن فيه الفضائيات العربية تصل إلى الجانب الغربي من المحيط..والجريدة ترفع شعار "احرص على أن يصيبك فيروس الحقيقة فتشقى"!

في ذلك اليوم كانت الصحف مهتمة بأخبار الداعية الإسلامي محمد القحطاني وقضيته الشهيرة، وكان ثم إعلان يدعو الجالية العربية لمظاهرة سلمية في مدينة نيوراك في نيوجيرسي أمام المحكمة بعد أسبوعين من الآن!

الفصل السابع

حكايات أمريكية

كاريكاتير

حينما تعرفنا بها لأول مرة تذكرنا على الفور موضوع الرسوم المسيئة للنبي -صلي الله عليه وسلم-..كان ذلك منذ شهر مضى في الأيام الأولى لنا في هذه الجامعة الأمريكية، حيث اعتدنا أن نتعرف فيها بالطلبة الأجانب مثلنا..قالت إن اسمها سين، وإنها من الدانمارك..في الظروف العادية المرء لا يهمه كثيرًا الفرق بين الدول الأوروبية، لكن الدانمارك كانت قد اكتسبت أهمية خاصة بعد أزمتها الشهيرة مع العالم الإسلامي في أعقاب نشر الكاريكاتيرات المسيئة للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- منذ عامين..وفي خضم المناقشات الثقافية المتبادلة بيننا عن دولنا لم نفتح موضوع الرسوم المسيئة بما أنه قد انتهى..بالمناسبة قالت لنا سين إنها تدرس الصحافة!

قبل أسبوع تفجرت الأزمة من جديد..الصحف الدانماركية تعيد نشر الرسوم المسيئة في تحد سافر للعالم الإسلامي من شرقه إلى غربه، بل لمسلمي العالم كله بمن فيهم مسلمو الدانمارك..والسبب إلقاء القبض على متهمين بالتخطيط لقتل رسام الكاريكاتير الذي رسم الرسوم..وعادت الأزمة من جديد!

على مائدة الغداء نطرح الأزمة للنقاش وهذه المرة مع صديقي "فتيح" و"إدجار"..هز "فتيح" رأسه ببساطة، وقال إنهم لا يبالون في الدانمارك لغضبة الشعوب العربية والإسلامية أينما

كانوا..ومن يبالي لغضب الضعفاء؟.. ما دامت دولنا ضعيفة فلن يخافونا..لو كنا أقوياء لما تجرأ أحد في عرض الدانمارك وطولها على إهانة نبينا.

أبدى "ادجار" استغرابه لنقاشنا فلما طرحنا عليه الأمر..قال إنه قد قرأ عن الأزمة السابقة بين الدانمارك والعالم الإسلامي..ثم تساءل مندهشا: هل أعادوا نشر الرسوم؟..وصمت بعدها يستمع للنقاش الدائر بيني وبين "فتيح"..كلانا مسلمان نتحدث بغضب منتقدين ما فعلته الصحف الدانماركية..أحدثه عن المقاطعة التي نادى بها الكثيرون في مصر والعالم العربي للسلع الدانماركية، فيخبرني أن البعض أيضا نادى بمقاطعة السلع الدانماركية في تركيا..هذه المقاطعة تستمر لأيام..لأسابيع..لشهور..ثم يعود كل شيء لما كان عليه..وربما أفضل!

وهنا بدأ "إدجار" الحديث..بهدوء سألنا: هل تظنون أن الدانمارك هي من تسخر من النبي محمد؟..أعتقد أنني رأيت رسما يسخر منه من قبل في صحيفة كولومبية..هل قاطعتم كولومبيا بعدها؟

التقط "فتيح" الخيط وأيد وجهة نظره..من قال إن إهانة الإسلام تقتصر على الدانمارك وحدها؟..موضوع الدانمارك أخذ شهرة واسعة النطاق وكأن لا أحد في العالم يهين الإسلام أو يسخر من النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- سوى

الدانمارك..نحن هنا في أمريكا والحرية هي اسم اللعبة..عشرات المقالات يوميا تسخر من كل الأديان السماوية..تسخر من الأنبياء جميعهم..عديمو الدين تقابلهم في كل مكان ويتحدثون باسم الحرية ساخرين من المؤمنين بوجود الله أصلا..هل يمكن للعالم الإسلامي أن يقاطع كل هؤلاء؟..

تذكرت لوحة إعلانية ضخمة تراها في مدخل مدينة نيويورك كتبت عليها بحروف كبيرة: "لا تؤمن بوجود إله؟..لست وحدك..انضم إلينا" ثم اسم موقع على الإنترنت يجمع منكري وجود الله!لكن النقطة دائما هي لماذا يتعمدون إهانة نبينا محمد بالذات؟..لماذا يفعلون ذلك وأمامهم ردود الفعل الغاضبة التي ملأت الشوارع الإسلامية وانهالت على سفارات الدانمارك في كل العواصم الإسلامية وحملات المقاطعة التجارية؟..والسبب واضح..أنهم لا يبالون..المسلمون ضعفاء..هذه هي القاعدة!

وماذا عن الفتاة الدانماركية سين؟..كان الموضوع مفتوحا للنقاش على موقع Facebook الشهير كالعادة..نشرت صديقة لنا عددا من الوصلات التي تتحدث عن خبر إعادة نشر الرسوم المسيئة، وطلبت من سين تعليقا..وردت سين بما أن بلادها تتعرض لهجوم شرس الآن..هي تعرفنا جميعا كمصريين مسلمين، وتفهم جيدا أسباب غضبنا..وتعرف أنها لابد أن تقرر موقفها..لابد أنها رأت نظرة كراهية أو غيظ ما في أعين صديقتنا..

في اليوم التالي جاء رد سين طويلا ومنطقيا..كتبت لنا جميعاً رأيا طويلا تشرح فيه أنها لم تتوقع أن تثير رسومات

كاريكاتيرية في صحف تنشر في بلد مثل الدانمارك كل هذه الردود الغاضبة في العالم كله بين المسلمين..قالت إنها رأت بعينيها كيف تتسبب بعض الأقلام المستفزة في صحف بلدها في تشويه صورة بلد صغير في حاله مالوش دعوة بالسياسة العالمية وهمومها مثل الدانمارك.

سين أضافت أنها أسست مع أصدقائها مجموعة على موقع Facebook اسمها "آسفون يا محمد"، يقدمون فيها اعتذارهم بالنيابة عن الشعب الدانماركي إلى مسلمي العالم، رافضين فيه الإساءة إلى النبي محمد مع رفض سلوك من قاموا بإشعال الحرائق في الدانمارك أو خططوا لقتل رسام الكاريكاتير..وفي النهاية دعوة للمسلمين ألا يلقوا بذنب عدد من الصحف الدانماركية على الشعب الدانماركي كله، مثلما نطالب نحن بألا نلقي بذنب عدد من المسلمين خططوا لقتل الرسام على العالم الإسلامي كله.

هكذا جاء ردها..هي تدرس الصحافة وتعرف جيدا معنى حرية التعبير في بلدها..وتفهم أيضا أن حكومة بلدها لا تبالي كثيرا بغضب العالم الإسلامي..فقط كل ما يهمها هو سمعة بلدها.

ويبدو أن "فتيح" كان محقا جدا حينما قالها لنا..إن بلادنا ضعيفة..لو كنا أقوياء لما أهاننا أحد..ولو جرؤت صحيفة دانماركية ونشرت الرسوم لانتقدها باقي الصحف..ولو نشرتها

كل الصحف لانتقدتها الحكومة الدانماركية وقـدمت للعـالم الإسلامي اعتذارا رسميا على طبق من ذهب..فقط لـو كنـا أقوياء..

لكن الحقيقة أننا لسنا أقوياء..بلادنا أضعف كثيرا من أن يبالي بها الدانماركيون!

تليفزيون شالوم

في تلك الليلة قررت أن أشاهد التلفزيون الأمريكي..ليلة الأحد الرابع والعشرين من فبراير، وحفل الأوسكار أو مما يسمونه جوائز الأكاديمية الأمريكية يجذب الانتباه..هذه فرصة جيدة خاصة وأنني سأشاهده لأول مرة وأنا في داخل أمريكا..طبعا توقعت أن أجد العشرات يتدافعون على جهاز التلفزيون لمشاهدة حفل توزيع الجوائز السينمائي الأهم في العالم كله، خاصة أننا في أمريكا والبلد بلدهم والأفلام أفلامهم..إذا كان هذا الحفل يثير اهتمامنا، فماذا عن اهتمام الأمريكان أنفسهم؟

ذهبت إلى قاعة التلفزيون لأجد المفاجأة..لا أحد..لا أحد يهتم..ربما لا يعلم أحد أن حفل الأوسكار الليلة..أو ربما يعلمون ولا يبالون!..حسنا، لابد أن تعرف هذه القاعدة جيدا..الأمريكان لا يهتمون بالأخبار وأغلبهم جهلاء!

فرحت جدا؛ لأنني سأقلب قنوات التلفزيون وحدي وأتفرج براحتي..فتحت التلفزيون على أول قناة، وما إن سمعت كلمة "اليهود" حتى توقفت وقررت المشاهدة..كانت القناة تبث حفلا كبيرا يحتشد فيه المئات وعلى المنصة رجل أنيق يتحدث عن اليهودية والشعب في إسرائيل..لا تعليق!

عدت أقلب القنوات لأجد القناة الإخبارية التي طالما سمعنا عنها

باعتبارها أكبر متحدث باسم اللوبي اليهودي في أمريكا.."فوكس نيوز"!

تعال اقرأ معي شريط الأخبار..الخبر الأول عن منع موقع يوتيوب في باكستان..الخبر يتواصل في شريط الأخبار بتفاصيله -مش جملة واحدة وخلاص زي عندنا- ويشرح شريط الأخبار أن سبب منع يوتيوب في باكستان هو نشر بعض الفيديوهات المعادية للإسلام على الموقع..في جملة تالية وصف من الحكومة الباكستانية أن يوتيوب يهاجم الإسلام وأن فيديوهاته تبرز تعصب الإسلام ضد النساء والشواذ جنسيا..والخبر يتواصل كثيرا..

الخبر التالي عن إيران..المزيد من الثرثرة في شريط الأخبار عن قرار لمجلس الأمن لتمديد العقوبات على إيران..فاصل ثم باقي الخبر..السبب هو البرنامج النووي الإيراني..فاصل وباقي الخبر..والسبب أيضا تصريحات الرئيس الإيراني ضد إسرائيل..والخبر يطول كثيرا!

النصيحة الأهم لأي عربي أو مسلم أو أمريكي من أصل عربي هي "لا تشاهد الفوكس نيوز أبدًا؛ حتى لا تصاب بضغط الدم مبكرا"..قالها لنا البروفيسور المصري الذي قابلناه في أيامنا الأولى..غيرت القناة إلى محطة Abc مباشرة لمشاهدة حفل الأوسكار..مَن يختار حرقة الدم ما دام هناك نجوم السينما

ونجماتها الحسناوات والسجادة الحمراء في حفل يجمع كل نجومك المفضلين؟..وشاهدت حفل الأوسكار!

في اليوم التالي التقطت واحدة من نسخ النيويورك تايمز التي توزع مجانا على الطلبة، وقررت أن أتصفحها على السريع كالعادة..الجريدة الأساسية عادية جداً، لكنها تحتوي معها على ستة ملاحق أخرى على الأقل يوميا..على صفحة كاملة داخل الجريدة شاهدت الإعلان الشهير عن تليفزيون "شالوم"..وما أدراك ما هو تلفزيون "شالوم"!

المرة الأولى التي شاهدت فيها الإعلان كانت في أحد شوارع مانهاتن..على محل ضخم لافتة إعلانية عن تليفزيون "شالوم"..طبعا أي عربي يعرف أن كلمة "شالوم" هي الكلمة العبرية الأشهر وتعني "السلام"..وكان هناك عنوان موقع إلكتروني..فيما بعد فتحت الموقع، وعرفت ما هو تليفزيون "شالوم" هذا، وكان ما خمنته أقرب كثيرا إلى الواقع.

فتليفزيون "شالوم" هذا باقة خاصة من القنوات التليفزيونية موجهة إلى الشعب الأمريكي في طول الولايات المتحدة وعرضها، لبث برامج وأخبار يهودية طول الوقت.

تليفزيون "شالوم" يعلن في موقعه الرسمي بوضوح عن هويته قائلا: "إنه يقدم كل احتياجات المجتمع اليهودي، مزودا الشعب الأمريكي بكل ما يحتاجه لزيادة تواصلهم مع الحياة اليهودية، وإسرائيل والتقاليد اليهودية"..هذا هو هدف تليفزيون "شالوم"، وهو واضح لكل أعمى وباعتراف أصحاب مجموعة

المحطات التليفزيونية أنفسهم..والمعنى أن تليفزيون "شالوم" يعد أخطر وسيلة إعلامية توجه للشعب الأمريكي بالنسبة للعرب؛ لأنه لا يتحدث باسم اليهود بقدر ما يتحدث باسم إسرائيل.. ترى، هل تتوقع عزيزي القارئ أن يتحدث تليفزيون "شالوم" مرة عن ضحايا فلسطينيين أو عن حقوق اللاجئين الفلسطينيين؟! أم تراه سيتحدث طول الوقت عن حماس وحزب الله بعدهما الحركتين الإرهابيتين اللتين تهددان أمان إسرائيل؟!

سؤال واحد فقط أطرحه على شعوبنا العربية من المحيط إلى الخليج..إلى كل من يدين تأثير اللوبي اليهودي في أمريكا..إلى المنادين بدور عربي أقوى في المجتمع الأمريكي..إلى المهاجرين العرب الذين تصادفهم في أي مكان في أمريكا أينما ذهبت..إلى مسلمي العالم في كل مكان..هل سمعتم عن تليفزيون "شالوم" هذا؟..الأمر لم يعد مجرد تمويل يهودي يحتم على "الفوكس نيوز" أو "سي إن إن" أو أية قناة أخرى تبني وجهة نظر مؤيدة لليهود أو معادية للعرب..الأمر صار أكثر فجاجة ووضوحا وتأثيرا..باقة قنوات كاملة بتمويل يهودي تبث ٢٤ ساعة، وتخاطب الشعب الأمريكي كله بأخبار عن اليهود وإسرائيل، بوجهة نظر صهيونية طبعا - القنوات تتحدث عن إسرائيل لا عن اليهود فحسب لو لاحظت ذلك!

هل ثمة أحد لا يزال يحلم بـ"لوبي عربي" قوي في أمريكا؟..

حاول أن تشاهد تليفزيون "شالوم"..ربما تعرف الإجابة!..

عندما يتظاهر الأمريكان..

المكان: ميدان ماكفرسون الشهير..تقاطع الشارع ١٥ مع شارع "كي" في قلب العاصمة واشنطن على بعد أمتار قليلة من البيت الأبيض..

الزمان: السابعة والنصف صباح الأربعاء التاسع عشر من مارس..الذكرى الخامسة لبدء الحرب على العراق..

أما الحدث: فهو مظاهرة سلمية ضخمة تطالب بوقف الحرب وتنتقد سياسات بوش..

كان ذلك هو اليوم الأول لي في العاصمة واشنطن..بعد ليلة قصيرة قضيتها مع أصدقائي في التجوال في شوارع العاصمة والتقاط الصور أمام البيت الأبيض، وجدت نفسي أستيقظ مبكرا صباح اليوم التالي للحاق بالمظاهرة التي كانت وسائل الإعلام تتحدث عنها..

مهما سمعت عن حركات السلام في أمريكا المعادية للسياسة الأمريكية عموما أو الغزو الأمريكي للعراق، فلن تصدق مدى قوة هذه الحركات وتحمسها لمبادئهم وكراهيتهم لسياسة بلادهم الخارجية إلا عندما تراهم بنفسك يجوبون الشوارع متظاهرين ضد الحرب معرضين أنفسهم لخطر الاعتقال..

في البداية بدأ النشطاء يلبسون ثيابهم وشعاراتهم..وكلها تطالب الإدارة الأمريكية بسحب قواتها فوراً من العراق..المنشورات توزع هنا وهناك مؤكدة أن قرابة الأربعة آلاف جندي أمريكي قد لقوا حتفهم خلال الحرب..أرقام بمئات الملايين من الدولارات عن تكلفة الحرب، وتقارنها بما تنفقه الحكومة على التعليم وتحسين أوضاع المعيشة..

على ملابسهم ترى عبارة "لن نصمت" باللغة العربية، وتحتها الترجمة بالإنجليزية..ثم يجتمع القوم، ويبدأ عزف الآلات الموسيقية بترانيم عسكرية، وتبدأ المسيرة..تتحرك مغادرة ميدان ماكفرسون تجاه البيت الأبيض، ومن حولها تتناثر كاميرات وكالات الأنباء والقنوات التليفزيونية المختلفة.

هنا دارت عيناي باحثة عن عربات الأمن المركزي الأمريكية، فلم أجد..استعاد ذهني منظر هذه العربات التي كانت تملأ ميدان التحرير بالعشرات من الصباح الباكر، وكنا نرى -أثناء رحلتنا إلى مقر الجامعة في قلب الميدان- صف المجندين يمتد من الجزيرة عابرا كوبري قصر النيل ومحاصرا ميدان التحرير بالكامل..هذا فقط إذا ما ذكرت وسائل الإعلام أية نوايا لحركة (كفاية) لتنظيم مظاهرة سلمية..

المشهد في واشنطن كان مختلفا..ثمة سيارة شرطة أو سيارتان وعدد لا يتجاوز العشرة من دراجات الشرطة البخارية..عندما بدأت المظاهرة تنقلت عيناي هنا وهناك خائفا من ضابط أمريكي يأتي للقبض على البعض، لكن بدا الكل يتعامل مع

المتظاهرين بهدوء تام..بل إن بعض الضباط راحوا ينظرون لدمية بوش ويضحكون..وعندما تقدمت التظاهرة بالآلات الموسيقية وتعالت هتافاتهم المناهضة لسياسة بوش وللحرب على العراق تحركت إلى جوارها دراجات الشرطة..وفي تقاطع الطرق سبقت الدراجات البخارية التظاهرة حتى -صدّق أو لا تصدّق- توقفَ عبور السيارات، وتسمح للتظاهرة أن تعبر الشارع في سلام..والله حدث ذلك وتكرر مع كل تقاطع طريق..رغم أننا في قلب واشنطن..على بعد أمتار من البيت الأبيض..وحولنا تنتشر مباني الوزارات الحيوية هنا وهناك.

تحركت المظاهرة دون أية مضايقات أمنية بل في حماية الشرطة حتى وصلت إلى هدفها..مبنى IRS- اختصار Internal Revenue Service- وهو المسئول عن الضرائب..والتف المتظاهرون أمام المبنى على الرصيف، فيما قامت الشرطة بالفصل بين حدود الرصيف مع الطريق بسيارات الشرطة حتى لا يتعطل المرور، ووضع حرس المبنى الحيوي حواجز معدنية غير مسموح لأحد بتجاوزها..ذكرني المبنى بمظاهرات نقابة الصحفيين عندنا، حيث يقف المتظاهرون يهتفون أمام النقابة وأمامهم صف عساكر الأمن المركزي بعصيهم وأوقيتهم الزجاجية..الفارق هنا أن صف العساكر هذا هو عبارة عن بضعة ضباط فحسب.

وفجأة تغير التعامل السلمي للضباط مع المتظاهرين عندما حاول أحدهم عبور الحاجز المعدني.. انقض عليه ضابطان ورفعاه في الهواء باحترافية، وأيديهما تقلبان ملابسه وجيوبه..وعندما اطمأنا إلى عدم وجود أية أسلحة معه دفعاه

إلى خارج الحاجز المعدني دون أن يمسه سوء..قام الضابطان بواجبهما دون أن يجرحا الفتى أو يهينا كرامته..طبعا في لحظات كهذه كانت هناك معركة أخرى خارج الحاجز المعدني بين كاميرات المصورين والصحفيين..خلال الدقائق التالية تمكن ما يقرب من عشرة نشطاء من عبور الحاجز المعدني، وكان الضباط يقومون بتفتيشهم بسرعة قبل أن يكبلوا أيديهم ويسمحون لهم بالجلوس أمام المبنى ليهتفوا كما شاءوا ضد الحرب..بدا المنظر جميلا وهؤلاء النشطاء المكبلون يزدادون رويدا رويدا حتى انضم إليهم نساء وكهول أيضا، وكلهم يرتدون شعارات ضد الحرب.

وخارج الحاجز المعدني كانت الهتافات تتوالى..ثمة فتاة متحمسة تتساءل: "أخبرني كيف تبدو الديمقراطية؟"، فيرد القوم: "هكذا تبدو الديمقراطية".

وبعدما فرغ القوم من مظاهرتهم، تحرك رجال الشرطة لنقل النشطاء المكبلين الذين عبروا الحاجز إلى داخل سيارات الشرطة..كان النشطاء يبدون سعداء جدًا، يصيحون بحماس والمتظاهرون يهتفون لهم "لن نتخلى عن المقاومين.. إنهم إخواننا وأخواتنا"، فيما يبذل الصحفيون جهودا قصوى للتحدث مع المعتقلين وسؤالهم عن أسمائهم.

في الساعات التالية كانت وكالات الأنباء تنقل صور المظاهرات المناهضة للحرب التي راحت تجوب شوارع العاصمة الأمريكية، فيما كان "بوش يتخذ" موكبه من البيت الأبيض إلى

مبنى البنتاجون في الجانب الآخر لواشنطن عبر نهر بوتوماك - لابد أنه رأى الشعارات المناهضة له في طريقه- ليواجه الشعب الأمريكي بأكاذيب انتصارات الحرب، قائلا: أمريكا اليوم أكثر أمانا عما كانت قبله قبل الحرب.

إذا كنت واحدا من هؤلاء الذين يعتقدون أن مثل هذه المظاهرات عديمة المعنى ولا يمكنها أن تغير من مجرى سياسات البيت الأبيض، وأنها لن توقف الإرهاب في العراق، ولن تسحب القوات الأمريكية من العراق بين ليلة وضحاها..فأنت على حق في كل هذا، لكن الميزة الأهم في مثل هذه المظاهرات هو لفت أنظار المواطن الأمريكي العادي إلى ما يجري في العراق..استطلاعات الرأي تؤكد أن وسائل الإعلام في أمريكا لم تعد تولي اهتماما لما يحدث في العراق رغم سقوط ضحايا من الجانب الأمريكي بصفة مستمرة، في ظل اهتمام وسائل الإعلام الأكبر بالتنافس بين الحزب الديمقراطي والجمهوري من جهة وتنافس "هيلاري كلينتون" و"باراك أوباما" من جهة أخرى للفوز بترشيح الحزب الديمقراطي في الانتخابات الرئاسية - كانت هذه قضية الساعة رقم واحد في أمريكا حينها..وإذا ملّت وسائل الإعلام من مجادلات الانتخابات المملة فإنها تنتقل للحديث عن الأزمة الاقتصادية الحالية في أمريكا بعد ارتفاع أسعار البترين بقوة وانخفاض سعر الدولار أمام اليورو..أما الحرب على العراق فقد تراجع الاهتمام بها كثيرا و لم تعد تأخذ اهتماما كبيرا.

الغاية التي تحاول مثل هذه المظاهرات تحقيقها هو لفت الأنظار إلى الخسائر البشرية الرهيبة للجنود الأمريكان في

العراق، وتطرح تساؤلات حول ميزانية الحرب وتقارنها بميزانيات التعليم.. بعد هذه المظاهرة يمكنني أن أقتنع تماما بأن الفارق ضخم بين الشعب الأمريكي المسالم وبين سياسات حكومته الطاغية..الفارق ضخم بين ديمقراطية حكومته داخل حدود البلاد وديكتاتورية نفس الحكومة خارج الحدود..الفارق ضخم أيضا بين مظاهرة سلمية تعامل بكل احترام في قلب أهم عاصمة في العالم، وبين مظاهرة أخرى يحتشد من أجلها عشرات الآلاف من جنود الأمن المركزي قبل ساعات طويلة من وقوعها أصلا -هذا إذا وقعت- في عاصمة أخرى لن أذكر اسمها.."أنت عارفها طبعا"!

أن تكون أمريكيا مسلما..أو مسلما أمريكيا!

كانوا ثلاثة..في البداية كان من الصعب أن نبدأ حديثا لأن المؤتمر على وشك نهايته، و لم يعد هنالك وقت للتعارف، لكنني كنت مهتما جدا لأن أعرف شيئا عنهم..عندها بدأ أحدهم حديثه عن مفهوم الجهاد في الإسلام شارحا لصديقه أن أفضل أنواع الجهاد هو "جهاد النفس" بكفها عن المعاصي..المشكلة أنه نطق اللفظ بالعربية وتوقف عاجزا عن ترجمته، فتدخلت لأترجمه لصديقه..الغريب أن الثلاثة كانوا مجموعة من الشباب الأمريكان بيض البشرة..

هذا المشهد واحد من مشاهد مثيرة كثيرة شهدها المؤتمر السنوي لرابطة الطلبة المسلمين MSA National في نيوجيرسي..الشيء الذي لن تصدقه بسهولة هو أن أغلب هؤلاء الطلبة الذين تجمعوا من كل ولايات الساحل الشرقي الأمريكي قد قضوا حياتهم هنا في أمريكا..أصولهم عربية وآسيوية وأفريقية، لكن أغلبهم ولد هنا في أمريكا، وتعلم في أمريكا، ونشأ كأي أمريكي يحمل الجنسية الأمريكية، ويحمل انتماء صادقا لوطنه أمريكا، بالإضافة لانتماء آخر هو الأكبر والأعظم في قلوبهم جميعا..كلهم مسلمون.

وفي كل جامعة أمريكية رابطة يؤسسها الطلبة المسلمون يطلقون عليها اسم MSA، والهدف إقامة الشعائر الإسلامية

والاحتفال بالأعياد الإسلامية، وتعريف المجتمع الأمريكي بالإسلام..حتى لو وقعت جامعتك في مدينة لا يوجد بها مسلمون ولا يوجد بها مساجد فإن الرابطة تكون بوسعها تخصيص أماكن بالجامعة للطلبة على الأقل لأداء صلاة الجمعة..في بعض الجامعات تخصص الجامعة غرفة دائمة للمسجد..في جامعة هارفرد نجحت الرابطة في تخصيص غرفة دائمة للمسجد، بل ونجحت في تخصيص ساعات خاصة بالبنات في قاعة الألعاب الرياضية بالجامعة.

وكثير من الطلبة ينتمون لأصول عربية وباكستانية وهندية، لكنهم يجيدون الإنجليزية الأمريكية أكثر مما يجيدون لغتهم الأصلية..في بطاقاتهم اسم الجنسية الأمريكية وقلوبهم تحمل الهوية الإسلامية..في كل مكان يكونون مطالبين بأن يؤكدوا لمن حولهم أنهم أمريكان وأنهم فخورون بكونهم كذلك..وأنهم مسلمون وفخورون أيضا بكونهم كذلك..

في كواليس المؤتمر يتواجد ممثلو المنظمات الإسلامية..من Islamic Relief مندوبون يحثون المشاركين على التطوع لخدمة الإنسانية حول العالم مسلمين كانوا أو غير مسلمين.. ومن مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية CAIR ومعهم منشورات ومجلات ترصد الاضطهاد والجرائم التي تعرض لها المسلمون في أمريكا بعد أحداث ١١ سبتمبر..يحدثونك عن حقوقك كمواطن أمريكي مسلم ينبغي أن يحيا كمواطن أمريكي ويمارس شعائره بحرية كمسلم..

احتل الإمام د."محمد قطاناني" واحدة من أبرز ملفات المؤتمر، فهو إمام أكبر مركز إسلامي في نيوجيرسي، وقدم خدمات جليلة للمجتمع الإسلامي في أمريكا، ومع ذلك فهو مهدد بالطرد من أرض الحرية بعد ١٣ عاما من إقامته في أمريكا..عرضت القضية وجاء الإمام "قطاناني" بنفسه، وتحدث عن إيمانه بعدالة قضيته، بينما كان مساندوه يجمعون توقيعات المشاركين على الاحتجاجات التي يفترض أن يقدمها المسلمون إلى الحكومة الأمريكية معلنين اعتراضهم على قرار حكومتهم..وفي نهاية كلمته لم ينس الإمام "قطاناني" أن يشكر محاميه الذي يشجعه ألا يستلسم أبدا..بالمناسبة المحامي ليس مسلما..إنه يهودي!

وبما أن فيرجينيا تيك كانت واحدة من أبرز الجامعات المشاركة، فكان لابد من تذكر الأحداث المأساوية التي وقعت قبل عام في حرمها الجامعي وأودت بحياة أكثر من ثلاثين طالبا..وتذكرت الرابطة إنجازها في جمع مائة ألف دولار من كل أنحاء أمريكا لصالح أسرة الشهيد المصري "وليد شعلان".

من بين الوجوه التي تحمل أجناسا مختلفة يمكنك أن تميز وجوها أمريكية خالصة تجزم بأنها لا يمكن أن تكون من أصول من دول إسلامية..في تلك الحلقة التي جمعت بين الأمريكان الثلاثة التي بدأت بها الموضوع كان اثنان منهم قد تحولا إلى الإسلام منذ ثلاثة أعوام..أحدهم قال إن والده يهودي وأمه كاثوليكية وقد تركا له حرية اختيار العقيدة، فكانت المفاجأة أنه اختار الإسلام بعد عشرين عاما قضاها بلا عقيدة..سألته

عن ردود فعل والديه، فقال إنهما كانا فخورين به لأنه اختار طريقه بنفسه..أما الثالث فقد أعلن بصراحة أنه جاء للمؤتمر بغرض التعرف أكثر بالإسلام، وكان مختلطا عليه مفهوم الجهاد الذي سمع عنه كثيرا..هل الجهاد أن تقتل الأبرياء وتهدم برجي التجارة العالمي وتدمر البنتاجون؟..هنا رد عليه زميله الأمريكي مصححا له مفهومه..وفي النهاية أعلن الثالث أنه لا يزال مترددا..لا يزال محتفظا بقائمة من العادات التي يصعب عليه أن يتخلى عنها لينطق الشهادة ويتحول للإسلام..هنا قدم له الأمريكي الآخر نصيحة أخرى..إن الدين متين فأوغل فيه برفق!

في لقاءات التعارف الكثيرة التي كانت تجمعني مع الطلبة المشاركين كنا نتوقف في لحظة عن التحدث بالإنجليزية بعد أن أفهم أن محدثي يمكن أن يفهمني بالعربية..حينها أكتشف أن محدثي قد ولد في مصر أو على الأقل من أصل مصري..وقد يكون فلسطينيا أو لبنانيا أو جزائريا..لكنه الآن يحمل الجنسية الأمريكية أيضا!

وإذا كان عدد المشاركين في هذا المؤتمر لم يتعدَ الألف بأية حال، فإنه على أية حال واحد من خمسة مؤتمرات كبرى تجمع طلاب روابط الطلبة المسلمين في الجامعات في شرق وغرب ووسط وجنوب وشمال أمريكا وكندا..ويبقى دائما الدور الأهم الذي يمارسه هؤلاء الطلبة في جامعاتهم في تجميل صورة الإسلام المشوه في البلاد التي شهدت أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

الضحك من أجل السلام!

كانت كل المواقع الإخبارية العربية تزخر بالأخبار المتدفقة من غزة..أربعون شهيدا..خمسون شهيدا..أربعة وخمسون شهيدا..تنتقل بين موقع إلكتروني وآخر لتكتشف أن الأرقام تتزايد.. الهولوكوست الجديدة التي لوح بها نائب وزير الحرب الإسرائيلي بها ضد الفلسطينيين بدأت فعلا، و لم تعد مجرد تهديد أعمى..كان كل شيء ينذر بنهر جديد من الدماء في غزة، ومع ذلك قررت أن أترك كل هذا وأذهب إلى العرض الذي ينظمه اتحاد الطلبة اليهود في جامعة نيوبولتز الأمريكية.

العرض يقدمه أمريكيان اثنان..الأول مسلم من أصل عربي اسمه "دين عبيد الله"، والثاني يهودي اسمه "سكوت بلاك مان"..يطلقان على عرضهما الكوميدي اسم "قف من أجل السلام"، ولديهما موقع إلكتروني على الإنترنت ستعرف من خلاله مدى شهرة عرضهما الكوميدي ومدى انتشاره، فهما يتنقلان به من مسرح إلى آخر، ومن ولاية أمريكية إلى أخرى، ومن قارة إلى أخرى..هما قد قدما عرضهما من قبل في بيروت ودبي وحيفا بالمناسبة.

وفكرة العرض ببساطة هي السلام..عربي ويهودي يقفان معا يتحدثان بمرح عن عملية السلام في الشرق الأوسط، ويقدمان حلا كوميديا للصراع الفلسطيني الإسرائيلي.. في البداية وقف اليهودي يتحدث كثيرا في كلام بلا

معنى..يسأل الحاضرين عن البلد التي ينتمون إليها، وهل كلهم من نيويورك أم من ولايات أخرى..ثم انتقل يسخر من "هيلاري كلينتون" ومن "باراك أوباما"، وما دام لا أحد من الحاضرين يشجع الحزب الجمهوري فلن يسخر من "ماكين".. وجاء الشاب العربي ليحدثنا أكثر عن أصوله، فوالده فلسطيني مسلم من قرية تقع قرب بيت لحم وأمه إيطالية مسيحية..الأب والأم تزوجا في أمريكا، ورغب والده في تسميته "صلاح الدين" فرفضت الأم، وفي النهاية سماه "دين" وخلاص..

ويبدو أن كلا من الاثنين -العربي واليهودي- لم يسمعا عن المجزرة المستعرة في غزة..لا اليهودي سمع عن نيران إسرائيل المنصبة فوق سكان غزة، ولا العربي سمع عن دماء العشرات الذين سقطوا ضحايا القصف الإسرائيلي خلال ساعات قليلة..الاثنان يمضيان يطلقان النكات حول "كلينتون" و"أوباما"..ثم ينتقل العربي ليسخر من فكرة الغرب النمطية عن العرب، حاكيا بعض المواقف التي تعرض لها ليغرق الحاضرين في عاصفة من الضحك..

ثم يتوقف العربي ليسأل عما إذا كان هنالك بين الحاضرين عربا..رفعت يدي وسألني عن دولتي.. مصر..كنا ثلاثة مصريين وكانت صديقتنا الفلسطينية معنا ومعها أخواتها..أما باقي الجمهور فكانوا يهودا..كلهم يهود..وكلنا نواصل الاستمتاع بالعرض ونضحك..نضحك..نضحك بأعلى صوتنا على خفة دم الشابين العربي واليهودي.

انتهى العرض..فاقتربت من الشاب العربي وتحدثت معه..كان سعيدا جدا بفرحة الحاضرين بالعرض..قال لي إنه مهتم جدا بأن يقدم عرضه في مصر، بعد أن حاز إعجاب الجمهور العربي في دبي من قبل، وأعجب الإسرائيليين أيضاً في حيفا..والمغزى أن ما يضحكنا كلنا عربا ويهودا قد يجمعنا للحديث عن السلام..سألته عن إجادته للعربية، فقال إنه يتعلم..زرت فلسطين قبل كده؟..طبعا..زار أولاد عمومته..يعيشون في قرية قرب بيت لحم.

اقتربت منه عجوز يهودية لتعارضه في رأي قاله على المسرح..هو قد قال إن الشباب أكثر ترحيبا بالسلام بين العرب واليهود، وهي قد جاءت لتقول له إن كبار السن أيضا يرحبون بالسلام..وفي النهاية احتضن صديقه اليهودي ومضيا معا.

صديقتنا الفلسطينية تقف معنا بعد العرض..شفتوا مجزرة غزة؟..قلت لها إنني قرأت الأخبار، فتبلغنا أن قناة الجزيرة شغالة طول اليوم في بيتهم..ستون فلسطينيا سقطوا شهداء في ساعات..إنها حرب جديدة.

وهأنذا أعود من جديد إلى حجرتي..أفتح الكمبيوتر وأبدأ جولة جديدة بين المواقع الإخبارية..مجلس الأمن يجري اجتماعا طارئا..أهلا بمسرحيات مجلس الأمن الركيكة..لسوف يجتمع المجلس الموقر ويقدم صيغة ركيكة يدين فيها الطرفين..ربما يدين إسرائيل لاستخدام القوة، لكنه طبعا سيدين حماس لإطلاقها

الصواريخ على إسرائيل..وسيمضي السادة الدبلوماسيون ببدلاتهم الأنيقة يتبادلون نقاشاتهم العلنية الهادئة أمام شاشات الإعلام في قاعة مجلس الأمن الأنيقة في مقر الأمم المتحدة في مانهاتن، أو ربما يدخلون في جدالات عقيمة في قاعتهم الصغيرة حيث لا تسمح لكاميرات الإعلام بالدخول..وتنتهي المسرحية بقرار جديد يضمه المجلس إلى تاريخ قراراته بعدما تكون إسرائيل قد فرغت من مذبحتها الجديدة في غزة.

وإلى أن يصدر قرار مجلس الأمن بوقف الاجتياح الإسرائيلي أو بإدانة صواريخ حماس دعونا نمضي نحن العرب نواصل مهمتنا التقليدية..البعض سيشجب والبعض سيندد..البعض سيجلس أمام نشرة الأخبار يشاهد غزة في بث مباشر دامعا، بينما يتجاهل البعض الآخر كل شيء وينهمك في متابعة الحلقة الجديدة من المسلسل العربي..ما بلاش وجع دماغ يا عم..غزة مين بقى..ما هم متعودين على كده..

ولا شك أنني أشعر بالذنب بشدة وأنا أكتب هذه السطور..منذ ساعات كنت جالسا وسط العشرات من اليهود والقليل جدا من العرب نضحك معا على عرض كوميدي يتناول القضية الفلسطينية بسخرية..عرض يجعل من الضحك شعارا من أجل السلام..في تلك الساعات التي كنا مستغرقين فيها في الضحك، كان الآلاف من سكان غزة يرتجفون تحت وطأة القصف الإسرائيلي الغادر..كان المئات يفرون في شوارع غزة من صواريخ الغدر الإسرائيلية..كان العشرات يقتلون ويسقطون ضحايا..كل هذا ونحن مشغولون بالحديث عن

السلام والضحك!..في الوقت نفسه كان عشرات الملايين من العرب مشغولين بأشياء أخرى!

ومهما زاد عدد الضحايا والشهداء، فأعتقد أن كلا من الشابين العربي واليهودي "دين" و"سكوت" سيظلان يؤمنان بأن الضحك هو السبيل الأمثل للسلام، وربما للربح المادي أيضا..هذه هي مهنتهما التي يجوبان بها مسارح الولايات المتحدة والعالم..كما أنهما جرباها من قبل في بيروت ودبي وحيفا ونجحا..و"دين" قال لي إنه راغب في أن يقدم عرضه مع "سكوت" في القاهرة قريبًا..هذه هي مهنته وهذه هي مهمته..الضحك من أجل السلام.

لكن ترى هل سيمنع العرض الكوميدي الذي يقدمه الشابان العربي واليهودي طفلا تعسا من الموت في غزة؟..هل ستنقذ ضحكات العرب واليهود التي انطلقت معا امرأة من فقد زوجها وأولادها في لحظة بسبب صاروخ إسرائيلي أعمى؟..بالطبع لا..

حسنا دعونا نطرح السؤال بوجه أكثر عموما..هل ستنقذ دموع العرب أو استنكارهم أو احتجاجهم وشجبهم روح شيخ مسن قصف الإسرائيليون مترله؟..هل سيعيد قرار مجلس الأمن المنتظر -بفارغ الصبر- أرواح الستين فلسطينيا الذين سقطوا شهداء خلال ساعات معدودة؟.. بالطبع لا..

ومادام الجواب لا..فليس بوسعنا سوى أن نضحك قليلا..نضحك على خيبتنا وضعفنا..ولا تنس أن تضحك قليلا من أجل السلام!

المشهد التالي في المركز الثقافي الإسلامي في واشنطن..

كانت صلاة الجمعة قد انتهت لتوها..صلاة جمعة بإمام عربي ومصلين من كل أنحاء العالم يجمعهم دين واحد وعقيدة واحدة..الخطبة الأولى الطويلة باللغة العربية تليها خطبة أقصر قليلا بالإنجليزية، ثم تبدأ الصلاة..من هنا من شارع في قلب العاصمة الأمريكية، وفي أحد أرقى أحيائها؛ حيث تنتشر سفارات دول العالم هنا وهناك.

انتهت الصلاة، فأعلن إمام المسجد أن لديه أمرا مهما..في البداية قرأ الطلبات المعتادة حيث يعزي فلانا في وفاة أحد أقاربه، أو يعلن حاجة علان شيئا ما، ثم عرّف المصلين إلى كهل أبيض يجلس جواره، وقال إنه يرغب في اعتناق الإسلام..سأله عما جعله يفكر في اتخاذ هذه الخطوة، فقال إنه قد قرأ كثيرا عن الإسلام..وأمام عيون المصلين أخذ الإمام يلقنه الشهادة..تعالت صيحات الجميع تهنئ الأمريكي على انضمامه إليهم، واقترب الكل منه يصافحه.

المشهد الذي رأيته بنفسي وشدني بشدة لم يكن سوى مشهد مكرر تشهده أمريكا يوميا بل وتشهده أوروبا أيضا..حينها فقط يمكنك أن تتوقف قليلا؛ لتسأل نفسك: ما الذي يجعل إنسانا لم يولد من أبوين مسلمين، و لم ينشأ في دولة

مسلمة، ولا يوجد سبب واحد يجبره على اعتناق الإسلام..ما الذي يجعل هذا يختار هذا الدين بكامل إرادته الحرة؟

أكتب هذه السطور بينما وسائل الإعلام ممتلئة بالأخبار عن ردود فعل العالم عقب نشر فيلم النائب الهولندي "فيلدرز" المسيء للإسلام على الإنترنت..الأمم المتحدة تندد..الشركات الهولندية تبدي خوفها من المقاطعة..رئيس الوزراء الماليزي السابق "مهاتير محمد" يدعو المسلمين إلى المقاطعة التجارية..رسام الكاريكاتير الدنماركي صاحب الرسوم المسيئة يبدي غضبه من استخدام رسومه دون إذنه في الفيلم..وفي هولندا يزداد الإقبال على شراء المصاحف الإلكترونية مما يؤدي إلى نفادها..

المشكلة في كل هذا أن فيلما واحدا لا تتجاوز مدته سبع عشرة دقيقة قد أثار كل هذه الضجة..أنا شاهدت الفيلم بنفسي؛ لأطلع على هذا الفيلم "المسيء للإسلام والقرآن الكريم" كما تقول وسائل الإعلام، فلم أجد إلا هراء..حتى لفظ فيلم لا يستحقه هذا الفيديو القصير..فهو لا شيء سوى مجرد تجميع لبعض مشاهد الفيديو من هنا وهناك، ودمجها معا مع بعض آيات من القرآن الكريم، دون أي فهم لمعاني الآيات، ولا لمناسبة نزولها.

إذا كان الفيلم المسيء "فتنة" قد بدأ بآية: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمْ}، ثم بدأ الهجوم مباشرة بعرض مشاهد من أحداث ١١ سبتمبر، وتفجير برجَي مبنى التجارة العالمي، ومشاهد تفجير مترو لندن ومدريد، وكأن هذه الآيات المباركة كانت أمرا للقاعدة بتنفيذ هذه العمليات الإرهابية..المخرج الذي انتقى هذه الآيات يقدّم بما لا يدع مجالاً للشك دليلا على جهله الشديد بتعاليم الإسلام، الذي ساوى قتل النفس بغير حق بالكفر.

بصراحة الفيلم قد يؤثر في أي جاهل لا يعرف شيئا عن الإسلام..المواطن الجاهل في الغرب لا يعرف من المسلمين سوى "أسامة ابن لادن"، و"الظواهري"، و"صدام حسين"، و"أحمدي نجاد"، وعندما يرى امرأةً محجبة في الشارع يعرف أنها مسلمة، لذلك فإن فيلما كهذا يقدّم له ما يبدو أنه دليل من القرآن على إباحة العمليات الإرهابية وإباحة دم "الكفار" وكراهية "اليهود" مما يجعل أي جاهل يعتقد فعلا أن الإسلام دين الإرهاب!

إذن هذه هي المشكلة..

ها هو ذا فيلم صنعه سياسي جاهل يملأ الدنيا ضجيجا بما فيه من مادّة خاطئة مسيئة للإسلام، بينما يعجز أكثر من مليار مسلم على توصيل مفاهيم دينهم الصحيح إلى باقي سكان العالم..

المشكلة أيضا أننا من أعطينا لهذا الفيلم كل هذه الشهرة، كما فعلنا مع الرسوم المسيئة، وكما فعلنا مع رواية "سلمان رشدي" في الثمانينات، وكأننا لم نستوعب الدرس بعد..

ذات يوم صدرت رواية "رشدي"، ليعلن بعدها "آية الله الخميني" فتواه الشهيرة بإباحة دم "رشدي"، ليثور العالم الغربي لحرية التعبير..ماذا لو صمت المسلمون وانشغلوا بالحديث عن دينهم بمفاهيمه الصحيحة بدلا من الهياج لرواية ركيكة لمؤلف مغمور تقدم تاريخا مغلوطا؟.. التاريخ يكرر نفسه مرات ومرات، دون أن يتعلم المسلمون الدرس..هاجوا ضد "رشدي"، فحطمت روايته أرقام المبيعات، وصار المؤلف المغمور شهيرا تحرسه السلطات البريطانية.. هاجوا ضد رسام الكاريكاتير الدنماركي المغمور الذي نشر رسوماته في صحيفة ثانوية دنماركية، لتعيد صحف أوروبا وأمريكا نشر الرسوم، ويصير الرسام أشهر رسام كاريكاتير في العالم، وتحرسه السلطات الدنماركية أيضا..وها هم المسلمون يثورون من جديد من أجل سياسي هولندي يصنع فيلماً سخيفا يقدّم به شهادة على مدى جهله وكراهيته للإسلام.

في رأيي أن أكثر من أساء للإسلام في تاريخه هو تنظيم القاعدة..عندما يقتل آلاف الأبرياء في تفجيرات ١١ سبتمبر، ثم يخرج أسامة بن لادن مستشهدا بالقرآن والسنة؛ ليبرر هذه الهجمات الإرهابية، ويتوعد بالمزيد..أليست هذه أكبر إساءة ممكنة للإسلام؟..العالم كله سمع عن تفجيرات سبتمبر، ويعرف

المشكلة في كل هذا أن فيلما واحدا لا تتجاوز مدته سبع عشرة دقيقة قد أثار كل هذه الضجة..أنا شاهدت الفيلم بنفسي؛ لأطلع على هذا الفيلم "المسيء للإسلام والقرآن الكريم" كما تقول وسائل الإعلام، فلم أجد إلا هراءً..حتى لفظ فيلم لا يستحقه هذا الفيديو القصير..فهو لا شيء سوى مجرد تجميع لبعض مشاهد الفيديو من هنا وهناك، ودمجها معا مع بعض آيات من القرآن الكريم، دون أي فهم لمعاني الآيات، ولا لمناسبة نزولها.

إذا كان الفيلم المسيء "فتنة" قد بدأ بآية: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ}، ثم بدأ الهجوم مباشرة بعرض مشاهد من أحداث ١١ سبتمبر، وتفجير برجَي مبنى التجارة العالمي، ومشاهد تفجير مترو لندن ومدريد، وكأن هذه الآيات المباركة كانت أمرا للقاعدة بتنفيذ هذه العمليات الإرهابية..المخرج الذي انتقى هذه الآيات يقدّم بما لا يدع مجالاً للشك دليلا على جهله الشديد بتعاليم الإسلام، الذي ساوى قتل النفس بغير حق بالكفر.

بصراحة الفيلم قد يؤثر في أي جاهل لا يعرف شيئا عن الإسلام..المواطن الجاهل في الغرب لا يعرف من المسلمين سوى "أسامة ابن لادن"، و"الظواهري"، و"صدام حسين"، و"أحمدي نجاد"، وعندما يرى امرأة محجبة في الشارع يعرف أنها مسلمة، لذلك فإن فيلما كهذا يقدّم له ما يبدو أنه دليل من

القرآن على إباحة العمليات الإرهابية وإباحة دم "الكفار" وكراهية "اليهود" مما يجعل أي جاهل يعتقد فعلا أن الإسلام دين الإرهاب!

إذن هذه هي المشكلة..

ها هو ذا فيلم صنعه سياسي جاهل يملأ الدنيا ضجيجا بما فيه من مادّة خاطئة مسيئة للإسلام، بينما يعجز أكثر من مليار مسلم على توصيل مفاهيم دينهم الصحيح إلى باقي سكان العالم..

المشكلة أيضا أننا من أعطينا لهذا الفيلم كل هذه الشهرة، كما فعلنا مع الرسوم المسيئة، وكما فعلنا مع رواية "سلمان رشدي" في الثمانينات، وكأننا لم نستوعب الدرس بعد..

ذات يوم صدرت رواية "رشدي"، ليعلن بعدها "آية الله الخميني" فتواه الشهيرة بإباحة دم "رشدي"، ليثور العالم الغربي لحرية التعبير..ماذا لو صمت المسلمون وانشغلوا بالحديث عن دينهم بمفاهيمه الصحيحة بدلا من الهياج لرواية ركيكة لمؤلف مغمور تقدم تاريخا مغلوطا؟.. التاريخ يكرر نفسه مرات ومرات، دون أن يتعلم المسلمون الدرس..هاجوا ضد "رشدي"، فحطمت روايته أرقام المبيعات، وصار المؤلف المغمور شهيرا تحرسه السلطات البريطانية.. هاجوا ضد رسام الكاريكاتير الدنماركي المغمور الذي نشر رسوماته في صحيفة

ثانوية دنماركية، لتعيد صحف أوروبا وأمريكا نشر الرسوم، ويصير الرسام أشهر رسام كاريكاتير في العالم، وتحرسه السلطات الدنماركية أيضا..وها هم المسلمون يثورون من جديد من أجل سياسي هولندي يصنع فيلماً سخيفا يقدّم به شهادة على مدى جهله وكراهيته للإسلام.

فى رأيي أن أكثر من أساء للإسلام في تاريخه هو تنظيم القاعدة..عندما يقتل آلاف الأبرياء في تفجيرات ١١ سبتمبر، ثم يخرج أسامة بن لادن مستشهدا بالقرآن والسنة؛ ليبرر هذه الهجمات الإرهابية، ويتوعد بالمزيد..أليست هذه أكبر إساءة ممكنة للإسلام؟..العالم كله سمع عن تفجيرات سبتمبر، ويعرف أن تنظيم القاعدة هو المتهم الأول في هذه التفجيرات، وبالتالي منفذو هذه الهجمات الإرهابية مسلمون..

حسنا..كم واحدا منهم يعرف شيئا عن هذا الدين الذي يعتنقه هؤلاء الإرهابيون؟..كم واحدا منهم قد سمع عن هذه الآية الكريمة:{مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا}.. [المائدة:٣١].. كم منهم يعرف أن الإسلام لم يحرم فقط قتل الأبرياء بل حرم قتل النساء والأطفال والشيوخ من العدو، ووصل الأمر إلى تحريم قطع الأشجار.

الأوْلى والأهم للمسلمين أن ينشغلوا بالتعبير عن دينهم ومعتقداتهم الصحيحة بدلا من مهاجمة كل من يسيء لهم،

وتهديده بالقتل..نصيحتي لكل قادة وزعماء وأئمة المسلمين أن يعيدوا قراءة القرآن من جديد..من كان منكم يهلّل لمقتل آلاف الأبرياء في ١١ سبتمبر، فهو لا يعرف شيئا عن دينه.. من كان منكم يقف ليدعو أن يبيد الله اليهود جميعا فهو مخطئ..من كان منكم يستبيح دم معارضيه أو ينتهك كرامة مواطنيه فالأولى به أن يفهم دينه جيدا قبل أن يتحدث عنه..

لقد بدأت هذا المقال بأجمل مشهد يمكن أن تراه للإسلام..أمريكي يعتنق الإسلام عن قناعة تامة.. لماذا اختار الإسلام دينا رغم أنه يحيا في أمة تجمع كل ديانات وجنسيات العالم، فضلا على أن أغلب من فيها لا يمارس طقوس دينه أصلا؟..وهو مشهد واحد من مشاهد الحياة اليومية للمسلمين في بلاد غير المسلمين..هناك من يقابلك؛ ليسأل عن مفهومك لله..هناك من يسألك عن صلاتك التي تؤديها أمامه خمس مرات يوميا..هناك من يسألك عن صومك..يسألك عن سر تجاهلك للّحم على مائدة الغداء، وسعيك المستمر للبحث عن لحم "حلال"..عن امتناعك التام للذهاب للحفلات ما دامت تتضمن خمرا..أسئلة كثيرة يطرحها غير المسلمين على أصدقائهم المسلمين، وربما كانت إجابتك لسؤال واحد منهم بابتسامة هادئة ونفس راضية سببا في إقبال السائل على الاطلاع أكثر وأكثر على دينك..فإذا فهم دينك جيدا فقد كسبت احترامه وتقديره لدينك وعقيدتك، وربما تكسب ما هو أكثر بكثير لو انتهى السائل إلى المشهد الأول لمقالنا.

وفي النهاية لي رأي أعلم جيدا أن كثيرين من القراء سيختلفون معي حوله: أنا قد بحثت عن الفيلم على الإنترنت ووجدته على يوتيوب موقع الفيديو الأشهر في العالم، وشاهدته كما شاهده مئات الآلاف من زوار الموقع قبلي..شاهدت الفيلم؛ لأزداد يقينا أنه محض هراء، وأزداد ثقة في ديني، ثم أضفت تعليقا على الموقع إلى جوار آلاف التعليقات التي اتفقت مع الفيلم وهاجمت الإسلام، أو اختلفت مع الفيلم ورفضت الهجوم على الإسلام..في رأيي أنه من الأفضل للمسلمين أن يشاهدوا الفيلم ما دام يوتيوب لم يحذفه، وأن يضيفوا تعليقاتهم ردّا على ما جاء بالفيلم، وهو أضعف الإيمان؛ للرد على ما جاء بالفيلم..وبهذا ستتيح الفرصة لمشاهدي الفيلم معرفة وجهة نظر الطرف الآخر.. فقط لو كتبت آية كريمة مثل: **{مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا}**..فقد ردَدْت على كل ما جاء بالفيلم..الرد بالكلمة أفضل كثيرا في نفس المكان الذي يذيع الفيلم، وهي خير ممن ملأ عالمنا العربي تنديدا وهياجا؛ احتجاجا على الفيلم دون أن يكلف نفسه عناء الرد على ما أورده الفيلم لمشاهديه الذين لا يعرفون إذا كان ما يشاهدونه حقيقة أم هراء.

٦ أكتوبر..بعيون إسرائيلية!

كان الكتيب الدعائي يتحـــدث عـــن الحـــروب العربيـــة الإسرائيلية..يعطى نبذة مختصرة عن الحروب بداية من حــرب الاستقلال ١٩٤٨ إلى حرب السويس ١٩٥٦ —-ما نــسميه نحن بالعدوان الثلاثي- إلى حرب الأيام الستة ١٩٦٧-النكسة - وحتى حرب يوم كيبور - حرب أكتوبر ١٩٧٣..التقطــت نفسا عميق وبدأت القراءة، فإذا بتاريخ مختلف تماما عما ندرسه تقرأه عيناي..دعم عبد الناصر لحركات المقاومـــة الفلـــسطينية كانت سببا في اشتراك إسرائيل في حرب الـــسويس لحمايـــة نفسها..تحرشات عبد الناصر بالدولة العبرية مغلقة لخليج عقبة كانت السبب الرئيسي للهجوم الإسرائيلي علـــى الأراضـــي العربية في يونيو ١٩٧٦..أما المفاجأة فهي أن مصر لم تكسب قط حرب يوم كيبور، رغم أن المصريين يظنون كذلك!

لم يكن ذلك حلما لكنها حقيقة تعرفها إذا تركت مـــصر وزرت الجانب الآخر من العالم..طالما سمعنا أن التاريخ دائمـــا زائف لأنه يكتب بأقلام البشر، وكل إنسان له وجهـــة نظـــر تتحكم فيما يكتبه..التاريخ دائما زائف..لا حقائق بنسبة مائة في مائة..هذا ما أدركته عن يقين وأنا أقلب في صفحات هـــذا الكتيب الدعائي والدم يصعد إلى رأسي حـــتى أكـــاد أنفجـــر غيظا..

كنت في زيارة لمعرض مكـــشوف أقامتـــه حركـــة هلـــل Hillelفي جامعة نيوبولتز بمناسبة مرور ستين عاما علـــى تأسيس إسرائيل..كانت الدعوة عامة ودفعني الفضول لأن أرى

ما يفعلونه..هلل حركة قوية تدعمها الجامعة ماديا، وبها كـثير من الأعضاء اليهود المتحمسين جدا جدا الذين ينظمون أنشطة ناجحة جدا، وكنت أنا عضوا في رابطة الطلبـة المـسلمين في الجامعة MSA وجرت العادة أن يدعونا هم إلى أنـشطتهم وندعوهم نحن أيضا إلى أنشطتنا، عملا بروح التـسامح بـين الأديان في الجامعة..إلا أننا طبعا رفضنا الـذهاب لمـشاركتهم الاحتفال بتأسيس دولة إسرائيل وكنا نفكر في تنظيم حـدث طلابي نوعي فيه الطلبة بالقضية الفلسطينية بتزامن مع احتفالات الطلبة اليهود في الجامعة.

في ذلك اليوم من شهر مايو ٢٠٠٨ خرجت من مـسكن الطلبة أسير على غير هدى حتى صادفت المعرض المكشوف في ساحة مبنى اتحاد الطلبة..المثير للغيظ أنهم يوزعـون الفلافـل بوصفها "طعام إسرائيلي أصيل"..حـتى الفلافـل سـرقوها ونسبوها لها!..اتجهت نحو المعرض وألقيت نظرة سريعة علـى التشيرتات التي توزع مجانا وعليها عبارة "إسرائيل..٦٠ عاما"، ثم رأيت الكتيبات الدعائية التي توزعها منظمة يهودية نـشطة جدا اسمها "قف معنا" Stand with us..

لم أستطع مقاومة فضولي وسرت ألتقط نسخا مـن هـذه الكتيبات والملصقات الدعائيـة حـتى وصـلت إلى مائـدة الطعام..كان هناك إناء كبير به قطع الفلافل وجـواره الخبـز الشامي وإناء به سلاطة..وخلف المائدة وقفت فتـاة تبتـسم

وتقول للحضور القليل جدا جدا -من غير اليهود يبالى بهذا الهراء-.."تعال..جرب الأكل الإسرائيلي!".

عدت أدراجي إلى غرفتي لأقلب في الكتيبات التي أخذتها..قرأت التاريخ الذي أعرفه بعيون عبرية..كل جريمة ارتكبتها إسرائيل وتم محوها وتحويلها إلى دفاع عن النفس ضد الوحشية العربية..ملصقات سياحية تجعل لك إسرائيل جنة الله في الأرض بكثير من المعالم السياحية "الإسرائيلية"..وكلمة إسرائيلية هذه تضم أيضا المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة كذلك..

ملصق آخر يتحدث عن إسرائيل بما أنها واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط، حيث -العبارات التالية بالنص من الكتيب السياحي- يعيش فيها ١,٣ مليون عربي يتمتعون بكافة حقوق المواطن الفلسطيني..إسرائيل بنت ٦ جامعات و ٢٠ كلية و ١٦٦ عيادة طبية للفلسطينيين بين عامي ١٩٦٧ و١٩٩٥..إسرائيل هي الدولة الوحيدة في المنطقة التي تعطي للشواذ جنسيا حقوقهم وتعد التحرش بهم جريمة كراهية..وهي الدولة الوحيدة أيضا التي تجرم جرائم الشرف..إسرائيل تعترف رسميا بـ١٥ ديانة، بينما لا تعترف بها كدولة ١٩ دولة عربية..

الكتيب التالي كان يمضي متناولا محطات الصراع العربي الإسرائيلي..الفقرة التي تتناول حرب أكتوبر ١٩٣٧ تقول بالحرف الواحد:

" قامت مصر وسوريا بهجوم مفاجئ على إسرائيل في اليوم المقدس من السنة اليهودية - يوم عيد كيبور. ورغم عدم استعداده، تمكنت قوات الجيش الإسرائيلي من صد الاعتداء واختراق صفوف القوات المصرية إلى قناة السويس ودفع الكتائب السورية عائدة إلى مرتفعات الجولان..ورغم الانتصار الإسرائيلي عسكريا، فقد فقدت إسرائيل ٢٦٨٨ جندي لقوا مصرعهم..هذا وتدعي مصر أنها استعادت كرامتها بسبب نجاحها في الحرب خلال الثماني والأربعين ساعة الأولى من المعركة!". ويتواصل التاريخ مكتوبا بعيون عبرية في الكتاب الذي يحمل اسم ١٠١ Isreal وتصدره منظمة Stand with us وتوزعه في أنشطة اتحادات الطلاب اليهود في كل أنحاء أمريكا..التاريخ الذي يجعل من إسرائيل شاة ضعيفة محاطة بقطيع من الذئاب في كل صوب، ويجعل من الدولة العبرية هي الضحية والعرب هم المعتدون الآثمون.هذا هو التاريخ كما يرسمه اليهود ويوزعونه في الغرب..وكثير من الكتب السياسية الغربية ترى حرب كيبور مجرد مرحلة في الصراع العربي الإسرائيلي أثبتت التفوق العربي لحد ما، لكن إسرائيل "كسبتها" في النهاية..لا جدال أن العرب تفوقوا في الساعات الأولى للحرب، لكن إسرائيل كادت تحقق نصرا ساحقا لولا التزامها بقرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار..هذه العبارة ستراها كثيرا إذا اطلعت على المراجع الغربية، وهي لا تختلف كثيرا عما يراه اليهود ويكتبونه في كتبهم.

الهرم بتاعهم...مش بتاعنا!

هل تذكر ذلك المشهد في فيلم "همام في أمستردام" عندما يتحدث الشاب اليهودي إلى الشاب المصري "محمد هنيدي" عن الهرم قائلا: "الهرم بتاعنا"، مشيرا إلى النظرية اليهودية التي تقول بأن اليهود قد شاركوا في بناء الأهرامات..هل تذكر كيف ثار "هنيدي" وقال عبارته الشهيرة: "ناقص كمان يقول شبرا بتاعتنا"..أعتقد أن المصريين يواجهون موقفا مماثلا في الولايات المتحدة، لكن ليس مع اليهود هذه المرة..بل مع الأفارقة!

المرة الأولى التي تعرضت فيها لمناقشة الموضوع كانت على مائدة الغداء..كان معي عدد من أصدقائي وانضم إلينا اثنان من السود، لّما تكلما معي لاحظت أنهما لا يتحدثان باللكنة الأمريكية واعتقدت أنهما من أفريقيا..بعد دقائق قال أحدهما إنه من الصين، فلما أبديت دهشتي بشدة قال الآخر إنه من اليابان..يابانيون وصينيون سود؟..لم أطرح السؤال لكنه بدا في عيني..هنا قال لي الصيني: ألست من مصر؟..ألا تعرف أن المصريين القدماء كانوا أفارقة سودا؟..وبدأت مناقشة حامية!

المرة التالية كانت بعد صلاة العشاء ليلة الخميس حيث اعتاد المسلمون في الجامعة أن يجتمعوا لأداء الصلاة معا..انتهت الصلاة وبدأنا حديثا أبدى فيه صديقنا السنغالي "ممادو" – النسخة الأفريقية من اسم محمد– استعداده لأن يأتي للدراسة في

القاهرة، لكنه أبدى خوفه من العنصرية ضد السود في مصر..عنصرية ضد السود فين؟..في مصر؟..حكى لنا "ممادو" موقفا حدث لأصدقاء له درسوا في القاهرة، وتعرضوا لسخرية بعض المصريين. أقنعناه أن موقفا كهذا لا يعني بالقطع وجود أية عنصرية في مصر ضد السود، وهنا بدأ حديثا جديدا..ينبغي للمصريين أن يعرفوا أن الفراعنة كانوا أفارقة سود..إيه؟..مين قال لك كده..وبدأت مناقشة حامية أخرى!

المرة الثالثة كانت مع أمريكي أبيض هذه المرة..رفيقي في غرفتي اسمه "جوستن" وهو يدرس الدراسات الأفريقية أو Black Studies، حيث تقول كتبه الأكاديمية إن الحضارة الفرعونية شيدها الأفارقة السود، وهي معلومات يدرِّسها له أساتذته على أنها حقائق..كانت المناقشة طويلة، انضم إلينا صديقنا المصري وجاء جارنا الأمريكي أيضا ليؤكد نظرية الفراعنة السود، بل وجاء لنا بكتاب يتناول في فصل كامل النظرية ويؤكدها بالأدلة..وكان "جوستن" متحمسا؛ فأرسل لأستاذه يطلب منه مقابلتي لإثبات هذه النظرية بصفتي مصريا لا يعرف تاريخه جيدا..طبعا استغل "جوستن" هذه النقطة لاحقا في مناقشاته معي -التي أؤكد فيها له أنه لا يعرف شيئا عن سياسة بلاده الخارجية- ليؤكد لي أنني أيضا لا أعرف شيئا عن تاريخ حضارة بلادي..كيف لا تعرف أن الفراعنة كانوا سودا؟..وأرسل إليه أستاذه ليطلب مني حضور محاضرة كبيرة يقدمها عالم آثار أمريكي متخصص في الحضارة الفرعونية. اسم

المحاضرة "نظرة مختلفة إلى مصر"..يلقيها الدكتور "كلينتون كراوفورد"..عندما تبحث عن اسمه على الإنترنت، تجد أنه قد أصدر عددا من الكتب عن مصر الفرعونية متناولا الأصل الأفريقي للفراعنة، وأنه ينظم رحلة سنوية في الصيف مع عدد من المتحمسين لنظريته إلى مصر لزيارة أهرامات الجيزة والمتحف المصري ويأخذهم في جولة في الأقصر وأسوان تنتهي في النوبة.

في بداية المحاضرة قدم د."كراوفورد" -بالمناسبة هو أفريقي أمريكي كما يقول الوصف المهذب للسود الأمريكان- فيلما طويلا يثبت فيه نظرية الفراعنة السود، ولك أن تتخيل النظرة الضيقة المخادعة -من وجهة نظري على الأقل- للفيلم..كل التماثيل الفرعونية التي ظهرت في الفيلم كانت سوداء..كل وجوه المصريين في الفيلم إمّا سمراء داكنة أو سوداء..وصف ملامح أبي الهول بأنها أثيوبية لأن الشفتين غليظتين..شرح كامل ودقيق عن بناء الأفارقة للأهرامات - كأنها حقائق وليست مجرد نظريات..ثم جولة بين سكان النوبة وتقديمهم باسم السكان الأصليين لمصر، وتقديم لغتهم على أنها بعيدة جدا عن العربية، وبالتالي قريبة من اللغة المصرية القديمة..وهكذا!

انتهى الفيلم وبدأ البروفسير الأمريكي حديثه عن الفراعنة، وكالعادة قام بالدعاية عن رحلته السنوية إلى مصر، ودعا الحضور إلى مشاركته فيها..بالمناسبة الرحلة تبدأ في ١٩ يوليو

وتنتهي في ٢ أغسطس، ويدفع كل مشارك ما يقرب من ٣٥٠٠ دولار.

انتهت المحاضرة وبدأت الأسئلة، وكانت كل أجوبة البروفسير تنفي للمتسائلين الأمريكيين أن العرب قد بنوا الأهرامات - وهي حقائق تاريخية لأن العرب لم يدخلوا مصر إلا في القرن السابع الميلادي- وتؤكد أن الأفارقة بنوه - وهي مجرد نظرية..هنا قررت أن دوري قد حان لأن أتكلم!

رفعت يدي وطلبت الكلام..قلت بهدوء إنني مصري وإنني لم أدرس قط أن أجدادي كانوا أفارقة سودا..لا يهمني الجدال الدائر بين الأفارقة والأوربيين عما إذا كان الفراعنة كانوا أفارقة -واللفظ لا يعني الانتماء لإفريقيا بل يعني كونهم سود البشرة- أم بيضا، ولكنني أعلم أنهم كانوا مصريين -ومع ذلك فانا لا أجد دليلا منطقيا على صدق ما قاله- ثم طلبت منه تفسيرا!

هنا بدأ السخرية..حيث قال لي إن العرب من المستحيل تاريخيا أن يكونوا قد بنوا الأهرامات، وإنني مصري من ابن أجدادي العرب ولست مصريا أصيلا!!..قلت له إن المصريين سبعين مليونا أغلبهم يحمل ملامح العرب أو الملامح الشرق أوسطية، فهل كل المصريين ليسوا مصريين؟..سألني: هل شاهدت أهالي النوبة ولغتهم؟..أليسوا مصريين؟. قلت له من جديد إن النوبة تقع في أقصى جنوب مصر، ولا يمثل سكانها كل سكان مصر..هنا سخر قائلا: وهل الجنوب ليس من مصر؟..ثم أعطى الكلمة لمتحدث آخر ليسأل سؤالا آخر.

ويبدو أن كلامي قد أثار حفيظة عشرات الأمريكان الأفارقة الحاضرين، فتوالت تعليقاهم تنتقد كلامي..الحكومة المصرية تدرس لكم الأكاذيب في المدارس؛ لأن أفرادها ليسوا أفارقة..هل رأيت "أنور السادات"؟ -عبارة قالها أفريقي- إنه لا يختلف عن ملامحي كثيرا..وعلق البروفسير الأمريكي عن أهالي النوبة قائلا إن الحكومة المصرية تكرههم..أما دليله فهو "مقتل ملايين النوبيين" -والله قالها كده إن لم أكن قد أخطأت السمع- في بناء السد العالي، وتهجير الملايين الآخرين من قراهم من أجل أهداف أنانية للحكومة المصرية - يقصد بناء السد العالي طبعا!

موقف مماثل تعرض له الدكتور "زاهي حواس" رئيس المجلس الأعلى للآثار منذ ثلاثة أعوام هنا في أمريكا أيضا..كان المتظاهرون من الأمريكان الأفارقة يملأون شوارع الولايات المتحدة غضبا من أن صورة الملك توت عنخ آمون علقت في معرضه في أمريكا كملك أبيض، وطلبوا تغيير الصورة إلى ملك أسود..بعدها ألقى "حواس" محاضرة شهيرة في لوس أنجلوس نافيا أن يكون توت عنخ أمون أسود..ووصف الفراعنة بأنهم: "شعب مميز ينتمي لجنس مختلف ليس له مثيل، وليست له أصول عربية أو أفريقية، من حيث الشكل والتكوين الجسماني والطباع، إنهم خليط من الجنس السامي الموجود في المناطق الساحلية والجنس الحامي الموجود في صعيد مصر وهو ما أثبتته نقوشهم الموجودة على المعابد والمقابر"، وأضاف حواس الجملة

التي أثارت حقد مؤيدي النظرية: "الفراعنة لم يكونوا عربا و لم يكونوا أفارقة، رغم أن مصر تقع في أفريقيا"!

ورغم أن نظرية الفراعنة السود تلقى رواجا كبيرا جدا بين الأمريكان الأفارقة الذين يجدون في النظرية التي تؤكد أن بناة الأهرامات كانوا أفارقة سود البشرة مثلهم دليلا على أن أجدادهم قد سبقوا حضارات البيض في أوربا في كل مجالات العلوم والفنون والثقافة، بينما يستنكر كثير من الأوربيين هذه النظرية قائلين إنه من المستحيل أن يكون أرسطو وأفلاطون وسقراط قد أخذوا أفكارهم من أفارقة سود يقطنون مصر الفرعونية، ويصل الأمر ببعضهم إلى التأكيد على أن الفراعنة كانوا بيضا مثلهم..في النهاية أنا أعتقد أن الحقيقة هي الحقيقة سواء كان الفراعنة سودا أو بيضا..الفراعنة كانوا مصريين ولدوا في أرض مصر وشربوا من النيل وزرعوا وادي النيل وجلبوا الصخور من صحراء مصر ليبنوا الأهرامات..كانوا مصريين مهما اختلفت بشرتهم سوداء بيضاء أو حتى صفراء..المهم أنهم مصريون، وأنهم أجدادي الذين أفخر بهم..بشدة!

الفصل الثامن

حكايات جامعية

١

MSA!

المشهد المبشر الجميل ظهر كل جمعة..

الغرفة ٤٠٨ من مبنى اتحاد الطلبة..الأذان يعلو داخل أرجاء الغرفة دون أن يتجـاوز بابهـا بـصوت الـشاب التركـي علي..تعرف أن المؤذن ليس عربيا فور أن تسمع "حي علـى السلاة" و "حي على الفلاه" مستبدلا الصاد بالـسين والحـاء بالهاء كالمعتاد..ثم يجلس الرجال في الصف الأول، فيما تجلـس الفتيات في الصف الأخير..ويقف أحدهم يتلو الخطبة من ورقة أعد فيها خطبته أو من كتاب..الخطبة بالإنجليزية تتخللها آيات بينات من القرآن الكريم..ثم الدعاء بالإنجليزية مصحوبا ببعض الأدعية العربية المألوفة "اللهم اغفـر للمـسلمين والمـسلمات الأحياء منـهم والأمـوات إنـك يـا ربي قريـب مجيـب الدعوات"..اللكنة قد تكون عربية خالصة وقد تكون تركية و قد تكون أمريكية وربما تكون أيضا أفريقية..حسب خطيـب هذه الجمعة..

ظهر كل جمعة نجتمـع جميعـا هنـاك. في ذات الغرفـة ٤٠٨...الخطبة غالبا بالإنجليزية حتى يفهمها الجميع..الوجـوه معتادة لكن لابد من زوار جدد كل مرة..البروفسير المـصري دائما وبعض الطلبة المصريين والأتراك..شابان زنجيان أحـدهما

من السنغال والآخر أمريكي..ووجوه جديدة..أحيانا يأتينا شاب من السعودية أو شاب من لبنان..قد يكون طالبا بالجامعة أو مقيما بالقرب من المدينة..

وبعد الصلاة يتخلى الخطيب عن الكتاب و يناوله للفتاة رئيسة رابطة الطلبة المسلمين..وتسأل الفتاة السؤال المعتاد: من يلقي الخطبة الجمعة القادمة؟

ويتبرع أحدهم أو يختار البروفسير المصري واحدا..ويأخذ الشاب الكتاب ليعد خطبة الجمعة القادمة..بالإنجليزية كالمعتاد..

وموعدنا الواحدة والنصف ظهرا..الغرفة ٤٠٨..الجمعة القادمة!

***

بداية تعرفنا بأي واحد مسلم كانت بعد أربعة أيام من وصولنا لأمريكا..

في البداية ظننا هذه البلد خالية من مصريين غيرنا..من عرب غيرنا..من مسلمين غيرنا..سنكون وحدنا هنا نصلي ونصوم ونحتفظ بتقاليدنا الشرقية وسط هذا المجتمع الغربي الغريب..كذا ظننا وكنا مخطئين..

في رابع يوم كانت زميلتنا في مكتبة بيع الكتب بالجامعة..فجأة جاءها صوت أنثوي من خلفها أن السلام

عليكم..التفتت زميلتنا بتلقائية متعجبة..فوجئت بفتاة محجبة أخرى..وعليكم السلام!

وكان التعارف..الفتاة فلسطينية أصلا أمريكية الجنسية..مسلمة طبعا..بل ورئيسة MSA أو رابطة الطلبة المسلمين في الجامعة..يا سلام..هو فيه رابطة للطلبة المسلمين كمان!

أقبلت أنا وقتها ورأيتها..تعرفت بها وارتبكت..هي فلسطينية فلم تتحدث بالإنجليزية؟..بادرت بالكلام بالعربية، فقالت: "أنا بحكي عربي"..ثم واصلت الكلام بالإنجليزية..وعرفنا بعدها أنها تربت هنا فالإنجليزية أسهل لها كثيرا من العربية..

وطارت زميلتنا من الفرحة..وأسرعت أنا أسأل أسئلة كثيرة..تعرفي حد تاني هنا منّنا؟..فقالت إنها تعرف أحمد..اسمه أحمد؟..لا ومصري كمان..لم أصدق وأصررت أن تتصل به فورا..اتصلت به فلم يرد..

وبعد قليل عاودت الاتصال بأحمد ، فرد..أخبرته الفتاة بأن هناك الكثير من المصريين قد أقبلوا للدراسة في الجامعة هذا الترم..طلب الفتى أن يحدثني فتناولت هاتفها وكلمته..إيه يا عم أحمد..فينك؟..عاوزين نشوفك..حدثته بالعربية بحذر، فرد بطلاقة..عربية مصرية خالصة..هذا الفتى مصرى جدا إذا..ومن إسكندرية أيضا..منين في إسكندرية؟..من ميامي..وعايش هنا

من إمتي؟..من ست سنين..وقال إنه مستنينا من زمـــان منـــذ أخبره البروفسير المصري بقدومنا الترم الماضي!

التقينا أحمد ليلتها وجلسنا جلسة تعارف طويلة جميعا..راح الفتى يجمع أسماءنا ويخطىء فيها..كان سعيدا جدا..أخيرا وجد مصريين..وحكى لنا أيام تعاسته الترم الماضي لما أتى لنيوبــولتز وشعوره بالوحدة..صحيح أنه تعرف بالفتاة الفلسطينية وبعض الطلبـــة المـــسلمين الآخـــرين..لكنـــه كـــان في حاجـــة إلى مصريين..مصريين بجد زينا..

***

اسم النشاط: رابطة الطلبة المسلمين..MSA

أعضاؤها أكثر من عشرين مسلما من أمريكا وأفريقيا والهند وباكستان..اعتدنا أن نجتمع أسبوعيا لمدة ساعة يوم الأربعـــاء، فيما نصلي الجمعة معا أيضا..فيما بعد نظمنا أيضا صلاة عشاء جماعة ليلة كل خميس وجمعة، في قاعة بمسكن الطلبة ســـكادر، وكان الإداريون متعاونين للغاية معنا عندما نطلب حجز غرفة أو قاعة للصلاة أو للاجتماعات..بل ساعدونا أيـــضا عنـــدما قررنا تنظيم محاضرة عن الإسلام وأسبوع توعية عن الإســـلام أيضا..كل شيء تم بـــسهولة دون أدنى مـــضايقة مـــن إدارة الجامعة..لاحظ أن رابطة الطلبة المسلمين منظمة طلابية دينيـــة تمارس أنشطتها بكل حرية مثلها مثل رابطة الطلبة المسيحيين أو اتحاد الطلبة اليهود هلل..تحت مسمى الحرية هنـــا يمكنـــك أن

تفعل ما تشاء..تنظم محاضرة دينية عن الإسلام أو تقيم ندوة عن الهندوسية أو تعلق ملصقات ضد بوش أو حرب العراق..إنها بكل بساطة الحرية بكل ما تعنيه الكلمة..هذه هي أمريكا!

وخلال المحاضرة التي نظمناها عن الإسلام، كان المحاضر إماما في أحد المراكز الإسلامية القريبة..ألقى محاضرة قصيرة عن الإسلام، قبل أن تتوالى الأسئلة من الحضور عن القضايا المثيرة دائمة للجدل بالنسبة للغرب..عن نظرة الإسلام للمرأة يتساءلون..عن مفهوم الجهاد..عن تعدد الزوجات..بل وعن صيام رمضان أيضا!

ولابد أن أعترف أنني تعرفت بأفضل أصدقاء قابلتهم في حياتي من خلال الرابطة..كنا نلعب كرة القدم معا، ونذهب للمكتبة نذاكر أيام الامتحانات حتى الثالثة صباحا - في أوقات الاختبارات تبقى المكتبة مفتوحة لهذه الساعة..كنا نصلي معا ثم نخرج إلى ميدكافيه في الشارع الرئيسي الوحيد في نيوبولتز لنقضي ليلة ساهرة جديدة!

ولا أذكر مرة قصرت معنا إدارة الجامعة في دعم الرابطة..كنا دائما في منافسة مع اتحاد الطلبة اليهود، لأنهم كانوا نشطين جدا..ونظمنا حفلا كبير لفريق Sounds of reason

- فريق غنائي أمريكي ينشد أغان دينية، تكلف كثيرا وكنا نبيع التذكرة بخمسة دولارات لطلاب نيوبولتز وعشرة دولارات لغيرهم..

٢

فهاري..الشذوذ الجنسي ليس مرضا!

كنت سعيدا جدا عندما دعاني جوستن لحضور اجتماع مجلة فهاري الأول هذا الترم..وفهاري هي إحدى مجلتيّ الطلبة في جامعة نيوبولتز، وقال لي عنها إنها تتميز بالحرية الشديدة والجرأة أيضا، فتحمست..وبدأ الاجتماع وتعرف الطلبة محررو المجلة علي بما أني عضو جديد..ثم بدأ الحوار المثير..ماذا نناقش العدد القادم؟..تعالت الأصوات تنادي بمناقشة قضية حساسة جدا هي الشذوذ الجنسي..وقال كل محرر رأيه..اللواط طبعا حرية شخصية..من قال إنه مرض فهو جاهل..فزال حماسي سريعا عندما فهمت أننا لن نتفق أبدا في وجهات النظر..رفعت يدي أستأذن للانصراف بعد ساعة قضيتها بين آراء مجموعة من الطلبة الأمريكان الليبراليين!

بعد شهرين صدرت المجلة، وكانت أغلب موضوعات العدد تناقش قضية الشذوذ الجنسي..ترصد أبرز محطات القضية في تاريخ أمريكا الحديث..تتحدث عن ولاية ماساتشوسيتس بما أنها أكثر الولايات حرية في قضية زواج المثليين..

تتناول قضايا إعدام الشواذ جنسيا في بعض الدول مثل إيران..المجلة ترفع شعار :"أخوك..أختك..صديقك..زميلك في

العمل..جارك..ربما يكون شاذا جنسيا"..وعلى الغلاف عبارة "ششششش..قلها بصوت عال" لتشجيع المثليين جنسيا للتعبير عن أنفسهم.

ولا غريب أن تطرح قضية الشذوذ في جامعة نيوبولتز، فأول شيء قرأته عن نيوبولتز كان عن حالات زواج المثليين جنسيا التي تجري في المدينة الصغيرة، وكنت قد قرأها على صفحات الـسي إن إن عندما كتبت في جوجل اسم نيوبولتز..وفي طرقات مبنى اتحاد الطلبة كنت أرى ملصقا مكتوب عليه: "الشذوذ الجنسي ليس مرضا"!

والواقع أنني وجدت نفسي في مواجهة غريبة مع جوستن منذ الأسبوع الأول لي في مسكن الطلبة..كان الفتى غريبا، لكن هذا شأنه..من الجميل أن يكون رفيق غرفتك أمريكيا لطيفا ثرثارا فهذا يساعدك على تحسين لغتك الإنجليزية، وكان الفتى لا يدخر جهدا في تعليمي مفردات جديدة من العامية الأمريكية، ويجتهد في طرح أمثلة لي لتفسير المعنى..كان مثاليا بحق حتى إنني حسدت نفسي على أن يكون رفيقي بهذا اللطف حتى إنه كان يناقشني في كل شيء بتفتح وحرية كاملة، ولم تكن لديه أية تحفظات على الإطلاق عندما عرف أنني عربي مسلم..في البداية أخبرني أنه ملحد ولا يؤمن بأي شيء..تكلمنا في هذا الموضوع طويلا وقلت له ما أعتقده وحدثني هو عن أفكاره..والقرآن يقول: "وجادلهم بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم"..ولم تكن بيننا عداوة!

كان جوستن يؤمن بشدة بحق المثليين في الـــزواج ويـــرى الشذوذ الجنسي أمرا طبيعيا.. في البداية أخبرته بموقف الدين من هذه القضية أما وجهة نظري فهي أن الشذوذ الجنسي مـــرض نفسي لابد من علاجه..هنا ثار جوستن وقال إن لديه فيلما عن الشذوذ الجنسي في الحيوانـــات، فهـــل الحيوانـــات مريـــضة نفسيا؟..الشذوذ موجود في الطبيعة فما العيـــب أن يوجـــد في البشر؟..وخضنا نقاشا طويلا خرجنا منه وقد طرح كل منـــا وجهة نظره كاملة واتفقنا أن يحترم كل منا الآخر..لن يتفـــق الشرق والغرب بسهولة!

اتفقنا أن يحترم كل منا الآخر..هـــو أيـــضا ملحـــد وأنـــا مسلم..من حقي أن أصلي في الغرفة ومن واجبـــه أن يخفـــض صوت كمبيوتره عندما أصلي..والحقيقة أنني استفدت كثيرا من نقاشاتي مع جوستن في التعرف على العقلية الأمريكية للشباب الأمريكي المثقف..كان جوستن مثقفا متفتحا وكـــان يقـــرأ كثيرا..تحدثت معه كثيرا عن القضايا التي تشغل أمريكي مثلـــه فكانت العنصرية والشذوذ الجنسي وما إلى ذلك..معلوماته عن سياسة بلاده الخارجية ضعيفة للغاية..لا يعرف شيئا تقريبا عن إسرائيل ..لم يكن يعرف أنها دولة اليهود و لم يكن يعرف حتى أن مصر دولة عربية..وتناقشنا كثيرا في قضية هل كان الفراعنة سود البشرة -كما تقول كتب الدراســـات الأفريقيـــة الـــتي يدرسها- أم بيضها!

وكما اختلفنا كثيرا في قضية الشذوذ الجنسي، وكل منـــا يشرح آخر أفكاره ويقدم الأدلة والبراهين على صحة ما يقوله، اختلفنا أيضا في قضية الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى..كان

جوستن ملحدا بكل ما تعنيه الكلمة من معان..يؤمن أن الطبيعة قد خلقت نفسها، ويرى أن أصحاب كل عقيدة يقولون إنهم هم وحدهم على حق، والآخرون مخطئون..يرون أنهم وحدهم يدخلون الجنة، والآخرون يذهبون إلى الجحيم..وسألني جوستن: لماذا أدخل النار وأنا شاب طيب القلب؟ هل لأنني لا أؤمن بما تؤمن أنت به؟

وكنت أجادله كثيرا لم يكن مستعدا للاقتناع لكنه يحاول أن يفهم وجهة نظري..وكنت أحكي له كثيرا عن الإسلام والرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- وأتناقش معه فيما سمعه عن تعصب المسلمين وعداوتهم للغرب..كنا نتحدث كثيرا وأجادله بالتي هي أحسن وأستخدم الإنترنت كي أقدم له بعض البراهين على ما أقوله له..وكذلك كان يفعل أيضا..لكن قلما ما اتفقنا!

٣

مصري في الجيش الأمريكي!

سمعت عنه قبل أن أراه بحكم كونه المصري الأشهر في الجامعة..

اسمه أحمد..ترك مصر وهو في السادسة من عمره وهاجر مع أسرته إلى نيويورك..يتحدث العربية بلكنة غريبة فيبدو كأنه طفل في الخامسة من عمره..كان زميلي في كورس الأمم المتحدة، وكان حريصا على التعرف بي منذ البداية والحديث معي بالعربية حتى ولو تكلمت أنا بالإنجليزية..كان يدرس العربية أيضا ليفهمها مكتوبة..في البداية خشيت أن أتقرب منه، عندما عرفت أنه قد خدم في الجيش الأمريكي بالعراق..وكان هذا هو سؤالي الأول له عندما بدأنا حوارا قصيرا لدى خروجنا من إحدى المحاضرات..

كلنا نعرف أهمية الأمريكيين ذوي الأصول العربية في الجيش الأمريكي..في مجلة أمريكية رأيت ذات مرة إعلانا يطلب أمريكانا من أصول عربية للالتحاق بالجيش الأمريكي مقابل مزايا سخية..الأمريكيون العرب يدخلون الجيش الأمريكي مثلهم مثل غيرهم من الأمريكيين متطوعين، ومنذ بداية الحرب على العراق صارت لهم أهميتهم الفريدة في الجيش الأمريكي، لأن كثيرين منهم يجيد العربية ويمكنه التفاهم مع العراقيين.

ومن هؤلاء الأمريكان العرب من يرى أنه يؤدي واجبه تجاه الدولة التي يحمل جنسيتها، حتى لو كان ذلـك ضـد هويتـه الأصلية..ومنهم من يدخل الجيش مرغما تحت ضغط الحاجـة إلى المال ومزايا الجيش العديدة..وحينها لن يسامحه ضميره أبدا ولن ينسى الجريمة التي يرتكبها تجاه أصوله العربية.

وأحمد كان واحدا من هؤلاء..قال لي إن دوره كان يقتصر على التحدث بالعربية لإقناع العراقيين بمغادرة منازلهم أو قراهم قبل قصفها..كان دورا نبيلا كما يعتقد..لم أتفق معه كثيرا و لم أستطع قط أن أغفر له في قرارة نفسي أنـه دخـل متطوعـا صفوف الجيش الأمريكـي الـذي يقتـل العـرب ويحتـل بلادهم..كلنا نعرف أنهم في أمريكا يدخلون الجيش من أجـل المال..التجنيد اختياري وليس إجباريا، ويتدفق الفقـراء عليـه طمعا في المال وفي وعود الحكومة الأمريكية بالإنفـاق علـى تعليمهم الجامعي فيما بعـد والرعايـة الـصحية والتـدريب المهني..حينها يمكن للأمريكي أن يتحمل مشاق شهور الخدمة في جحيم العراق أملا في أن يحصل على فرصة جيدة لإكمـال دراسته في جامعة محترمة يبدأ بها مستقبله..لكنه ينسى أنه قـد يلقى مصرعه فجأة خلال خدمته العسكرية، أو يعـود منـها جريحا أو معاقا أو على الأقل محملا بأبشع الذكريات وأسـوأ الكوابيس.

وهنـاك آلاف العـرب يتطوعـون سـنويا في الجـيش الأمريكي..بعضهم يدخل الجيش على أمل أن يقـضي فتـرة

خدمته في الولايات، لكن الكابوس أحيانا يتحقق بعد شـــهور من الخدمة داخل البلاد ليجد نفسه علـــى طـــائرة عـــسكرية أمريكية تحمله إلى بغداد..وهنا لا مجال للتراجع..عليه أن يثبت أنه أمريكي أولا..يخدم جيش بلاده قبل كل شيء..

ويبدو أن أحمد أيضا قد عانى كـــثيرا في العــــراق..عنـــدما يتحدث عن هذه الفترة المؤلمة من حياته ترى في عينيه حزنا بلا حدود..ويبدو أنه يحاول أن يكفر عن ذنبـــه هـــذا في كـــل وقت..يتحدث بحماس مـــدافعا عـــن القـــضايا العربيـــة في الفصل..يتزعم منظمة جامعية اسمها "الحركة السلمية من أجل فلسطين" تهدف للتوعية بالقضية الفلسطينية في الجامعة..وكأن لسان حاله يقول للكل إنه لم ينس أصوله المـــصرية وهويتـــه العربية بعد، وإنه يحاول أن يكفر عن ذنوب خدمته في الجـــيش الأمريكي.

وأعترف أن أحمد كان طيبا بشدة سواء معنا نحن العرب أو زملائه الأمريكان..كان يجيب الأسئلة المتوقعـــة لاختبـــارات الكورس ويوزع علينا نموذجا أعده للإجابات النموذجية رغـــم عنائه في إعدادها..وفي كل مرة كنت أحاول أن أنسى جريمته التي ارتكبها ذات يوم في حق هويتـــه الأصـــلية..الخدمـــة في صفوف الجيش الأمريكي بالعراق!

٤

لو كانوا يعرفون!

الهدوء يخيم على المدينة..

إنه العاشر من فبراير..يوم تاريخي لا يمكـن أن ينـساه أي مصري عاشه..أي مصري جلس أمام شاشة التلفاز يتابع المباراة النهائية بين مصر والكـاميرون في بطولـة الأمـم الأفريقيـة ٢٠٠٨..مصر وصلت للنهائي محققة نتائج تاريخية لم يتوقعهـا أحد..مصر في النهائي أمام الكاميرون..صـمتت التوقعـات وبقت آمال ملايين المصريين..

وكنا نحن في الغربة..في هذه المدينة الباردة حيث لا صوت يعلو فوق صوت الجليد الذي غمر المدينة ليلة أمـس..دعانـا دكتور ياسر إلى بيته جميعا لمشاهدة المباراة..لا تنس أنـه يـوم الأحد العطلة الأسبوعية..وكان يدعونا لمشاهدة المباريـات في بيته عندما تتزامن مع يومي العطلة السبت والأحد، كما كـان يحرص على تسجيل المباريات المهمة الأخـرى الـتي تفوتنـا مشاهدها بسبب تزامنها مع أوقات المحاضرات..هذه المباريات كانت تذاع ليلا في مصر، وبسبب فرق التوقيت تذاع ظهرا في أمريكا!

قابلناه أمام مكتبه في مبنى الهندسة، وتكدسـنا جميعـا في سيارته الكبيرة وسيارة صديقه المصري الذي قال إنه أصلا من

سوهاج..ها هم المصريين يتجمعون جميعا لمشاهدة مباراة لمنتخبنا القومي يلعبها في غانا، ويتابعها الملايين في العالم العربي وأفريقيا، والآلاف من المصريين حول العالم..ونحن في نيوبولتز!

إلى المنزل المنعزل الصغير وصلنا..كما ترى هذا منزل على الطراز الأمريكي جدا..في وسط منطقة منعزلة من الجبل يقع..لا ترى منازل قريبة حوله..جدرانه وسقفه من الخشب، وسقفه العلوي هرمي الشكل حتى لا يسمح للجليد بالتكوم فوقه..

تجمعنا جميعا في حجرة الضيافة أمام شاشة التليفزيون نترقب المباراة..دكتور ياسر وزوجته يوزعان أصناف الطعام المصري جدا علينا..نتحمس لمنتخبنا ونشجع مصر بصوت عال..وعلى شاشة art America بدأت أحدث المباراة..لاحظ أن العرب هنا يشتركون فيما يشبه وصلة للقنوات الفضائية العربية تقدم ما يزيد عن عشرة محطات شهيرة تمنحهم الفرصة كي يبقوا على اتصال دائم مع الوطن.

كانت معنوياتنا عالية جدا بعد فوز مصر الساحق على كوت ديفوار في مباراة قبل النهائي، وهو الفوز الذي لم أصدقه للوهلة الأولى حينما ركضت من إحدى محاضراتي جريا إلى جهاز كمبيوتر أبحث في صفحة الرياضة على البي بي سي عن نتيجة المباراة..

وانتهت المباراة النهائية بفوز مصر..عقلي لا يستطيع أن يتوقف لحظة عن تخيل الوضع في هذه اللحظة في مصر..أستعيد ذكريات الفوز بالبطولة الماضية وكيف انقلبت شوارع القاهرة

في لحظة إلى مظاهرات حاشدة تطوف الشوارع هاتفة باسم مصر..أستعيد ذكريات الاحتفالات مع أصدقائي أمام شاشة التلفيزيون في مسكن الطلبة بالزمالك ثم مسيرتنا الصاخبة من الزمالك إلى كوبري ١٥ مايو وحتى ميدان سفنكس حيث انقلبت الدنيا..أستعيد كل هذا وأنا أتحرق شوقا إلى الوطن..

على الشاشة يتسلم الأبطال الكأس الغالية فتتعالى صيحات الفرحة..نحول المحطة إلى الفضائية المصرية لنستمع إلى سيل من الأغاني الوطنية..تأججت مشاعرنا بشدة مع صوت شادية ينشد "يا حبيبتي يا مصر"..الدموع تنشط خلف جفني لكي أحبسها وأضحك..مصر فازت بالكأس السادسة..الإنجاز التاريخي الذي بدا مستحيلا منذ أيام صار واقعا ملموسا..ما أجمله من واقع..

تنتقل الفضائية المصرية إلى بث حي من قلب شارع جامعة الدول..هنا احتفلت مع أصدقائي وآلاف المصريين بالنصر الثمين منذ عامين..وهنا لابد أن أصدقائي يحتفلون الآن..يحتفلون تحت ثوب ليل القاهرة الجميل..بينما الشمس لا تزال تملأ الدنيا نورا هنا في نيوبولتز..والثلج يملأ الشوارع كذلك!

الحنين الجارف إلى الوطن..إلى أن تحيا لحظات الفرحة بين أهلك وأصدقائك..أن ترفع سماعة الهاتف وتسمع صرخات الفرحة من أهلك..أن تهتف فرحا مع أصدقائك..أن ترقص مع

المصريين رقصات النصر..أن تتظاهر فرحا مع الناس في شارع جامعة الدول..أن تقف تهلل وتصرخ بأعلى صوتك في قلب ميدان التحرير..كل هذا وأكثر أفتقده بشدة!

المثير للغيظ بحق هو الهدوء المخيم على المدينة..هدوء قاتل..لا أحد يعرف أن مصر قد فازت بالكأس..لا أحد يبالي..لا أحد يستمع..و مع ذلك لم نصمت..خرجت مع زملائي في عز البرد وفي درجة حرارة تحت الصفر نرقص فوق الجليد و نهتف باسم مصر..عيون الأمريكان ترمقنا من خلف النوافذ المغلقة متسائلة عن هؤلاء المجانين الذين يرقصون على الجليد في مثل هذا الطقس..لو كانوا يعرفون..فقط لو كانوا يعرفون!

كلما قابلت واحدا من أصدقائي الأجانب أخبره بحماس أننا فزنا بالكأس..الفتى الأيرلندي قهل جاء متحمسا وهنأنا بالكأس..كنت قد قابلته صباحا وأخبرته بالمباراة وأصررت أن يتمنى لمصر حظا سعيدا..الفتى التركي يقدم لنا التهاني..حان الآن موعدنا مع محمدو!

كان محمدو سنغاليا متعصبا للسنغال..في بداية البطولة تعرفنا به خلال مباراة كرة قدم لعبناها معا، كما كان يواظب على حضور صلاة الجمعة معنا بانتظام..اسمه محمدو -النسخة الأفريقية من اسم محمد، كما يسمى التركيون مهمت بديلا عن محمد- منذ البداية كان محمدو صريحا معا وقال إنه لن

يشجع منتخب مصر إطلاقا..قلنا له لأن السنغال غلبت من قبل مرارا من مصر؟..تحدانا وقال إن مصر لن تصعد لدور الثمانية..تمنينا له حظا سعيدا للسنغال، لكنه قال إن لاعبي السنغال ينقصهم الانتماء الوطني..

وخرجت السنغال وصعدت مصر..قابلنا محمدو وقال إن مصر لن يمكنها المواصلة..ستهزمها كوت ديفوار..وهزمت مصر كوت ديفوار بأربعة أهداف و صعدت للنهائي..هنا تحدانا محمدو وأقسم أن مصر لا يمكن أن تفوز بالبطولة، وقال إنه سيشجع الكاميرون..عقدنا معه اتفاقا..إذا فازت مصر بالبطولة، فسيظل يشجع مصر ما بقي له من حياته..وافق بشرط ألا يتعارض ذلك مع تشجيعه للسنغال..وفازت مصر!

وقابلنا محمدو ليلتها فبدا حزينا..وقال إن مصر لعبت جيدا..لكن الكاميرون لعبت جيدا أيضا!

لا أذكر أنني شعرت بالحنين إلى الوطن أكثر من تلك الليلة..حينما جلست على الكمبيوتر أدردش مع أصدقائي في مصر متسائلا عما فعلوه بعد النصر..وفتحت موقع يوتيوب لأشاهد فيه أغنية "شادية" على فيديو لمظاهر الاحتفالات في شارع جامعة الدول العربية، ورحت أعيد الأغنية مرارا و تكرارا بلا كلل..وظللت ما يقرب من أسبوعين أشغلها كلما فتحت الكمبيوتر وأظل أردد معها..

مشفش الأمل في عيون الولاد..وصبايا البلد..ولا شاف العمل سهران في البلاد ..والعزم اتولد..ولا شاف النيل في

أحضان الشجر..ولا سمع مواويل في ليالي القمر..أصله معداش على مصر..

مشفش الرجال السمر الشداد..فوق كل المحن..ولا شـــاف العناد في عيون الولاد ..وتحدى الزمن..ولا شاف إصــرار في عيون البشر..بيقول أحرار ولازم ننتصر

أصله معداش على مصر..يا حبيبتي يا مصر..يا مصر..يـــا حبيبتي يا مصر..

٥

درس في تسلق الجبال!

كانت التعليمات واضحة..

اللعبة التي نحن بصددها خطرة للغاية..الجامعة غير مسئولة إذا تعرضت حياة أحدنا للخطر..كل منا ذاهب على مسئوليته الشخصية..تركت القلم ورفعت عيني إلى صديقي متسائلا إذا كان قد وقع على هذه المصيبة، فقال لي نعم..وهكذا تشجعت وأخذت قراري وزيلت الورقة بتوقيعي..ثم ارتديت الخوذة والحزام واستعددت..سنتسلق جبال نيوبولتز بعد قليل يا رفاق!

كانت رحلة لتسلق الجبال ينظمها القسم الرياضي في الجامعة..ثمنها عشرون دولارا وإمضاءة بسيطة تخلي مسئولية الجامعة عن حياتك..ودون تردد كثير قبلنا واشتركنا..لابد من مغامرة كهذه ما دمنا بعيدا عن أرض الوطن..لا أظن أنني كنت سأفعل هذا في مصر، فلأفعله هنا إذا..

ميزة هؤلاء الأمريكيون أنهم يجيدون الاستفادة من الطبيعة الخلابة التي منحها الله لبلادهم أفضل استغلال، يحولون كل شيء إلى وسيلة للمتعة والتسلية..يجعلون من ركوب الدراجات رياضة مسلية يسمونها Biking..

صعود الهضاب والتلال والسير لمسافات طويلة جعلوها رياضة أخرى شيقة ويسموها..Hiking

وبوسع أي شخص أن يقوم برحلة لصعود الجبال ويسمونه Rcok climbing..

فالأمر ليس مقصورا على المحترفين وكل شيء متاح للهواة!

انطلقنا..أخذتنا الحافلة إلى منطقة قريبة من الجبل، ترجلنا بعدها..أخذ كل منا خوذته وربط الحزام جيدا حول خصره وبدأنا السير وسط الغابة صوب الجبل..السؤال المهم: هل هذه الغابة خالية من الحيوانات المفترسة؟..لا يبدو على أحد الخوف والكل يسير في اطمئنان..لا ينبغي أن نقلق..كل شيء سيكون على ما يرام..واصلنا السير وسط الأشجار نعبر وسط أغصانها أو نقفز فوق جذوعها حتى وصلنا لقاعدة التل المفروض أن نتسلقه..كان التل يرتفع بزاوية قائمة في مواجهتنا مباشرة كأنه جدار صخري طويل..هل سنتسلق هذا؟

بدأ المرشدون يتسلقون التل ليعدوا الحبال ويتأكدوا من إعداد أربعة طرق مختلفة يسلكها متسلقو الجبل..انتظرنا قليلا حتى انتهوا وراح اثنان منهما يشرحان لنا المهمة العسيرة..

عملية التسلق يشترك فيها فردان..الأول يظل عند قاعدة التل ممسكا بأحد طرفي الحبل المربوط في قمة التل، والثاني يقوم بعملية التسلق ويربط وسطه بالطرف الآخر من الحبل المتدلي من أعلى..مهمة الأول هي تأمين الثاني عن طريق تحرير الحبل له جزءا فجزءا ببطء حسب سرعة الثاني في التسلق..في حالة سقوط الثاني فجأة ينبغي أن يمسك الأول الحبل بقوة ولا يتركه

يتحرر حتى يتيح للثاني الفرصة في استعادة توازنه والتسلق من جديد..هل كل شيء واضح؟..هل هناك أسئلة؟..حسنا أيها السادة..لتبدأ المهمة!

وبدأت المهمة..فضلت في البداية أن أظل أنا عند قاعدة التل مانحا فرصة المبادرة لصديقي..وهكذا بدأت صعوبة العملية تتضح رويدا رويدا، حتى صارت واضحة تماما لي عندما بدلت مع صديقي بعدما أبلى بلاء حسنا..المشكلة الأساسية هي أن تجد مكانا في جدار التل كي ترتكن بقدمك عليه..صحيح أننا نرتدي جميعا أحذية خاصة بتسلق الجبال تساعد على تثبيت مقدمة القدم بحافة التل ولا تدعك تنزلق بسهولة، لكن حذائي كان ضيقا للغاية..بدأت الصعود ببطء وسط تشجيع رفاقي والمدرب حتى وصلت لمنتصف الطريق، ولم أعد أرى أي شيء باستطاعتي الارتكاز عليه..فقررت الاستسلام..تأكد المدرب من استسلامي، قبل أن يعطيني التعليمات للهبوط..ينبغي أن أقف منتصبا ثم أحني ساقي ووسطي كأنني بصدد الجلوس فوق مقعد، ثم أبدأ الهبوط بينما الحبل المشدود يمسكني جيدا من وسطي..وهكذا بدأت الهبوط ببطء حتى وصلت لقاعدة الجبل من جديد.

الأمر ليس صعبا جدا كما تصورت في البداية..أنت بحاجة للثقة بنفسك أولا..ثانيا لابد أن تكون صبورا ولا تيأس من البحث عن فراغ تثبت فيه قدميك..القوة البدنية تأتي في المرتبة الثالثة..وجلست أستريح قليلا وأراقب رفيقاتنا البنات وهن

يتسلقن بشجاعة ويصلن للقمة ويترلن، فوجدت نفسي أتحمس فجأة لأفعل ما فعلته الزميلات..صحيح أنهن اخترن طريقا أسهل من طريقي، لكنهن نجحن في الوصول إلى القمة..

وهكذا بدأت رحلة التسلق من جديد..ها هو ذا الأمر ليس صعبا..المطلوب كثير من الثقة بالنفس وقليل من القوة..يجب ألا تنظر لأسفل أبدا وواصل النظر إلى الأمام دائما. وبعد دقائق وجدت نفسي قد وصلت للقمة..نظرة لأسفل تجعلني أرى موقفي بالضبط..الغابة تمتد في كل صوب، وأنا عند قمة التل أرى رفاقي من أعلى..الارتفاع لن يقل عن خمسين مترا بأية حال من الأحوال..عندما راودني الخوف للحظات كان ينبغي أن أؤمن جيدا أن الحبل حول وسطي يضمن سلامتي تماما..لا قلق..الثقة بالنفس كما قلنا..وهكذا بدأت رحلة الهبوط!

وبعدها صرت أرى الأمر ممتعا جدا..تسلق الجبال هواية مسلية إذا..كان معنا في المجموعة عددا من الشبان والفتيات الأمريكان الذين يهوون هذه الرياضة ويأتون كثيرا لممارستها هنا..

وبعد قليل من الراحة بدأت رحلة التسلق الثالثة مجربا طريقا آخر..قلت إن هناك أربعة طرق مختلفة تتدلى منها الحبال يمكنك سلكها خلال تسلق الجبل، وكلها تختلف في درجة الصعوبة..جربت طريقا ثالثا ونجحت بحمد الله!

في الرابعة عصرا انتهينا..جمعنا حاجاتنا وبدأنا رحلة العودة عبر الأحراش ومنها إلى الحافلة التي كانت تنتظرنا..في الطريـــق شاهدنا عددا كبيرا من النـــاس يرتـــدين ملابـــس الـــسحرة والساحرات يقبلن على الغابة..سألت فقيل لي إنهم ســيحيون مهرجانا عن السحر يعقد في الغابة في مثل هذا الوقـــت مـــن العام..كنت أتحرق شوقا لكي أنتظر لأرى ما سيكون، لكـــنني كنت متعبا فضلا أن الحافلة لن تنتظرني..ينبغي أن أرحل الآن!

ولم أكن أعلم أنني سأقضي هذه الليلة في حفل تركـــي في نيويورك سيتي!!

٦

ومنحوني الجنسية التركية!

قال لي صديقي فتيح: تيجي معانا؟

قلت على الفور: آجي طبعا!

ولم أعرف ما نحن بصدده بالضبط..فقط كل ما قاله لي إنه ذاهب مع أصدقائه الأتراك على ومهمت -الاسم التركي لمحمد- إلى نيويورك سيتي..لماذا؟..ليحضروا عرضا مسرحيا تركيا..ويبدو أنني تسرعت في القبول إذ بدت دعوة فتيح مجرد "عزومة مراكبية" لكنني قبلتها بلا تردد..

وفي السيارة جلسنا..تأكد فتيح من رغبتي في الذهاب معهم..حاول أن يثنيني مؤكدا أن العرض سيكون باللغة التركية وأنني لن أفهم شيئا..قلت لا مشكلة..إنها تجربة جديدة وكفى!..وانطلقنا..

وتولى هو عجلة القيادة..يحمل رخصة قيادة تركية معترف بها هنا في أمريكا، بينما أي مصري يحمل رخصة قيادة مصرية لا تعترف بها أمريكا أبدا..إنهم في تركيا يعرفون جيدا كيف يحترمون قواعد المرور، لكن في مصر الأمر مختلف تماما.

وإلى قاعة المسرح في كوينز وصلنا..دخلنا المبنى فإذا به مزدحما بالأتراك عن آخره..في المدخل مائدة خشبية عامرة

بالمأكولات والحلويات التركية..عن اليسار مصلى صغير يؤذن فيه المؤذن بأذان المغرب..في الداخل كثير من الرجال والنساء أغلبهن ترتدين الحجاب بالطريقة التركية..يبدو أن الجالية التركية في نيويورك كلها هنا!

صلينا المغرب على عجل خلف الإمام، ثم سرنا تجاه مائدة الطعام لنلتقط بعض المأكولات التركية سريعا..ثم اتجهنا بعدها صوب المسرح حيث تعرض المسرحية التركية..طبعا لم أفهم حرفا واحدا لكن أعجبني أداء الممثلين بصراحة..سألت صديقي فتيح عن موضوع المسرحية، فقال لي إنها تتناول قصة حياة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم..سألني عن رأيي فقلت له إنها ممتعة جدا لكنني لا أفهم حرفا!

انطلقنا بعدها في شوارع مانهاتن نبحث عن مطعم تركي نتناول فيه عشاءنا..دخلنا المطعم لأرى كل ما تشتهيه النفس المصرية من طعام..التقطت طبقا ووضعت فيه بعض الأرز وفي طبق آخر وضعت حساء البسلة بالبطاطس..جلست إلى جوار فتيح وبدأت الأكل فسألني كالمعتاد: هل أعجبك طعامنا؟..وبدأت أنا السخرية على الفور: إيه يا عم..طعامكم؟..هذه الوجبة تطبخها أمي لنا في البيت كل أسبوع!

بدأنا المحادثة التقليدية بيننا عما إذا كان المصريون هم من سرقوا طعام الأتراك أم الأتراك هم من فعلوها..وفي النهاية يجب

أن أعترف أن الإمبراطورية العثمانية هي الـتي نقلـت هـذه التشابهات بيننا..اللغة التركية مزدحمة بالكلمات العربية سـواء من الأثر الجغرافي ووقوع تركيا على حافة الـوطن العـربي أو الأثر الديني وكون الإسلام هو الدين الغالب في تركيا..و نحـن أيضا نستخدم كثيرا من الكلمات التركية باستمرار.

الحقيقة أن ثمة أشياء كثيرة تركتها الإمبراطورية العثمانية في كل بيت عربي بصفة عامة ومصري بصفة خاصة، وهي أشياء تجمعنا مع تركيا واليونان و حتى ألبانيا..نحن نأكل الطعام ذاته منذ قرون..انظـر إلى طبـق المحـشوّ..في تركيـا يـسمونه "صرمة"..الحلاوة الطحينية طعام تركي أصيل..القهوة العربيـة هي في الأساس قهوة تركية..بعض الكلمات العربية تـسربت إلينا من التركيـة والعكـس صـحيح..ذات يـوم كانـت الإمبراطورية العثمانية قوة عظمى تـتحكم في مـصير العـالم وكانت تجمعنا مع الشام وتركيا واليونان، وكان طبيعيا أن تمتد بيننا أواصر مشتركة.

ولأسباب كثيرة صار الأتراك أقرب الأصدقاء في أمريكا إلى قلبي..وكان فتيح هو أقرب أصدقائي على الإطـلاق، فكنـا نصلي معا ونذاكر معا أحيانا ونخرج أيضا معا..وكـان الفـتى الكولمبي إدجار رفيقنا أيضا أو الأصدقاء الأتراك الآخرين..وفي كل وقت بمناسبة أو غير مناسبة كـان فتـيح يحـدثنا عـن الإمبراطورية العثمانية وأمجادها وكيف كانت القـوة الأولى في العالم يوما ما..

ووصل اندماجي مع الأتراك إلى الدرجة التي كانت تجعلهم يسألونني: هل تتمنى أن تكون تركيا مثلنا؟..وقام فتيح بمنحـــي الجنسية التركية الفخرية كذلك!..وكان ذلك بعد أن اشتركت معهم بحماس في تنظيم يوم تركي في الجامعة نعرض فيه الأغاني التركية ونوزع فيه الأكل التركي ونملأ قاعة الحفـــل بـــصور إستانبول ومساجدها ومعالمها الأثرية على موســـيقى المطـــرب التركي الشهير تركان!

اصطحبني فتيح ذات مرة إلى جلسة تركية خالصة قامـــت فيها فتاة تركية باهرة الحسن تدعى بولام بصنع القهوة التركية لنا..طبعا كنت أعرف هذا النوع من القهوة، فالمصريون كلهم يعرفونها ويشربونها في المقاهي..وشتان ما بين القهوة التركيـــة والأمريكية، لكنني أحببت الأمريكية أكثر!

وعرفت من أصدقائي الأتراك قيمة أن تكون عربيا..كـــانوا يحسدونني باستمرار على معرفتي باللغة العربية وبـــذلك أفهـــم القرآن الكريم والأحاديث النبوية، بينما كثير منهم يحفظ السور القرآنية كما هي دون أن يفهم معاني كل كلمة بل يفهم المعنى العام فحسب..وكلهم يتمنون أن يتعلموا اللغة العربية..وكانوا كثيرا ما يسألونني عن معاني كلمات عربية كـــثيرة، وكـــانوا يذهلونني بما يحفظونه من سور قرآنية وأحاديث نبوية شـــريفة وأدعية بالعربية..وتعلمت منهم شيئا مهما..عندما يقرأ القرآن لابد أن نكف جميعا عن الحديث وننصت للقرآن..هم يفعلون ذلك حتى وهم لا يفهمون معاني ما يسمعونه..لكنها العادة التي

يتربون عليها منذ الصغر..بينما اعتاد كثير منا نحن العـــرب أن نتحدث ونتناقش بينما القرآن الكريم يتعالى من الراديو طـــوال الوقت!

وحينما كنت أصلي مع أصدقائي الأتراك، كانوا يـــدعونني إلى تقدمهم لأكون الإمام رغم أنني الأصغر ســـنا، ولا شـــيء يميزني سوى أنني عربي أفهم ما أقرأه من القرآن..وبمـــا كـــان أصدقائي من غير العرب أكثر ثقافة دينية مني، لكنهم يحسدونني جميعا لأنني أجيد العربية وأفهم القرآن الكريم..ومن حين لآخر أتدخل لأصلح لأحدهم كلمة ينطقها بصورة خاطئـــة لـــدى تلاوته للقرآن أو أية كريمة لا يفهم معناها..حينها فقط كنـــت أدرك قيمة هذا الكنز الذي أملكه، وبدونه لا أستطيع أن أكتب هذه السطور!

٧

مع أصدقائي الهنود!

هذا المنظر لفت انتباهي بشدة..

فتى وفتاة جالسان يتحدثان..الأول باكستاني والثانية هندية..الأول مسلم والثانية هندوسية..كل منهما لا يجيد الأوردية لذا فهما يتحدثان الإنجليزية..يبدو أيضا أنهما قضيا أغلب عمريهما هنا في أمريكا..ويبدو أن ثمة قصة حب تربط بينهما أيضا!

لا أعرف بالضبط ما الذي جعلني أشترك في هذه الرحلة..كنت وحدي..لا أعرف أحدا تقريبا ممن اشتركوا فيها..كل ما عرفته أن نادي جنوب شرق أسيا ينظم رحلة إلى نيويورك سيتي ورسم الاشتراك عشرة دولارات فحسب..فرصة متميزة إذن لمعرفة أصدقاء جدد والاندماج مع أعضاء هذا النادي..هكذا وجدت ما يشغلني يوم السبت عطلة الأسبوع.

وكان كل من في الرحلة هنود وباكستانين، وكلهم من أعضاء النادي..رحبوا بي معهم وانطلقت بنا الحافلة صباح السبت..وقضوا الرحلة إلى نيويورك يتحدثون ويمزحون..ما أثار دهشتي للحظات هذا الجو الحميم جدا بين الهنود والباكستانيين، ولا أحد منهم يبالي بالخلافات السياسية العميقة

جدا بين الهند وباكستان، والدولتان كانتا على وشك حرب نووية عام ١٩٩٨ والخلافات بينهما تبدأ منذ الاستقلال عن إنجلترا..تصور شابا إيرانيا يصادق فتاة إسرائيلية..الأمر لا يختلف كثيرا، لكن هذه هي أمريكا..كل الجنسيات وكل الأديان وكل الأعراق في خليط واحد..هذه هي أمريكا!

هؤلاء الشباب الهنود والباكستانيون يشكلون معا أغلب أعضاء نادي جنوب شرق أسيا في الجامعة، وكل الأقليات وأبناء الجاليات الأجنبية يحاولون الحفاظ على هويتهم وعاداتهم من خلال تشكيل مثل هذه الأندية والمجموعات في جامعاتهم في كل أمريكا، فكان لدينا في جامعة نيوبولتز ناديا يابانيا وآخر أسيويا وثالثا تركيا ورابعا أفريقيا وكنا نفكر جديا في تأسيس ناد عربي!

كانت محطتنا الأولى في سينما بمانهاتن..دار عرض ضخمة لا تختلف كثيرا عن دور العرض الكبيرة عندنا..كانت تعرض فيلما هنديا جاء هؤلاء الطلبة لحضور عرضه في نيويورك..فالأفلام الهندية لها شعبيتها أيضا في أمريكا، وبوليوود استطاعت أن تكون هوليود الشرق وتنافس بأفلامها في أنحاء كثيرة في العالم، في الوقت الذي نقف فيه نحن نصفق ونهلل إذا عرض لنا فيلم مصري في دار واحدة في أمريكا أو فرنسا!

مدة الفيلم ثلاث ساعات..البداية مثيرة جدا، والفيلم مليء بالمفاجآت..إذا كنت من هواة الأفلام الرومانسية ففي الفيلم

قصة حب رومانسية بين البطل والبطلة ثم بين البطلة وصديق البطل..إذا كنت من هواة الأفلام الدرامية، فستجد أن بطلة الفيلم خائنة وأن الأخ قد يقتل شقيقه أحيانا من أجل الحب ربما وربما من المال..إذا كنت من محبي الأكشن فهناك الكثير من مشاهد سباقات السيارات والأعيرة النارية..وطبعا لن يخلو الفيلم من حبكة بوليسية شديدة التعقيد، وهناك الكثير من الأغاني الهندية الراقصة بمناسبة أو بدون مناسبة..هذه هي ميزة بوليوود..أنها ترضي جميع الأذواق بفيلم واحد فحسب!

انتهى الفيلم وخرجنا من السينما لنتخذ طريقنا إلى مطعم هندي..دخلنا المطعم وجلسنا..أعد لنا أصحاب المطعم مائدة كبيرة تستوعبنا كلنا، قبل أن يقدم لنا مشروب الترحاب..وبدأ الأكل الهندي يقدم لنا..

السؤال المهم هو تحديد من منا هندوسي ومن منا غير هندوسي..فالهندوس لا يأكلون لحم البقر..وهكذا اكتشفت أن الأربعة الجالسين حولي من الهندوس..أهلا وسهلا..لم أتصور قط أنني في يوم من الأيام سأتحدث بهذه السهولة إلى شخص يقدس البقرة، لكنني فعلت..هأنذا جالس أتحدث إلى أحدهم وهو يشرح لي معتقداته..قال لي إنه أحيانا لا يدقق كثيرا في أمر اللحوم هذه لأنه غير متدين..والداه هنديان ولكنه ولد وعاش حياته في أمريكا..

في أمريكا يمكنك أن تكون ما شئت..لتكن مسلما أو كاثوليكيا أو بروستانتيا أو أرزوكسيا أو يهوديا أو هندوسيا أو بوذيا أو ملحدا حتى..هذا شأنك وحدك..كما أنك تجد أديانا

وعقائد لم تسمع عنها من قبل..مجرد أفكار فلسفية صار لها أتباعها فاتخذوها دينا..وهؤلاء تقابلهم في كل مكان..كثير من زملائي الأمريكان كنت أكتشف مذاهبهم الدينية الغريبة كلما أضفت أحدهم على موقع Facebook، عندما أنظر إلى خانة الديانة في صفحته..والملحدون حولك أيضا..وكل صاحب مذهب أو عقيدة له الحرية في ممارسة ما يشاء ما دام لا ينتهك حرية الآخرين..هذه هي أمريكا!

أعلنت أنني نباتي حتى لا أتورط في أية لحوم لا أعرف ماهيتها..كان بيننا مسلمون أيضا فطمأننا صاحب المطعم أن لا لحم خنزير هنالك وأنه لا يستعمل الخمر في الطهي..لا تقلقوا..وتوالت الأطباق الهندية واحدا تلو الآخر..ثمة أشياء غريبة تسبح في حساء غريب..أسأل مجاوري الهندي ما هذا، فيتطوع اثنان أو ثلاثة بإجابتي في حماس..أتذوق وأجده شهيا حقا..لكنه حار وكل الأطعمة الهندية ممتلئة بالتوابل..كيف لا تكون هنديا ولا تحب التوابل؟!

أحببت الخبز الهندي كثيرا..كان طعمه مسكرا وشهيا..وجاء الأرز طبعا فهو وجبة رئيسية في الهند..ثم الحلويات الهندية..الشيء الوحيد غير الهندى الذى تناولناه كان الكولا!

انتهينا من الطعام بعد أن شبعنا تماما..كان الأكل كثيرا وشهيا، ولا أذكر أنني أكلت في مطعم غير عربي مثلما أكلت

في هذا المطعم الهندي..ربما لأنني لن أدفع ثمن ما أكلته..الحساب على نادي جنوب شرق أسيا!

وأثناء تناول الطعام بدأ الزملاء يتحدثون معي عن وطني مصر بما أبي الفتى الغريب..وفوجئت أن أحدهم يعلن أنه يعرف المطرب هشام عباس لأنه غنى "ناري نارين" مع مطربة هندية..وأخرج أحد الهنود جهاز I pod عليه الأغنية وأعطاني إياها كي أسمعها وأفسر له معنى الكلمات العربية..وكان بحوذته أيضا أغنية "نور العين" لعمرو دياب..وهي أغنية شهيرة جدا وجدت أصدقائي من تركيا ومقدونيا والهند يسألونني عنها!

٨

الأكل على الطريقة اليابانية

لم تبد تجربة المطعم الياباني رائعة بأية حال من الأحوال..لم آكل شيئا تقريبا، ثم دفعت ثلاثة عشر دولارا في النهاية..لكنني كسبت بعض الأصدقاء اليابانيين..وكسبت شيئا آخر..جربت الأكل الياباني!

بعد مباراة كرة قدم حامية دعاني رفاقي المصريين للـــذهاب معهم إلى مطعم ياباني..إيه يا جماعة؟..هـــي ناقـــصة يابـــاني كمان؟..قالوا إن توماي -فتاة يابانية نعرفها- ذاهبة مع عـــدد كبير من الطلبة الدوليين، ودعتنا معهـــا..إذن هنـــاك أنـــاس جدد..أصدقاء جدد..أنا معاكم أو كما يقول الأمريكيـــون I am in!

وذهبنا جميعا للمطعم الياباني، اسمه "سوشـــي طوكيـــو"، والسوشي هي الوجبة الشعبية اليابانية التي يقدمها هذا المطعـــم الياباني بكل الأشكال الممكنة..ويبدو أن السوشي هذا نوع من طعام البحر..طبعا أنا لا آكل اللحوم أصلا ولا أميل لتجربـــة اللحم الياباني الليلة..قررت أن أطلب شيئا نباتيا كالمعتاد.

واندمجنا في حديث دولي..هذه المرة ترى كثيرا من الوجـــوه الشرق أسيوية..فتاتان من كوريا الجنوبية وفتيان وفتيات مـــن اليابان..البنت الدنماركية وماريوكسي الإكوادورية..حتى باولا

الفتاة الإيطالية التي لم أتبادل معها سوى حديث عابر ذات مرة على الغداء!

التففنا حول منضدة طويلة داخل المطعم وفتحنا جميعا قائمة الطعام..أصحابي المصريون يقلبون صفحات القائمة محاولين إيجاد وجبة مناسبة..يا جماعة حد فاهم حاجة؟..لأ طبعا!

تولت الفتاة اليابانية تومامي شرح الوجبات بحماس..إما أن إنجليزها ضعيفة أو أنها تتحدث عن أصناف طعام لا توجد سوى في اليابان..نعود لتقليب صفحات القائمة من جديد و يعجبنا اسم وجبة ما..نسألها عنها فتعاود الإجابة بحماس..نتبادل النظرات المتسائلة و يسأل أحدنا: حد فاهم حاجة؟..ثم نضحك!

فتطوعت تومامي وطلبت لنا نوعا ما من الحساء..شرحت لنا محتوياته و لم نفهم..فقط تأكدت من أنها لا تحتوى أي نوع من اللحوم..جرب صديقي وقال إن طعمها حلو قوي..جربت فوجدت أن مذاقها جيد..مذاق السائل على الأقل..طبعا لن أجرب تلك الأشياء الخضراء و البيضاء التي تسبح في الحساء..مستحيل!

بدأنا مرحلة تعلم مسك العصي اليابانية التي يستعملونها في التهام الطعام..الأمر ليس سهلا على الإطلاق لأنك تمسك بالعصي بيد واحدة و بطريقة معقدة كي تثبت واحدة من العصي على بنصرك وتستعمل إبهامك وسبابتك لتحريك العصا

الأخرى لالتقاط شيء ما لالتهامه..بدا الأمر بسيطا للوهلة الأولى، لكن ما إن بدأنا في تعلمه حتى اتضحت صعوبته..وعندما جاء الأكل بدأت المشكلة الحقيقية..التهام أشياء غريبة بعصي!

تراصت الأطباق الغريبة أمامنا..تبدو شهية حقا لكن ما إن تبدأ في تجربتها حتى تكتشف أن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، يأتي الطعام الياباني بما لا يشتهي غير اليابانيين..تحمس أصدقائي وأمسكوا بالعصي وبدؤوا في التهام السوشي..البعض قال "الله" وأكل..البعض لم يتذوق وأكل..اليابانيون متحمسون جدا ويأكلون بحماس..وتومامي تحاول أن تساعدنا بأي شكل من الأشكال..توصف لنا ماهية تلك الأشياء الخضراء والحمراء على جانب الطبق..قررت أن أجرب أنا شيئا من تلك الأشياء الخضراء فوجدته حارا جدا..وأصرت تومامي أن أجرب الأشياء الحمراء أيضا..بعد تردد طويل جربت..أحسست أنني آكل زهرة ياسمين، مع أني لم آكل ياسمينا من قبل طبعا!

بعد دقائق مللت من طبقي النباتي الذي طلبته..كانت هناك ست قطع من هذا الصنف الذي لا أذكر اسمه..كل قطعة ملفوفة بطبقة أرز خفيفة جدا، وداخلها تختفي أنواع غريبة من الخضراوات اليابانية..أمسكت بعصاي وحاولت أن ألتقط واحدة من القطع الست فلم أنجح..جربت أن أتناسى كل قواعد المائدة اليابانية وأمسك كل عصا بيد وبدأت الأكل،

فكان الأمر أصعب..ضحكت توماموى وقالت إن الأطفال عندهم يفعلون ذلك..ها ها!

قلت لها بحاملا إن الأكل الياباني لذيذ جدا..طبعا فهمت هي أنني أقصد العكس تماما والدليل أنني لا آكل..قلت لها إنها لابد أن تجرب الطعام المصري أيضا..طبعا سيكون الأمر أسهل بدون هاتين العصايتين..ساعتها هناكل فول وطعمية..حتى الشوكة والسكين ليستا ضروريتين!

على الجانب الآخر كان رفاقي متحمسين جدا للطعام، ويتبادلون معا قطعا من تلك الأطباق ليجربوها..صحيح أن لا أحد منهم يفهم جيدا ماهية ما يأكله، لكنه يأكل وخلاص..ما دام طعاما حلالا فسيؤكل..جلست أشاهدهم يمارسون لعبة صيد قطع الطعام بالعصيان ثم لعبة إيصال قطعة الطعام بين طرفي العصا إلى الفم..وما أملها وأشقاها من لعبة!

في النهاية نهضنا لنحاسب..أعلم جيدا أنني لم آكل شيئا تقريبا لكنني مضطر أن أدفع معهم..تطوعت توماموي ودفعت الحساب ثم طلبت من كل منا ثلاثة عشر دولارا..دفعت لها الثلاثة عشر دولارا آسفا.

خرجت فرحا بالصحبة اليابانية الحلوة..نعم ضحكنا كثيرا وفشلنا في تعلم الأكل بالعصي على الطريقة اليابانية بل وتفرجنا على الأطعمة اليابانية لا سيما السوشي..تفرجنا فقط لكننا لم نأكل كثيرا!

٩

كشري بعشرة دولارات!

هذه المرة قررنا اصطحاب أصدقائنا الأجانب إلى مطعم مصري..ويا ليتنا ما فعلنا!

منذ الأيام الأولى في نيوبولتز ونحن نسمع عن مطعم مون لايت - ضوء القمر..المطعم يملكه مصري وافتتحه هنا في هذه المدينة منذ عام ١٩٩٣، يتخصص في تقديم الأطعمة الشرقية لا سيما المصرية في المدينة.. فول وفلافل وكشري وكل طعام مصري..جعلنا ذلك نشعر ببعض السعادة لأننا سنجد هذه الأطعمة المصرية وقت أن نحتاج إليها في أي وقت.

فيما بعد أخبرنا صديقنا المصري أنه ذهب للمطعم و تناول بعض الفلافل..المفاجأة أن طبق الفلافل بستة دولارات!..احسبها بقى..طبق الطعمية بما يساوي ثلاثون جنيها على الأقل..طبعا لا داع لذكر أسعار الفلافل في مصر!

المهم قررنا ووضعنا قرارنا موضع التنفيذ..سنذهب لمون لايت كافي وسنأكل أكلا مصريا..وسندعو كل أصدقائنا الأجانب..دعوت فتيح التركي وصديقه إدحار وصديقنا السعودي، وجاء فتيح برفيق غرفته الكوري..وجاءت صديقاتنا بأمريكية وبوسنية واكتملت الخروجة الدولية..ذهبنا لمون لايت!

عندما تتصفح قائمة الطعام تفاجأ بارتفاع ثمن هذه الأطعمة المصرية إلى حد خطير جدا..طبق الكشري بعشرة دولار..الفول بستة دولار..الفلافل بسبعة دولار..أتأمل أنا وأصدقائي الأسعار ونبتسم..لو فتح جاد أو التابعي أو-أي واحد من محلات الفول و الطعمية الشهيرة في مصر- فرعا هنا لصار ملاكه من أصحاب الملايين بعد أعوام..السؤال الأهم الآن: كيف يبدو طعم طبق كشري ثمنه خمسون جنيها؟

وبينما راح صوت الست أم كلثوم يردد "اللي شفته قبل ما تشوفك عينيا"، سألنا أصدقاؤنا عن أفضل طلب مصري جدا يمكنهم أكله..كشري طبعا يا جماعة..هي دي عايزه سؤال..وتشجيعا لهم على طلب الكشري بدأنا نطلب نحن أيضا كشري..عشرة دولار بقى مش مشكلة..لابد أن يجرب رفاقنا أكلنا المصري العظيم!

طلب أغلبنا كشري..انتظرنا طويلا حتى جاءت العاملة الشابة بأول الأطباق وكانت سلطة..المفترض أن تأكل السلطة كتصبيرة حتى يأتيك الكشري الذي طال انتظاره كثيرا..أكلنا السلاطة وانتظرنا..رحنا نثرثر في أي كلام ونلتقط الصور كي نضعها طبعا على Facebook كي يراها أصحابنا في مصر!

وأخيرا جاء أول طبق كشري..طبق كبير يملؤه الأرز والصلصة والبصل المحمر..لا شيء آخر..أين الشطة والدقة؟..إحنا مش في مصر يا عم..خلاص ناكل

ونـــشوف..وذاق أول أصـــدقائنا الكـــشري ذا العـــشرة دولارات..انتظرنا رد فعله..نظر إلينا وقال: عادي!..

وتوالت الأطباق..جاء طبقـــي..كنـــت جائعـــا وأكلتـــه بسرعة..لم أر أي طعم مميز في طبق الكشري..أصـــغر مطعـــم كشري فيكي يا مصر يقدم ما هو أشهى وأفخر مـــن طبـــق العشرة دولارات هذا بأقل من ثلاثة جنيهات..تعالت أصوات أصدقائنا المتهكمة متذكرين أكلات كشري التحرير في المطعم الشهير المجاور لمقر جامعتنا في ميدان التحرير في قلب القاهرة.

دارت عيناي أتأمل وجوه رفاقنا الأجانب..الفتى الكـــوري يختبر الكشري ملتـــهما ملعقـــة صـــغيرة مـــن الأرز بحـــذر شديد..يشعر ببعض الاطمئنان بعد الانطباع الأول ويواصـــل التهام طبقه بحذر وقد بدا عليه عدم الرضا..التركي يأكـــل في صمت وإن بدت عليه معالم الصدمة..أبتسم وأساله عن رأيـــه فيشير لي بإبهامه أن كل شيء تمام..يا راجل!

انتهت الليلة و حان وقت دفع الحساب..المفترض أن تحسب حسابك الخاص وتضيف عليه الضريبة والخدمة..هذا ما نعرفه جيدا عن ظهر قلب..جمعنا المبلغ المقرر الذي تجـــاوز مـــائتين وخمسين دولار- ٢٥٠ دولار في فول وطعمية!..لكن بقـــت نقطة مهمة جدا لم ننتبه إليها..البقشيش!..الفتـــاة الأمريكيـــة العاملة هنا تنظر لنـــا بنظـــرات كارهـــة مطالبـــة بحقهـــا في البقشيش..المشكلة أنها تطلب منا أن نضاعف ســـعر الـــضريبة

الكلية فيكون ذلك نصيبها من البقشيش..توقفنا نستنكر ما تطالب به هذه الفتاة ، لكن أحد أصدقائنا المصريين أكد حقها ذلك..هو قد عمل في مطعم من قبل، ويعرف أن المطاعم تقرر للنادل نصيبا كهذا من البقشيش!

فالبقشيش في المطاعم الأمريكية -لا سيما في ولاية نيويورك- حق أصيل للنادل..ضاعف الضريبة المقررة على حسابك لتكون هي بقشيش النادل..إذا كانت الضريبة المقررة هي ١٠% من قيمة الفاتورة فهذا يعني أن تدفع ٢٠ % تقريبا بقشيشا..وهذا يعني إذا كانت الفاتورة مثلا بمائة دولار فعليك أن تضيف ثلاثين دولارا أخرى كضريبة وبقشيش حتى تكون مهذبا..ولا مفر من أن تكون مهذبا وتعطي النادل حقه في البقشيش..هذا هو الدرس الأول الذي تتعلمه عندما تأكل في المطاعم الأمريكية!

غادرنا المطعم بعد أن أخذت النادلة حقها الكامل في البقشيش..أربعون دولارا دفعة واحدة..يبدو أن مهنة النادل مربحة جدا في أمريكا!

١١

إلى تلك التي وحدت الشعوب!

ليلة كل جمعة..السابعة مساء..قاعة كرة السلة في المبنى الرياضي..

إنه موعدنا المعتاد للعب كرة القدم..الفوتبول كما يعرفها العالم أجمع أو السوكر كما يسميها الأمريكان..منذ أسبوعنا الأول في نيوبولتز ونحن على علم بهذا الموعد الفريد..الوقت الذي يتجمع فيه محبو كرة القدم من أعضاء رابطة الطلبة المسلمين Msa أو غيرهم..

واللعب يعتمد بصفة خاصة على المساواة التامة..لا فرق بين لاعب متميز ولاعب لا يجيد الكرة مثله.. لم أكن قط من محبي كرة القدم لكن الجو الحميم في مثل هذه المباريات شجعني كثيرا ألا أفوت مباراة واحدة..برغم أن يوم الجمعة كان أصعب أيام الدراسة بالنسبة لي لأني أعود من نيويورك سيتي من زيارة الأمم المتحدة الأسبوعية في حوالي السادسة، فلا يتبقى لي سوى ساعة أتناول فيها الغداء قبل بدء كرة القدم.

واللعب مسموح للجميع دون النظر إلى العرق أو اللون أو الدين..نقف جميعا في دائرة واسعة ونعد الرقمين واحد واثنين بالتتالي..الأفراد الذين قالوا واحد يشكلون فريقا والذين قالوا

اثنان يشكلون الفريق المنافس..وفي الفريقين تتعدد الأجناس والأعراق والديانات.

وخلال مباريات كرة القدم تعرفت بالكثير من الأصدقاء من مختلف دول العالم..كرة القدم عادة تكسر حاجز التحفظ بيننا ونجد أنفسنا نستغل كل دقيقة راحة كي نتعرف ونتحدث معا..وحينما نلعب معا مرة أو مرتين نعرف بعضنا البعض ويكون بوسعنا أن نجلس معا عندما نتقابل مصادفة في قاعة الطعام..

ومن حين لآخر كانت قضية ما تطرح للنقاش..ذات مرة كان صديقي فتيح يواصل مع إدجار حديثا طويلا عن الإيمان بوجود الله، وكان إدجار لا يزال يجادل مع فتيح ويناقش معه أفكاره ويسأله أسئلة كثيرة، أخبرنا إدجار أنه من أسرة كاثوليكية لكنه لا يمارس أية طقوس دينية فضلا على أنه لا يؤمن بوجود الخالق، دخل الياباني في الحديث وقال إنه أيضا بوذي لكنه لا يمارس طقوسه أيضا..وطال حديثنا كثيرا..حديث الأديان!

في أمريكا كل شيء متاح لأن تجربه..هل كنت أتصور مثلا أنني سألعب مباراة كرة قدم مع فريق نصفه من الفتيات؟..إنها أمريكا حيث كل شيء متاح لأن تجربه ما دمت بعيدا عن وطنك في بلد ليس بلدك وسط أناس لا تعرفهم..

كنت قد ذهبت للعب كرة القدم ليلة الاثنين، وهو موعد معروف تجري فيه مباريات دوري لكرة القدم بين بعض الفرق المقسمة مسبقا، وكان أصدقائي يلعبون هذه المباراة..الفريق المنافس كان من الفتيات لكنه كان ناقصا، وطلبن مني أن ألعب معهن بدلا من مجرد الفرجة على المباراة..ولعبت معهن!

المفاجأة أن الفتيات كن قويات بحق، ويلعبن بصورة أفضل كثيرا من الفتيان..في البدء كنت خجولا أن أتواصل معهن لكنني تيقنت أنهن أكفأ كثيرا مني فتشجعت، وبدأت ألعب بجدية لكنهن كن أقوى وأكفأ كثيرا..يا للخجل!

و لم تكن هذه أمتع مبارياتنا كما قد تتصور، بل كانت أولى مبارياتنا هي الأكثر متعة على الإطلاق..اللقاء الأول مع معظم من صاروا أصدقائي فيما بعد..كونا فريقين أولهما معظمه من المصريين والثاني أغلب أفراده أتراك..وبدأت المباراة المثيرة بين الفريقين المصري والتركي مع الفارق الشاسع في المستوى لصالح الأتراك بالطبع..وكانت زميلاتنا تتفرج علينا هاتفات باسم مصر..كنا نلعب بحماس ونذكر بعضنا البعض أن سمعة مصر بين أيدينا..وللأسف ضاعت سمعة مصر هذه المرة و لم نستعدها إلا بعد أن فاز المنتخب القومي بكأس الأمم الأفريقية بعد أسبوعين!

صدق من قال إن الرياضة أكثر ما يقرب الشعوب من بعضها البعض..في هذه المباريات ينسى الياباني أن الأمريكي

من البلد التي قتلت عشرات الآلاف من مواطنيه في هيروشـــيما ونجازاكي، وينسى الأمريكي ما فعلته اليابان في بيرل هـــاربور، وينسى المصرى شراسة الإنجليز عندما احتلوا مصر، ويتناســـى الإنجليزي مجازر الألمان في الحرب العالمية الثانية..إنها الرياضة يا صديقي..كلمة السر التي توحد الشعوب جميعا!

خاتمة

وحانت ساعة الفراق..

إنها تلك الأيام الأخيرة..تحتضن صديقك وأنت تعلم جيدا أنها قد تكون المرة الأخيرة التي تراه فيها..سيرحل هو اليوم إلى بلده وترحل أنت غدا إلى القاهرة..قد لا تلتقيان بعدها أبدا وقد يجمع بينكما القدر يوما ما..أين ومتى وكيف؟..الله وحده يعلم..

تلقي النظرة الأخيرة على غرفتك..على فصلك..على أستاذك..تصافح معارفك للمرة الأخيرة..تعانق أصدقاءك للمرة الأخيرة..تحاول أن تكتم دموعك وأنت تترك كل شيء مدركا أنك قد تركت ذكرى ما في كل مكان ههنا..هنا تعارفنا لأول مرة وهنا ضحكنا معا وهنا خرجنا لنتناول العشاء وهنا جرينا كي نلحق بموعد المحاضرة وهنا رقصنا على الجليد نحتفل بفوز مصر بكأس الأمم الأفريقية وهنا سرنا نتحدث عن أحوال الوطن ونتمنى أن تنقضي الأشهر الأربعة سريعا كي نعود إلى الأهل الأحباب..

وها قد انقضت الأشهر الأربعة..وحان موعد الفراق..

في حفل تخرج الجامعة تجمعنا..كان صديقي فتيح يحتفل بتخرجه بالزى الرسمي، وكانت أسرته الصغيرة قد أقبلت من إسطنبول كي تعيش معه هذه اللحظات السعيدة..وكنا كلنا

جواره..رفع هو علم تركيا حينما صعد إلى المنصة يستلم شهادة التخرج، فتعالت صيحاتنا جميعا تهتف باسمه..

وذهبنا إلى منزل د.ياسر نودع أسرته الطيبة على وعد باللقاء ذات يوم في القاهرة..ثم التقينا مع أصدقائنا ليلتها في المطعم المصري مون لايت كي نحتفل بتخرج فتيح ونلتقط الصور الأخيرة..بعدها اصطحبني فتيح بسيارته في جولة سريعة بالسيارة صاعدين التل خارج نيوبولتز..نتحدث عن خططنا للمستقبل..نتعاهد أن نبقى دائما على اتصال..ثم أجرينا اتفاقا بسيطا..أن أكون شاهدا على زواجه في تركيا ويكون هو شاهدا على زواجي في مصر..متى وكيف؟..الله وحده يعلم..

وبعد ساعات قليلة كانت الطائرة المصرية البوينج ٧٧٧ تحلق بنا في سماء نيويورك متخذة طريقها صوب الوطن..شريط الذكريات يمر بسرعة في ذهني، وحزني يقل شيئا فشيئا مع ازدياد شوقي للأهل..بعد قليل سأرى الوطن من جديد..سأكون إلى جوار أصدقائي وأحبائي وأستنشق عبير مصر الذي افتقدته لأربعة أشهر.

وبعد تسع ساعات دخلنا الأجواء المصرية..رأينا القاهرة من عل..شاهدنا النيل من السماء..تبادلنا النظرات غير مصدقين أننا عدنا إلى الوطن..حينها فقط شعرنا حقا بمعنى كلمة وطن..مصر ليست أجمل بلاد الدنيا، لكنها الأجمل في أنظارنا..مصر ليست أفضل بلاد العالم، لكننا نحبها..ومهما

ذهبنا ومهما رأينا ومهما انبهرنا بحضارة الغرب ومهما انتقدنا وسخرنا من بلدنا، فإننا لم نحب ولن نحب مثلها..أبدا..

وفي اللحظة التي خرجت فيها من بوابة صالة الوصول..اللحظة التي سمعت فيها أصدقائي يهتفون باسمي..اللحظة التي رأيت فيها أبي..اللحظة التي فيها احتضنتني فيها أمي..اللحظة التي ناولني فيها صديقي باقة الورود..حينها فقط كنت قد نسيت كل شيء عن أمريكا وعن نيوبولتز.

الأيام القليلة التالية واجهت فيها الصدمة الحضارية كما حكى عنها أصدقائي الذين خاضوا ذات التجربة من قبل..شيئا فشيئا بدأت التكيف مع الوضع من جديد..حاولت أن أتفهم أن تجربتي في أمريكا قد انتهت بحمد الله..أدرك أن دوري الآن أن أستفيد جيدا من هذه التجربة وأن أفيد غيري بها..لابد أن أحكي للآخرين عما رأيته وعما فعلته..لابد أن أخبرهم بما لم يروه وبما لم يفعلوه..وهذه أيها السادة تجربتي..حكيتها لكم محاولا أن أنقل لكم ما رأيته وما فعلته..هذه هي أمريكا التي قد تكرهها وقد تحبها..أمريكا التي قد لا تتمنى زيارتها وقد تطمح في الهجرة الدائمة إليها..هذه هي أمريكا!..

علاء مصباح

الجمعة ٢١ نوفمبر٢٠٠٨

الكاتب

- يدرس الإعلام بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

-درس في جامعة نيوبولتز في نيويورك عام ٢٠٠٨

- كتب في جريدتي الدستور وعين ومجلة كلمتنا.

- يكتب بموقع بص وطل الإلكتروني.

- حصل على جائزة سوزان مبارك الأدبية عامي ١٩٩٩ و٢٠٠١

- حاصل على جائزة أوسكار رجل المستحيل الفضية في مسابقة روايتي الأدبية عام ٢٠٠٥

- فاز بعدد من جوائز القصة القصيرة في مسابقات الجامعة الأمريكية.

- للتواصل مع الكاتب:

alaamosbah@yahoo.com
http://alaa-mosbah.blogspot.com

قالوا عن الكتاب

– هو كتاب جيد وشيق ومكتوب بطريقة جميلة.

د.علاء الأسوانى

– الجميل فى الكتاب أنه لم يقلبها سياسة، على العكس هو يقدم لك أمريكا كمائدة عامرة بكل الأصناف، دعك من أن أسلوب علاء الجذاب ذا النفس الساخر يجعلك تقرأ الكتاب وكأنك تأكل وجبة ممتعة فعلا.

جريدة الدستور

– تجربة علاء التى يقدمها من خلال الكتاب فريدة، فإنه أحسن استغلال كل ثانية من الشهور الأربعة التى قضاها فى أمريكا..سيأخذك الكتاب فى جولة ممتعة تستكشف من خلالها أشياء عجيبة.هكذا ببساطة وبينما تمسك الكتاب بيديك ستكتشف أمريكا بكل تناقضاتها.

بص وطل

– اللى ميز رحلتى مع علاء أن صاحب الدعوة هو طالب لم يتجاوز العشرين من العمر بعد، فتضمن أن تجتمع الثقافة مع الحماس وأحيانا الجنون وباسلوب ممتع رائع دقيق يعرف كيف يكتب أدب الرحلات.

مجلة كلمتنا

– المؤلف يحظى بقلم يحسن استغلال الحروف ليشكلها كلمات أدبية تجيد التعبير عما يريد بطريقة سهلة ومبسطة..كتاب ننصحك بقراءته إن كنت من المهتمين بالشأن الأمريكى حيث سيقدم لك وجبة أدبية دسمة تمكنك من التعرف على المجتمع الأمريكى عن قرب وبطريقة شيقة..

دار الكتب

– نعم، علاء مصباح أشعرنى أنه أراد أن يرضى ضميره بهذا الكتاب، فهو شاف حاجات كثير أثرت فيه جدا ووجد أنه دوره الاجتماعى والدينى يحتمان أن يكتب عن هذه الحاجات، فهى نظرة مختلفة لدولة اعتدنا أن نراها من بعيد.

مجلة مصرى

الفهرس

تقديم.. ٨
١– حكايات نيوبولتز... ١٥
٢– أيام فى الأمم المتحدة..................................... ٥٣
٣– عزيزتى نيويورك... ٨٣
٤– حكايات واشنطن دى سى.................................. ١٣٧
٥– حكايات من بوسطن.. ٢٠١
٦– حكايتان من نيوجيرسى..................................... ٢٢٧
٧– حكايات أمريكية.. ٢٤٣
٨– حكايات جامعية... ٢٨٩
– خاتمة.. ٣٣٦